

منير البعلبكي

كنوز القصص الإنساني العالمي

٢

دار العلم للملايين

أسرة آرتامونوف

بقلم : مكسيم غوركي

كنوز القصص الإنساني العالمي
٢

أسرة آرتاموتوف

بقلم: مكسيم غوركي

الجزء الاول

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت
١٩٥٣

М. ГОРЬКИЙ

ДЕЛО АРТАМОНОВЫХ

THE ARTAMONOVS

by Maxim Gorky

الطبعة الاولى

بيروت ، تشرين الأول ، ١٩٥٣



مكسيم غوركي

الى رومان رولان

الرجل

والشاعر

- ١ -

بعد انقضاء عامين ، تقريباً ،على تحرير الأقنان ، لاحظ اعضاء كنيسة « القديس نيقولا » رجلاً غريباً في القداس الذي أقيم لمناسبة ذكرى تجلّي المسيح . لقد شقّ طريقه وسط زحمة المحتشدين في الكنيسة ، دافعاً الناس بمرفقيه في خشونة ، وأقام شموعاً ضخمة أمام الايقونات التي تحظى بإعظامٍ كثير في بلدة دريبوموف . كان رجلاً ذا بنيةٍ قوية ؛ ولحيةٍ ضخمةٍ جَعْدة ، وخطّها الشيب توخيطاً شديـــداً ؛ وشعرٍ كثيف ضارب الى السواد متجعّد كشعر الغجر ؛ وأنفٍ كبير وعينين زرقاوين رماديتين تتطلعان في جَراءةٍ تحتَ جبين ناتيء أشعر . وقد لوحظ حين أُسْبِلت ذراعاه أن راحتيه العريضتين مَسَّتا ركبتيه.

واقترب الى الصليب مع وجوه البلدة وأعيانها . وانما غاظهم ذلك اكثر ما يكون . حتى اذا انتهى القداس وقف أبنـــاء

دربيو موف المقدّمون عند رواق الكنيسة ليتبادلوا الرأي في هذا الغريب لقد زعم بعضهم أنه تاجر من تجار الماشية ، وذهب آخرون الى أنه أحد مأموري التنفيذ ؛ أما رئيس البلدية ،يفساي بايماكوف ، وهو رجل مسالم ذو صحة معتلة ، ولكنه طيب القلب ، فقال وهو يسعل سعالاً خفيفاً :

« أغلب الظن أنه كان عبداً قِنّاً في احدى الاقطاعات — قنّاصاً أو شيئاً آخر من هذا القبيل ، موكولاً اليه أمر العناية بملاهي النبلاء وتسلياتهم . »

وأما تاجر الاقمشة ،بوميبالوف ، الملقب بـ «الصرصور الأرمل» ، وكان شهوانياً متهوساً ، محباً للكلمات الخبيثة ، بشع الصورة يطفح وجهه بآثار الجدري ، فقال في روح غير ودّية :

« هل رأيتم ذراعيه — ما أطولهما ؟ أنظروا كيف يمشي ، وكأنما من أجله هو تقرع اجراس الكنيسة جميعاً . »

وبكتفين عريضتين وأنف ضخم مشى الرجل في الشارع ثابت الخطوات وكأنما يمشي على أرضه . كان يرتدي سترة زرقاء من القماش الجيد ، وحذاء متيناً من الجلد الروسي . كانت يداه مقحمتين في جيوبه ، وكان مرفقاه يضغطان على جسده ضغطاً محكماً . وبعد أن عهد القوم الى بيردانسكايا التي كانت تخبز الرقاقات الصغيرة الخاصة بسرّ العشاء المقدس ، في أن تتولى الفحص عن هوية الرجل ، انقلبوا الى منازلهم ، الى قرع الأجراس ،الى مائدة العيد ،متواعدين على ان يلتقوا في حديقة بوميبالوف حيث يتناولون شاي المساء .

وبعد العشاء شاهد جماعة آخرون من ابناء البلدة الوافد الغريب عبر النهر ، عند الموقع المعروف بـ « لسان البقرة » ، في أراضي الأمراء راتسكي . كان يسعى وسط أدغال الصفصاف ، يقيس البقعة الرملية بخطوات واسعة مطمئنة . ثم انه ظلل عينيه بيده ، ونظر الى البلدة القائمة من ورائه ، والى نهر الـ « أوكا » ورافده المتحير ، « فاتا راكشا » الصغير ، السبخ ، الكثير اللف والدوران. وكان أبناء دريبوموف قوماً اصحاب حذر واحتياط . فلم تكن عند أحد منهم الجرأة على ان ينادي الرجل ويسأله من هو وأي شيء يريد ؟ وأخيراً عهدوا في هذه المهمة الى الشرطي ماشكا ستوبا – الرجل الماجن السكير . فخلع سرواله ، في غير ما حياء ، امام نساء البلدة ، ولكنه ابقى قبعته المتغضنة على رأسه ، وخوّض في مياه الـ « فاتاراكشا » الموحلة ، حتى اذا اجتازه زفر زفرة عميقة من جوفه المخمور ، وتقدم الى الغريب في مشية ساخرة . وفي صوت عال قصد به الى الابقاء على شجاعته سأل الرجل :

« من انت ؟ »

ولم يُسمع جواب الرجل الغريب ، ولكن ستوبا انقلب الى رؤسائه في الحال وروى على مسامعهم الحكاية :

« لقد اراد ان يعرف اين فقدت لياقتي . إن له لنظرة شريرة في عينيه ، مثل نظرات قطّاع الطرق تماماً . »

وفي حديقة بوميالوف ، ذلك المساء ، اعلنت بيردانسكايا ، خابزة الرقاقات المصابة بتضخم الغدّة الدرقية والشهيرة بحكمتها

وبقدرتها على قراءة المستقبل ، امـــام سراة البلدة الجاحظة أعينهم رعباً :

« اسمه ايليا آرتامونوف .يقول انه سوف يعيش هنا من اجل تجارته ،غير اني لم اوفق الى معرفة نوع هذه التجارة . لقد اقبل براً من فورعوروود ،وغادر البلدة من حيث اتى ،بعيد الساعة الثالثة من اصيل اليوم .»

كان ذلك كل شيء . لم يكن في ميسورهم ان يعرفوا شيئاً اضافياً عن الرجل . وكان هذا شيئاً مزعجاً في الحق ـ لكأنما نقر امرؤ باصبعـه على النافذة ، في موهن من الليـــل ، ثم اختفى ، تاركاً انذاراً صامتاً بكارثة توشك ان تقع .

وانقضت اسابيع ثلاثة تقريباً . وزايلت الانطباعة الغامضة ذاكرة اهل البلدة ، او كادت . وفجأة ظهر آرتامونوف هذا ، ومعه ثلاثة اولاد ، وقصد لتو"ه الى بابا كوف معلناً في توكيد :

« حسناً ، يفساي متريتش ، ههنا مستوطنون جُدُد سوف يستظلون براية ادارتك الحكيمة . تفضل وساعدني على ان انزل هنا ، في ما بينكم ، وانشيء حياة صالحة . »

وفي ايجاز مباشر ، اوضح انه كان عبداً قناً من اقنان الامراء راتسكي في اقطاعتهم القائمة قرب كورسك ، عـــلى نهر راتي ، حيث عمل قهرماناً للأمير جيورجي . وبعد التحرير غادر الاقطاعة ، وفي جيبه مبلغ حسن من المال ، واعتزم ان يبدأ عملاً لحسابه الشخصي ، فينشيء مصنعاً للمنسوجات الكتانية . كان أرمل . وكانت اسماء اولاده تجري هكذا : بيوتر وهو الاكبر ؛ نيكيتا وهو الاحدب ؛

وآليوشا وهو الاصغر — وكان ابن اخت له ، ولكنه تبناه تبنيا شرعياً .

ولاحظ بابما كوف بعد تفكير :

«ولكن فلاحينا لا يزرعون كثيراً من الكتان . »

— « سوف نجعلهم يزرعون مقادير اكبر . »

كان صوت آرتامونوف غليظاً خشناً ، وكان كلامه اشبه ما يكون بالصوت الذي يصدر عن طبل كبير . وكان بابما كوف ، عمره ، يمشي في الارض هوناً ويتكلم في رفق وأناة وكأنما هو يخشى ان يوقظ كائناً مخيفاً ما . فزر عينيه الوادعتين المصبّغتين بلون بنفسجي كئيب ، وتطلع الى اولاد آرتامونوف الواقفين بوصيد الباب وكأنهم صمّ الحجارة . كانوا انماطاً مختلفة جداً . اما اكبرهم فكان يشبه اباه : صدر عريض ، وجبين اشعر ، وعينان صغيرتان جافيتان . واما نيكيتا فكانت له عينا فتاة ، كبيرتان زرقاوان كقميصه . واما الكسي فكان ولداً حسنَ الطلعة ، احمر الوجنتين ، أبيض البشرة ، جعد الشعر تطفو على وجهه سيما الصراحة والبشر .

وسأله بابما كوف :

« واحد منهم للجيش ؟ »

— « لا ، أنا في حاجة اليهم جميعاً . لقد حصلت على إعفاء . »

وأومأ آرتامونوف للاولاد قائلًا :

« اخرجوا » .

وحين غادروا الغرفة — في هدوء ، وفي صف مستقيم انتظمهم

وفقَ أعمارهم ــ وضع آرتامونوف يده الثقيلة على ركبة بابما كوف وقال :

« يفساي متريتش ، ما دمتُ في موضوع الاولاد ، فيحسن بي ان اعرض عليك هذا المشروع : اني أطلب يدَ ابنتك لابني البكر . »

وذُعِرَ بابما كوف ، وهزّ ذراعيه ، ونهض من مقعده قائلاً :

« ليكن الربّ معك ! انا لم أرك من قبل قطّ ، واني لا أعرف عنك شيئاً ، وتأتيني فجأة بشيء مثل هذا ؟! ثم انه ليس عندي غير بنت واحدة ، وهي بعدُ أصغر من أن تزوّج . وفضلاً عن ذلك ، فأنت لم ترَها في يوم ، ولستَ تعرف شيئاً عن شكلها وهيئتها . كيف تستطيع أن تنطق بمثل هذه الأمور ؟ »

ولكن آرتامونوف اكتفى بأن ابتسم ابتسامة خفية من خلال لحيته الجعدة وقال :

« تستطيع أن تسأل مدير الشرطة عني . انه مدين لأميري دينا كبيراً ، ولقد كتب اليه الامير بضرورة مساعدتي في كل عمل أقوم به . انك لن تسمع شيئاً يسوؤك ، اقسم لك بالأيقونات المقدسة . وانا اعرف ابنتك ايضا . أنا اعرف كل شيء في بلدتكم هذه . لقد هبطتُ هذه البقعة اربع مرات ، في غير ما جلبة ولا ضوضاء ، ودرست كل شيء . لقد هبط ابني الاكبر بلدتكم ايضا ، ورأى الى بنتك ــ لا يأخذْك الهمّ من هذه الناحية ! »

واستحوذ على بابما كوف شعور كذلك الذي يستحوذ على

رجل وقع في قبضة دب ، وسأل زائره :

« ألا تنتظر ... »

ـ « استطيع ان انتظر ، ولكن فترة قصيرة ليس غير . لقد غدوت شيخا كبيراً ،» كذلك اجاب الرجل الغريب المتحكم ، في تجهم ، وأطل من النافذة على الفناء وصاح :

« تعالوا وانحنوا لمضيفكم . »

وحين خرجت الاسرة من لدنه انقلب بابا كوف جزعا الى الايقونات ، ورسم على صدره اشارة الصليب ثلاث مرات وهمس :

« ليحفظنا الله ! اي نوع من الناس هؤلاء ؟ إحمنا يا رب من السوء ! »

وتوكأ على عصاه في تِثقَل ، وجرّ نفسه الى الحديقة حيث كانت زوجه وابنته تُعدّان بعض المربّيات في ظل شجرة من اشجار الزيزفون . وسألته زوجته البدينة المليحة :

« من هم اولئك الاولاد الصغار الذين كانوا في فناء الدار ، يا متريتش ؟ »

ـ « لا أحد يدري . أين ناتاليا ؟ »

ـ « ذهبت الى بيت المؤونة لتأتي بالسكّر . »

ـ « لتأتي بالسكر » ردد بابا كوف هذه العبارة في عبوس ، وهو يريح جسمه الضعيف على مرتفع من الارض معشوشب . « السكّر . أجل ، صحيحٌ ما يقولون : ان التحرير سوف يجر على الناس كثيراً من البلاء . »

وتطلعت زوجته اليه ، معنةً النظر ، وتساءلت في جَرْسٍ جازع :

« ما بك ؟ هل عاودك الداء ؟ » .

– « انا موجَعُ القلب . اني أحسّ أن رجلاً قد أقبل ليأخذ مكاني في العالم . »

وحاولت زوجته ان تسليه عن همومه :

« لا تكن سخيفاً ! ان افواجاً من الناس لتتدفق على البلدة من الريف ، في هذه الايام . »

– « هذا صحيح . ان الناس ليتدفقون على البلدة افواجاً . لن أخبرك بشيء الآن . دعيني افكر في المسألة ملياً . »

وبعد خمسة أيام لزم بابا كوف الفراش من جديد ، وبعد اثني عشر يوماً قضى نحبه . والحق أن موته ألقى ظلاً أشد كثافة على آرتامونوف وأولاده . وكان آرتامونوف قد عاد رئيس البلدية أثناء مرضه ، مرتين ، وتحدثا حديثاً طويلاً لم يسمعه أحد غيرهما . وفي المرة الثانية نادى بابا كوف زوجته وقال ، طاوياً ذراعيه ، في ضجر ، على صدره :

« هناك – تحدّث اليها . يبدو لي وكأنني لن أشارك في شؤون هذا العالم بعد اليوم . دعني استريح . »

– « تعالي معي يا أوليانا ايفانوفنا ، » قال آرتامونوف ذلك وغادر الغرفة من غير أن ينظر الى الوراء ليرى ما اذا كانت تتبعه أم لا .

– « اذهبي يا أوليانا . انه القضاء فيما يبدو . » قال رئيس البلدية ذلك ، في هدوء ، بعد أن رأى الى زوجته تتردد في اللحاق بالزائر . كانت امرأة قوية الشخصية ، بارعة ، لا تقدم على عمل الا

بعد تفكير وتروية . ومع ذلك فقد جرت الأمور على نحوٍ جعلها تنقلب الى زوجها ، بعد ساعة ، وتقول نافضة العبرات من أهدابها الطويلة الفاتنة :

« حسناً ، متريتش . يبدو أنه القضاء حقاً . امنح ابنتنا بركتك . »

وفي ذلك المساء قادت الأم ابنتها ، وهي في حلة زاهية ، الى فراش والدها . ودفع آرتامونوف ابنه الى داخل الغرفة ، وأمسك كل من الفتى والفتاة بيد صاحبه ، مجتنبين وقوع العين على العين ، وركعا على الأرض . وخفض العروسان رأسيهما ، ورفع بايما كوف وهو يلهث لهاثاً قوياً ، أيقونة الأسرة المرصعة باللآلىء فوقهما وقال :

« باسم الآب ، والابن . . . لا تتخلّ يا رباه عن ولدي الوحيد ! »

ثم التفت الى آرتامونوف وقال في تجهم :

« أذكر أنك ستكون مسؤولاً ، أمام الله ، عن ابنتي ! »

وانحنى آرتامونوف حتى لمسّ بيده ارض الغرفة وقال :

- « أعرف ذلك . »

ومن غير أن يقول كلمة لطيفة لكنّته المقبلة ، ومكتفياً بنظرة سريعة ألقاها عليها وعلى ابنه ، حنى آرتامونوف رأسه لدى الباب وقال :

« اذهب ! »

وحين غادر الخطيب الغرفة ، جلس آرتامونوف على حافة الفراش وقال في عزم :

« اطمئنّ بالاً . ان كل شيء سوف يسير سيراً حسناً . فطوال سبع وثلاثين سنة خدمت امرائي من غير أن أتعرّض لبلاءٍ ما . والانسان ليس هو الله . الأنسان ليس رحيماً . ان مـن العسير

ارضاءه . وأنت لن تندمي على ذلك ايضاً يا أوليانا. سوف تكونين أماً لأولادي ، ولسوف يؤمرون بأن يحترموك . »

وأصاخ بابما كوف من غير ان ينبس بكلمة ، محدقاً الى الايقونات المعلقة في الزاوية . وسالت العبرات من عينيه . واجهشت اوليانا أيضاً للبكاء . ولكن الرجل تابع كلامه متأسفاً :

« آه ، يفساي متريتش ، انك لتفارقنا في وقت مبكر . أنت لم تحط نفسك بالعناية الضرورية . وفي اللحظة نفسها التي أستشعر فيها أعظم الحاجة اليك — لكأنّ سكيناً يحز حنجرتي حزاً ! »

وفي حركة عنيفة خاطفة جذب احدى يديه عبر لحيته وزفر زفرةً دامعة وقال :

« أنا على علم بأحوالك . انك رجل مخلص ، راجح العقل . وأنت وانا جميعاً ، أيّ شيء كان يُعجزنا عمله ، في خمس سنوات أخرى ! آه ، حسناً ، انها مشيئة الله ! »

وصرخت اوليانا وهي تبكي :

« لماذا تنعب هكذا كالغراب ؟ لماذا تُدخل الرعب الى قلوبنا ؟ لعلّ . . »

ولكن آرتامونوف نهض من مكانه ، وانحنى لبابما كوف وكأنما ينحني امام رجل ميت :

« اشكرك على وديعتك . الى اللقاء . يتعين علي أن أمضي الى النهر . فقد وصل المركب وعلى متنه أمتعتي ».

وحين بارح المكان صاحت بابما كوفا في استهجان :

« ما أشد فظاظة هؤلاء الريفيين ! لم يستطع أن يقول كلمة

كريمة لابنه الذي جاء يخطب له ».

ولكن زوجها نهرها :

« لا تثيريني . لا توقعي الهم في نفسي ».

وبعد أن فكر قليلاً قال :

« إلزمي هذا الرجل . أحسّ أنه خير من رهطنا هنا ».

وشيعت البلدة كلها جثمان بابـاكوف الى مقره الاخير ، واشترك في أداء الصلوات عن روحه كهان الكنائس الخمس جميعاً. وسارت اسرة آرتامونوف في الجنـازة وراء زوج الفقيد وابنته مباشرة ، مما أثار استياء أبنـاء البلدة جميعاً . وسمع الاحدب ، نيكيتا ، وكان يمشي وراء أبيه وأخويه ، اصواتاً تدمدم :

« رجل لا يعرفه أحـد ، ثم يدافع الناسَ ويزاحمهم ليسير في الصف الاول ! »

وهمس بوميالوف ،وهو يـدير عينيه المكورتين اللتين يشبه لونهما لون البلوط :

« كان يفساي ، أسبغ الله الأمن على روحـه ، رجلاً كثير الحذر ، واوليانا يقظة كذلك . انهما لم يعملا قط شيئاً لغير مـا سبب وجيه . ان في الامر لسراً . لا بد ان يكون هذا الرجل الحاد النظرات قد اغراهما بطريقة ما ، والا فما الذي حماهما على أن يتخذا من ابنه صهراً لهما ؟ »

— « اجل ، انها لتجارة سوداء . »

— « ذلك ما أقوله — تجارة سوداء . تزوير العملة ، في أغلب الظن . وفكّرَ بعـد ذلك أيّ قديس يريد باباكوف أن يلبس

مسوحه أمامنا ! »

وإذ سمع نيكيتا هـذا الحديث ، حنى رأسه وقوّس حَدَبَته وكأنه متوقع أن يُصفع . كان نهاراً عاصفاً . وكانت الريح تهب في أقفية الناس ؛ وكان الغبار الذي أثارته مئاتُ الاقدام السائرة في الجنازة يتراكم كثيفاً فوق رؤوس القوم الحـاسرة المدّهنة بضروب الزيوت المثبتة للشعر ، وقال بعضهم :

« انظروا الى آرتامونوف كيف يعلوه غبـارنا من رأسه الى أخمص قدميه . لقد استحال شعر الغجري رمادياً أشيب . »

وبعد عشرة أيام من تشييع بابا كوف الى مقره الاخير وجهت أوليانا بابا كوفا وابنتها وجهيهما الى أحـد الاديار ، فاستأجر آرتامونوف بيتهما . وعاش هو وأولاده وكأنهم في قلب عاصفة . فمن الصباح حتى المساء كان النـاس يرونهم يهرولون مسرعين في شوارع البلدة كلها راسمين في خفة وسرعة علامة الصليب كلما مروا بكنيسة ما . كان الاب صخاباً ذا طـاقة عارمة لا يتطرق اليها الكلال . وكان الابن الاكبر عبوساً ، قليل الكلام ، وكان في ما يبدو واحداً من اثنين إما جباناً وإما خجولاً . وكان اليوشا الجميل يتحدى صبيان البلدة ويغمز الفتيات في جرأة بالغة . أما نيكيتا ، بسنامه ذي الزوايا ، فكان يهرع عند مشرق الشمس الى « لسان البقرة » ، عبر النهر . هنـا كان النجارون والبناؤون يحتشدون كبعض ضروب الطير التي تعيش أسرابـاً ، منشئين ثكنة آجرية طويلة ، ومقيمين على مبعدة يسيرة ، قرب نهر ال «أوكا» ، بيتاً كبيراً مؤلفاً من دورين يبلغ قطر كل من الاخشاب المصطنعة



في بنائه اثنتي عشرة بوصة – بيتاً هو أشبه ما يكون بالسجن .
وعند المساء ، كان اهالي دريبوموف يجتمعون على ضفة الـ « فاتاراكشا » يتسلون بتكسير بزور اليقطين ودوّار الشمس ، ويستمعون الى صرير المناشير وأنينها ، والى فحيح المساحيج (*) وضربات الفؤوس الحادة المدوية . وكانوا يتحدثون في لهجة ساخرة عن هذه المحاولة العابثة لبناء برج بابل ، فيؤكد لهم بومبيالوف خطل الفكرة ويتنبأ للغرباء بكوارث لا بدّ ان تنزل في ساحتهم :
« ان مياه الينابيع سوف تقوّض اركان هذه المنشآت البشعة . وقد تندلع ألسنة النار أيضاً ما دام النجارون يدخنون التبغ وما دامت النُّشارة والنُّجارة تملآن المكان . »
فيجيبه القسّ فاسيلي :
« انهم يبنون على رمل . »
« غداً عندما يستأجرون العمال في مصنعهم سيكون عندنا عربدة ، ولصوصية ، وانحلال اخلاقي . »
وعلى هذا يردّ لوقا بارسكي ، الطحان وصاحب الحانة ، وهو رجلٌ كثير الشحم واللحم ، بصوت منخفض مبحوح :
« كلما كَثُرَ الناس ، كثُر الزبائن . هذا شيء حسن – دع الناسَ يعملون . »
وكان نيكيتا آرتامونوف ، وهو ينشط في عمله ، موضوعاً خصباً لتندّر أهل البلدة وتهكمهم . لقد جرّدَ رقعةً واسعة من الارض ، قاطعاً أشجار الصفصاف ، مجتثاً اياها من اصولها . ثم قضى اياماً

(*) المسحاج : « فأرة » النجار التي يجلو بها الخشب .

طويلة يرفع وحلاً كثيفاً من قعر الـ « فاتارا كشا » ، أو يقتلــع النباتات اليابسة من الأجمة ، وينقلها في عجلةٍ صغيرة ذات دولاب واحد ، وهو منحنٍ انحناءةً تجعل سنامه مصوَّبَ الرأس الى السماء. وبعد ذلك أقام من الوحل والنباتات اليابسة اكواماً صغيرة سوداء موزعةً فوق ارضه الرملية كلها .

وقال احد أبناء البلدة في لهجة الحكيم العاقل :

« انه يحاول ان ينشيء حديقة للخُضر . انه لمجنون حقاً . من ذا الذي يستطيع ان يُخَصِّبَ الرمل ؟ »

حتى اذا غربت الشمس كانت اسرة آرتامونوف تعود ادراجها عبر النهر ، صفاً واحداً ، يتقدّمه الاب ، وقد سقطت ظلالها على المياه الضارب لونها الى الخضرة . وعنــــدئذ يهمس بوميالوف مشيراً ببنانه :

« انظروا ، انظروا ظل الاحدب ! »

فيرى القوم الى الظل الثالث ، ظل نيكيتا ، يرتعش ويرتجف فوق الماء ، وقد بدا أثقل من ظل أخويه الآخرين الأكثر طولا .

وذات يوم ، بعد مطرٍ غزيرٍ ارتفعت بسببه مياه النهر ، اعترضت سبيل الاحدب عقبة ما ، أو لعل قدمه زلّت في احــــدى الحفر وغاب تحت سطح الماء . فما كان من الناس القائمين على الضفـة الا ان انفجروا ضاحكين ما عدا اولغا اورلوفا الصغيرة ، بنت الساعاتي السكّير ، وعمرها لا يعدو الثلاثة عشر ربيعــــاً ، التي اطلقت صرخة جازعة :

« اوه ، أوه ، انه سوف يغرق ! »

فصفعها بعضهم في عنف وقال لها :

« لا تبكي على لا شيء ! »

وغاص ألكسي ، وكان في المؤخرة، في لجة المـــاء وأمسك بأخيه وأوقفه على قدميه . حتى اذا بلغا الضفة وكلاهما مبلل الثياب قد سوّده الوحل ، هرع ألكسي الى حيث كان يتجمهر ابناء البلدة فولوا منه فراراً ، وهمهم أحدهم في خوف :

« آه ، انه لوحش صغير ! »

وقال بيوتر :

« انهم لا يحبوننا . »

فالتفت ابوه اليه وقال من غير أن يقف :

« أعطني مهلة — ولسوف تجد انهم سيحبوننا . »

وانتهر نيكيتا قائلاً:

« أنت ايها النطار * ! أفتح عينيك دائماً ، ولا تجعل نفسك ضحكة للناس . نحن لسنا مهرجين يا رأس الملفوف ! »

وعاشت اسرة آرتامونوف عيشاً متوحداً ، فلم تلتمس التعرف الى احد من الناس . وكانت تعنى ببيت الاسرة امرأة بدينة عجوز لا تفتأ تلبس ثياباً سوداء وتربط منديلها الأسود حول رأسها بحيث يبرز طرفاه وكأنهما قرنان . وكانت هذه المرأة تتكلم قليلاً قليلاً وتهشم كلماتها تهشيماً غريباً جداً حتى ليتعذر على أي امرىء ان يفهمها ، فكأنها ليست روسية . ولم تكن ثمة معلومات يمكن ان تستقى منها حول أسرة آرتامونوف وشأنها .

(*) النطار : الخيال المنصوب بين الزرع لتخويف الطيور والحيوانات .

وقال الناس :

« يا لهم من أوغاد يلبسون ثياب الرهبان . »

وتحقق لديهم أن الأب وابنه البكر قاما برحلات متكررة الى الأرياف المجاورة ، ليحثا الفلاحين على زراعة الكتان . وفي احدى هذه الرحلات هاجم نفر من الجنود الفارين إيليا آرتامونوف فقتل بسلاحه الذي لم يكن يملك غيره ، وهو معيار يزن رطلين معلق بسير من جلد غير مدبوغ ، واحداً من هؤلاء الجند وهشم رأس آخر . أما الجندي الثالث فاطلق ساقيه للريح . وامتدح مدير البوليس شجاعة آرتامونوف ، وفرض راعي أبرشية ايلينسك الفقيرة ، وكان شاباً ، دية على ايليا مقدارها صلاة أربعين ليلة في الكنيسة .

وفي بعض ليالي الخريف كان نيكيتا يتلو على أبيه وأخويه فصولاً من سير القديسين ومواعظ آباء الكنيسة ، ولكن والده كان كثيراً ما يعترضه قائلاً :

« هذه الحكمة متشامخة جداً . انها فوق ما نستطيع ادراكه . نحن عمال بسطاء ، وان التفكير في امثال هذه الأمور لم يُجعل لنا . لقد خُلقنا للأشياء البسيطة . كان الأمير يوري - أمد الله روحه بالأمن والطمأنينة — يقرأ في سبعة آلاف كتاب ، وقد استغرق في التفكير بهذه الامور كلها حتى لقد فقد ايمانه بالله . لقد طاف بالعالم كله ، ولم يبق ملك من ملوك الارض لم يستقبله . رجل شهير ! ولكنه حين أنشأ مصنعاً للاقمشة لم يوفق الى النجاح . أجل وكان كل عمل يضع اصبعه فيه يمنى بالفشل والاخفاق . وهكذا

عاش حياته كلها عالة على فلاحيه .»

وكان ايليا يلفظ كلماته في وضوح ، ويتمهل ليفكر ، وليسمع جرْس كلامه هو قبل ان يواصل القاء موعظته :

« ان الحياة سوف تكون صعبة بالنسبة اليكم . يجب ان تضعوا قوانينكم بأنفسكم وأن تحموا أنفسكم بأنفسكم . أما أنا فلم أعش وفق ارادتي - لقد عشت كما أُمرت . فاذا جرت الأمور على نحو معوج فقد كنت أراها ولكني ما كنت أستطيع تقويمها . تلك كانت مهمة النبلاء لا مهمتي . لم تكن لي الجرأة على ان أعمل منفرداً من غير ما مساعد ، بل لقد كنت اخشى ان افكر ، خشية ان تختلط افكاري بافكار الطبقة الرفيعة . هل انت سامع يا بيوتر ؟ »

- « أنا سامع .»

- « هذا صحيح . أريد منك ان تفهم . ان الرجل ليكون حياً ، ومع ذلك فكأنما هو غير موجود البتة . طبعاً كانت ثمة مسؤوليات أقلّ وتبعات أيسر . كان المرء لا يعمل وفق ارادته وانما يُقتاد اقتياداً . كانت الحياة أيسر ولم يكن عليك أن تجيب عن اكثر من هذا السؤال : ما الفائدة ؟ »

وكان يتحدث احياناً ساعة بكاملها ، بل ساعتين بكاملهما ، متوقفاً بين الفينة والفينة ليسأل ما اذا كان اولاده يسمعون . وكان يجلس على الموقد ، ورجلاه متدليتان ، واصابعه غارقة في لحيته الجعدة ، ويصوغ سلسلة كلماته حلقة حلقة في اناة بالغة . وكانت ظلمة دافئة تنعقد في سماء المطبخ الرحب النظيف ، فيما تصفر الرياح خارج الابواب متزلجة في رقة عبر زجاج النوافذ ، او فيما تكون

الدنيا زرقاء من الصقيع . وكان بيوتر يجلس الى الطاولة ، وامامه شمعة من الشحم ، يقلب بعض الاوراق والوثائق حاسباً في تؤدة بواسطة المحسب * وبمساعدة ألكسي ، بينا ينتحي نيكيتا مكاناً قصياً يصنع سلالاً من الصفصاف ذي الاغصان المتدلية ويصقلها في براعة .

— « لقد منحنا القيصر الحرية . وانما ينبغي علينا ان نفهم ما السبب الكامن وراء ذلـــك ؟ فالمرء لا يُخرج الخروف ، حتى الخروف ، من حظيرته لغير ما سبب. وها قد اطلق القيصر الآن سراح شعب بكامله — سراح ملايين من الناس . ومعنى ذلك ان القيصر يدرك انه لا فائدة تُرتجى من النبلاء لانهم يستهلكون كل ما لديهم في مصالحهم الخاصة . والواقع ان الامير جيورجي احس بذلك ، حتى قبل ان تمنح حريتنا . لقـــد قال لي : ان تسخير الاقنان ليس عملاً رابحاً . وهكذا وضعت الدولة ثقتها فينا لنعمل بوصفنا رجالاً احراراً . حتى الجندي لم يعد مضطراً منذ اليوم الى ان يجر مدفعه خمساً وعشرين سنةبطولها .فسيروا الى الامـــام ، واعملوا ! لقد صـــار في ميسور كل امرىء ان يقيم الدليل على كفاياته ومواهبه. النبلاء — لقد دالت دولتهم . انتم النبلاء الآن. اتسمعون ما اقول ؟ »

وقضت اوليانا بابما كوفا في الدير ثلاثة اشهر تقريباً . حتى اذا رجعت الى البيت لم ينتظر آرتامونوف غير يوم واحـــد

(*) كرات تنتظمها شرائط معدنية يستعان بهـــا على تعليم الحساب لصغار التلاميذ .

ليسألها :

« متى سيكون زفاف ولدينا ؟ »

فحدقت اليه مستنكرة :

« ما هـذا الذي تفكر فيه ؟ لقد مات ابوها منذ ستة اشهر ، او اقل ، ولا تجـد بأساً في ان تتحدث . . الا تعرف ان هذا إثم ؟ »

ولكن آرتامونوف قاطعها في صرامة :

« انا لا ارى ايما إثم في ذلك ، ايتهـا النسيبة . ان النبلاء يفعلون ما هو اسوأ من هذا ثم يقف الله في صفهم . ان المسألة بالنسبة اليّ مسألة ضرورة . ان بيوتر محتاج الى زوجة » .

ثم سألها عن مقدار ما معها من مال ، فاجابت :

« لن اقدّم اكثر من خمسمائة الى جانب ابنتي ! »

-- « سوف تقدمين اكثر ! » قال الشيخ ذلك ، في ثقـة ولا مبالاة ، محدقاً الى عينيها تحديقاً قوياً . كانا يجلسان الى الطاولة وجهاً لوجه ، وكان آرتامونوف مستنداً على مرفقيه وقد غرقت كلتا يديه في صوف لحيته المتشابك . وعبست المرأة ، وانسحبت من مجلسها موجسة خيفة. انها في اواخر العقد الرابع من عمرها ، ولكنها كانت تبدو اصغر من ذلك . وكانت عيناها الرماديتان ، المطلتان على وجه سمين متورد ، تشعان ببريق ذكاء صـارم. ونهض آرتامونوف بدوره ، وألقى بكتفيه الى الوراء :

« انت مليحة الوجه ، اوليانا ايفانوفنا . »

فسألته وفي نبرتها الغضب والتهكم معاً :



« وماذا بعد ؟ »

– « لاشيء . »

وغادر الغرفة في جفوة وبخطى ثقيلة . وانفتلت بابما كوفا في اثره ، فوقعت عينهـا على صفحة المرأة ، فهمست في غيظ :

« ذلك الشيطان الملتحي! اي شيء يريد؟ »

وضاق صدرها بنُذُرٍ غامضـة من خطر يتهددها من جانب هذا الرجل ، فارتقت السلم الى مهجع ابنتها . ولكن ناتاليا لم تكن هناك . واطلت بابما كوفا من خلال النافذة على فِناء الدار فاذا بابنتها واقفة هي وبيوتر لدى الباب . واسرعت الارملة الى هبوط السلم وصاحت من الرواق :

« ناتاليا ! ادخلي الى البيت ! »

وانحنى بيوتر لها في احترام ، فقالت :

« ليس من المستحسن، يافتاي المهذب، ان يتكلم المرء هكذا مع احدى الفتيات حين تكون امها غائبة . لست اريد شيئاً من هذا ، بعد اليوم ! »

فذكرها بيوتر :

« ولكنني خطيبها . »

– « سيان . ان لنا عاداتنا الخاصة هنا . »

ورجعت بابما كوفا ، ولكنها فكرت في ذات نفسها :

« ما بي اليوم ؟ انها في مبعة الشباب – ما الذي يزهدهما في اللقاء ؟ لم يكن ذلك حسناً مني . لكأنما حسدت ابنتي نفسها . »

ومع ذلك فلم تكد ابنتها تدخل البيت حتى امسكت بشعرها

وشدتهامنه شداً مؤلماً وحرمت عليها ان تتكلم مع بيوتو وهما منفردان ، قائلة في قسوة :

« قد تكونين خطيبته ، ولكن من الذي يستطيع ان يتنبأ : قد تمطر ، وقد تُثلج. قد يتم الزواج وقد لا يتم !»

وشوّش افكارَها حَصرٌ نفسي قاتم . وبعد بضعة ايام شخصت الى بيردانسكايا لتستطلع المستقبل . وكانت نساء المدينة جميعاً يحملن آثامهن ، ومخاوفهن ، واحزانهن الى قارئة الحظ البدينة الجرَسية الشكل، المصابة بتضخم الغدة الدرقية .

— « لا داعي لسؤال اوراق اللعب عن ذلك » ، قالت بيردانسكايا ، « استطيع ان اقول لك مباشرة يا عزيزتي : إلزمي ذلك الرجل . اني لم أُعطَ مثل هاتين العينين المحدقتين عبثاً — انا افهم الناسَ . انا استطلع بواسطتهما كما استطلع بواسطة اوراق لعبي الخاصة . انظري ما اسعد حظه ! كل عمل يباشره لا يلبث ان ينجح ، وابناء بلدتنا جميعاً يتأكلهم الحسد . لا تخافي منه، يا عزيزتي . هو لا يعيش كالثعلب . انه يعيش كالدب . »

— « هكذا تماماً ، كالدب . » قالت الارملة ذلك وتنهدت . ثم انها اردفت :

« اني خائفة ، فمنذ ان رأيته اول مرة ، يوم اقبل طالباً يد ابنتي ، اخذني الخوف منه . لقد جاءنا ُفجاءةً ، وكأنما هبط من السحب ؛ جاءنا غريباً عن كل انسان وزاحم الناس جميعاً على مصاهرتنا . من سمع قبل اليوم بشيء مثل هذا ؟ وأذكر انه حين تكلم اكتفيت بالتحديق الى عينيه الجريئتين ، واقررته على كل

شيء وكأنما كان يمسك بخناقي .

واوضحت صانعة الرقاقات الحكيمة :

« هذا يعني انه مؤمن بقوته . »

ولكن هذا كله لم يهدىء من قلق بابما كوفا ، على الرغم من ان قارئة الحظ اضافت حين غادرت زائرتها الغرفة المظلمة المشبعة بروائح الاعشاب الجافة :

« اذكري انه في القصص الخرافية وحدها يكون المعتوهون اصحاب حظ سعيد . »

كانت تطري آرتامونوف اطراء يثير الظنون وتندفع في الثناء عليه وكأنها امرأة قبضت ثمن كل من كلماتها. أما ماتريبونا بارسكايا الضخمة ، الداكنة فتحدثت بلهجة أخرى :

« ان البلدة باسرها لترثي لك وتتحسر عليك . اوليانا ، ألست خائفة من هؤلاء الغرباء ؟ خذي حذرك ! ليس مصادفة صرفة ان يكون احد اولاده احدب . ينبغي ان يكون ابواه قد اقترفا اثماً كبيراً حتى يولد على هذه الصورة الممسوخة . »

وصعب ذلك على بابما كوفا ، وراحت تنحي باللائمة على ابنتها برغم علمها أنها غير خليقة بالملام . لقد حاولت أن تتجنب جهدها الاتصال بأسرة آرتامونوف التي تشاركها السكنى ، ولكن هؤلاء كانوا يواجهونها اكثر فأكثر ملقين علـــى حياتها ظلاً من الرعب والفزع .

وتسلل الشتاء الى البلدة خفيفاً رفيقاً ثم تكشّف فجأة عن ثورة مجنونة من العواصف الهوج والصقيع اللاذع . لقد غطى الشوارع

والمنـــازل بهضاب سكّرية من الثلج ، وكسا اعشاش العصافير وقباب الكنائس بغلائل قطنية، وكبل الأنهار ومياه المستنقعات الصدئةبأغلال من الحديدالأبيض فكان أبناءالبلدة يجتمعون في أيام العطـلة فوق سطح الـ « أوكا » المتجمد ليخوضوا بقبضات اكفهم معركة ضد فلاحي القرى المجاورة . وكان الكسي يشارك فيجميع هذه المباريات ، وكان كل مرة يرجع الى البيت محطماً هائجاً .

ويسأله آرتامونوف :

« ما بك يا آليوشا ؟ أيقاتل الناس ههنا أحسن مما يقاتلون في ديارنا ؟ »

ويعتصم ألكسي بصمت كئيب ، ويحكّ مواضع اللكمات التي اصابته ، بقطعة نقدية من النحاس أو بقطعة من الثلج ، وقـد التمعت عيناه الصقريتان ببريق شديد .

وقال بيوتر يوماً :

« ان الكسي يحسن القتال . ان جماعتنا ، من ابناء البلدة ، هم الذين يكيلون له اللكمات . »

وهنا تساءل ايليا آرتامونوف واضعاً جمع كفه على الطاولة :

« لماذا ؟ »

— « بسببٍ من البغض . »

— « لمن ؟ »

— « لنا كلنا كأسرة . »

وضرب الاب الطاولة بجمع كفه . ووقعت الشمعة على الأرض وانطفأت . وتحت جنح الظلام انبعثت زمجرة مكبوتة :

« بغض، وحب – انت تتكلم كالبنات ! لا تسمعني شيئاً مثل هذا بعد اليوم ! »

وأضاء نيكيتا الشمعة وقال في أناة :

« يجب ان لا يخرج آليوشا الى القتال . »

– « وهكذا سوف يضحك الناس ويقولون : لقد خاف آرتامونوف ! اخرس أيها الجُعَل ! أيها الضعيف العاجز ! »

وعنفهم ايليا تعنيفاً قاسياً . وبعد بضعة ايام ، وكانوا يتناولون طعام العشاء ، قال في حنان عابس :

« ينبغي عليكم ان تخرجوا لاصطياد الدببة ، ايها الفتيان – تلك رياضة صالحة ! لقد كنت اخرج لصيدها مع الأمير جيورجي في غابات ريازان . وكنا نستعمل الرماح في ذلك . ولقد كانت في الحق شيئاً ماتعاً ! »

واخذته الحماسة فوصف لهم بعض ايامه الموفقة في القنص . وبعد أسبوع قصد هو وبيوتر والكسي الى الغابة وقتلوا دباً ضخماً ضارياً . ثم ان الاخوين انطلقا وحدهما واستفزا دبة ذات أولاد صغار . فما كان من الدبة الا أن مزقت سترة الكسي المصنوعة من جلد الغنم وخدشت وَرِكه . ولكن الأخوين تغلبا عليها آخر الأمر فانقلبا الى البيت بدبين صغيرين ، تاركين الفريسة الميتة في الغابة طعاماً للذئاب .

وكان أهل البلدة يسألون بابا كوفا :

« حسناً ، كيف تجدين مسلك أسرة آرتامونوف ؟ »

– « الحق أنهم قوم صالحون . »

فيعلق بوميالوف بقوله :

« يظل الخنزير مسالماً ما دام الشتاء . »

وادركت الارملة فترةً ما – وهي لا تكاد تصدق – ان موقف الناس المعادي من اسرة آرتامونوف صار يغيظها ، وان البغض العام لهم أخذ يؤذيها هي ايضاً . لقد رأت ان أسرة آرتامونوف تعيش في جو من الوقار والوفاق ، مواظبة على أداء العمل الذي ندبت نفسها له ، غير مفسحة المجال لنشوء أيما فكرة من فكرات السوء .وبعد انراقبت ابنتها وبيوتر مراقبة دقيقة انتهت الى الاعتقـ اد بأن هذا الشاب القصير الممتلىء ، الكثير الصمت ، كان على رصانة أرجح من تلك التي تقتضيها سنه . انه لم يحاول يوماً ان يزحم ناتاليا في زاوية من الزوايا ، أو أن يدغدغها أو يهمس في أذنها كلمات نابية شأن فتيان المدن. وتداخل بابيا كوفا الجزعُ من موقف بيوتر الغريب من الفتاة ، هذا الموقف الفاتر ، وان يكن في بعض الأحيان كثيرَ القلق ، سيء الظن أيضاً :

« انه لن يكون زوجاً شفيقاً . »

ومع ذلك فقد كانت تهبط السلم يوماً فسمعت صوت ابنتها في الرواق :

« اذاهب انت لاقتناص الدببة من جديد ؟ »

– « نحن نعتزم ذلك . لماذا ؟ »

– « انها لمغامرة خطرة. لقد اوذي آليوشا في المرة الماضية . »

– «تلك كانت غلطته. لقد تعجل باكثر مما ينبغي. واذن فانتِ تفكرين فيّ ؟ »

ـ « انا لم اقل شيئاً عنك . »

فقالت الام في ذات نفسها :

« ايتها الفاجرة الصغيرة ، » وابتسمت وتنهدت ، « ولكنه بسيط جداً . »

وكان ايليا آرتامونوف يقول لها دائماً ، ملحفاً في الطلب يوماً بعد يوم :

« عجلي في الزفاف والا عجّلا هما فيه . »

ورأت أنه مصيب حقاً . كانت الفتاة لا تنام الا غراراً ، ولم تكن بقادرة على اخفاء اضطرابها الجسماني . وقبيل عيد الفصح رجعت بها امها الى الدير ، كرة أخرى . حتى اذا عادت بعد شهر وجدت حديقتها المهملة تزهو بتنظيم رائع : لقد انتُزعت الاعشاب الطفيلية من الممرات ، وأزيلت النباتات الفطرية عن الاشجار ، وشذبت شجيرات العليق والتوت ، وضُم بعضها الى بعض ، بيدٍ بارعة صناع . حتى اذا انعطفت في اتجاه النهر ، رأت نيكيتا . كان يصلح السياج الذي خربته مياه الربيع . وكانت حدبته العظمية بارزة الى الأمام على نحو يدعو الى الرثاء ، وقد تحددت معالمها في قوة ووضوح تحت قميصه القطني الطويل ، وكادت ان تخفي عن الابصار رأسه الكبير وشعره السبط الذهبي . ولكي يحول نيكيتا دون تدلي شعره على وجهه فقد ربطه بغصن لدن من أغصان السندر . واذ كان شعره الأشيب يغرق في خضم من الاخضرار القاغم فقد كان يذكر الناظر اليه بناسك عجوز مستغرق في أداء عمله حتى نسيان الذات . وكانت فأسه تتوهج فضية تحت عين الشمس فيما هو يعمل ، محدداً



في براعة وتداً من الاوتاد . وفي صوت رقيق اشبه بصوت الفتيات كان يتغنى ببعض الاغنيات الكنسية . واومضت المياه حريرية خضراء وراء السياج، وتحيرت على صفحتها عروق من اشعة الشمس وكأنها سمكة مرجان مندفعة .

وفي حرارة لم تتوقعها هي نفسها قالت المرأة :

« كان الله معك ! »

وحوّل نيكيتا نور عينيه الزرقاوين الانيستين اليها وقال في رقة :

« ليباركك الله ! »

- « أأنت الذي عنيت بتسوية الحديقة ؟ »

« نعم . »

- « لقد فعلتَ ذلك في براعة . هل انت مولع بالحدائق ؟ »

ومن غير ان ينصرف عن عمله اوضح لها في اختصار انه عمل منذ كان في التاسعة من عمره بستانياً في قصر الامير . وها هو ذا اليوم في التاسعة عشرة من سنيه .

وقالت المرأة في ذات نفسها :

« على الرغم من عاهته كلها فهو غير كئيب . »

وفي المساء، عندما جلست هي وابنتها للشاي في حجرة القعود العلوية وفد عليهما وفي يده باقة من زهور ، وعلى وجهه الشاحب البشع الكئيب ابتسامة :

« هل استطيع ان اقدم اليك هذه الباقة ؟ »

وتساءلت بابما كوفا في ارتباك :

« لماذا؟ » والقت نظرة مرتابةعلى الزهور والاعشاب المرصوفة رصفاً حسناً .

واوضح نيكيتا لها انه خلال عيشه مع النبلاء كان من واجبه ان يحمل صباح كل يوم باقة من زهور الى الاميرة .

ـ « فهمت» ، قالت بابما كوفا ذلك،واحمر وجههابعض الشيء، ثم رفعت رأسها في زهو واردفت :

« ولكن أأذكرك انا باميرتك ؟ ينبغي ان تكون جميلة . »

ـ « آه ، ولكنك انت جميلة ايضاً . »

وشاع الدم في وجه بابما كوفا ، وقالت في ذات نفسها :

« هل أدخل ابوه هذه الفكرة الى رأسه ؟ »

ـ « حسناً ، اشكرك عـــلى هذا الاطراء . » قالت ذلك ، ولكنها لم تـــدعُ نيكيتا الى تناول الشاي معها . حتى اذا غادر الغرفة قالت في ذات نفسها :

« ان له لعينين جميلتين . انها لا تشبهان عيني ابيه . لعله ورثها عن امه . »

وتنهدت وقالت :

« يبدو وكأنما قد كُتب علينا ان نعيش معهم . »

ولم تضغط كثيراً على آرتامونوف لارجاء موعد الزفاف حتى الخريف ، اذ يكون عام كامل قد انقضى على وفاة زوجها . بيد أنها قالت له في عزم :

« ولكني اشترط ان لا تتدخل في هذه المسألة على الاطلاق ، يا ايليا فازيلييفتش .دعني ارتب كل شيء بنفسي ،على طريقتنا نحن ،

على الطريقة القديمة الطيبة. ولسوف يفيدك ذلك أيضاً ، فتتصل بأفاضل الناس عندنا اتصالا مباشراً ، وتجتمع اليهم فرداً فرداً . »

فنخر آرتامونوف في أنَفَة :

«ولكنهم يرونني الآن كفاية . »

وازعجتها كبرياؤه فقالت :

« انهم لا يحبونك هنا »

ـ « إذن فهم يخافونني . »

وقهقهه آرتامونوف ورفع كتفيه .

ـ « ان بيوتر ايضاً ليكثر من الكلام على المحبة والبغض . انكم لتثيرون ضحكي . »

ـ « جائز ، ولكن لي نصيبي من البغض ايضاً . »

ـ « لا يأخذك الهمّ ، ايها النسيب ! »

ورفع آرتامونوف ذراعاً طويلة وجمع كفه جمعاً عنيفاً احال الجلد المشدود الى لون القرمز ، قائلًا :

« اني لبارع في تحطيم الرؤوس . وليس يستطيع احـــد ان يزعجـــني طويلًا . ولسوف امضي في سبيلي مستغنياً عن حب الناس . »

ولم تقل المرأة شيئاً . وارتجفت من خوفها ، وحدثت نفسها قائلة :

« يا له من وحش ! »

وهكذا جاء ذلك اليوم الذي غصّ فيه منزلها الأنيق بصديقات ناتاليا ، وهن بنات أبرز الأسر في البلدة ، وقد ارتدين فساتين من الحرير المقصب فصّلت على الاسلوب القديم ، ذات أردان ضخمة منتفخة

من الكتان الأبيض النفيس ، ورفلن بالوشي الموردو في على الحرير المصبّغ ، وبالتخاريج على المعاصم. لقد انتعلن جميعاً بوابيج من جلد الماء ، وربطن ضفائرهن الطويلة بضروب من العصائب . وكانت العروس على وشك ان تختنق بثوب ثقيل من الحرير المقصب بالفضة تحكم شده على جسمها ازرار منقوشة مذهبة ، من الرقبة حتى الارض ، وقد ألقت على كتفيها سترة من الحرير المقصب بالذهب ، وطوقت شعرها بعصائب بيضاء وزرقاء . لقـــد جلست في الزاوية تحت الايقارنات ، وكأنها تمثال من الثلج ، وراحت تمسح وجهها الناضح عرقاً بمنديل ذي تخاريج « وتنظم الشعر » :

« فوق المروج المعشوشبة ،
فوق الازهار الزرقاء كالسماء ،
تتدفع مياه الفيضان الربيعي ،
المياه الباردة ، آه ، وغير الصافية . »

والتقطت الفتيات النغمة الحائرة التي رددتها شكوى الفتاة العذراء:

ابعثوا بي اذن ، ابعثوا بالعذراء
ابعثوا بي لأنقل الماء الى البيت
ابعثوا بي حافية وسط الفيضان الجليدي
ابعثوا بي عارية ، آه ، وغير كاسية .

وصاح ألكسي ، الضائع في زحمة البنات ، وهو يضحك :
« تلك أغنية مضحكة . انهن يلبسن الفتاة ثوباً مـــن الحرير المقصب ، وكأنها ديك رومي في دلو من الصفيح ، ثم يصحن قائلات انها عارية وغير كاسية ! »
وجلس نيكيتا قرب العروس ، وقد لبس سترة جديدة من

القماش الازرق تحدبت في طيات بشعة مثيرة للهزء ، فوق سنامه.
كانت عيناه الزرقاوان ، المفتوحتان على مصاريعهما ، مركزتين على ناتاليا تركيزاً يحمل معنى غريباً ، لكأنما كان نيكيتا يخاف ان تذوب الفتاة وتتلاشى . وعند مدخل البيت وقفت مـــاتريبونا بارسكايا وقد سدت الباب بالكلية ، وأجـــالت عينيها في القوم وأخذت تهدر في صوت خفيض عميق :

« لست أسمع أيما تفجع في أغنيتكن أيتها العذارى . »

ودخلت الغرفة ، في مثـل خطى الفرس الواسعة ، واخذت تحدثهن في تجهم حديث العادات القـــديمة والخوف الذي يملأ قلب العذراء وهي على عتبة الحياة الجديدة :

« يقولون ان الزواج جدار شيد بالحجارة. ألا فاعلمن ان هذا الجدار متين فليس يجوز أن يهدم ، وأنه مرتفع فليس يجوز ان يثب المرء من فوقه . »

ولكن الفتيات لم يسمعن لها . كانت الغرفة قائظة تكاد تختنق بمن فيها فهرعن الى الابواب، وهن يدفعن المرأة العجوز بالمناكب ناجيات بأنفسهن الى الحديقة . وطاف ألكسي بهن كما تطوف النحلة بالزهور ، وهو يزهو بقميصه الحريري الازرق ، وبنطلونه المخملي الواسع ، مبتهجاً صاخباً وكأنه ثمل .

وجحظت عينا بارسكايا وتجعدت شفتاهـا الغليظتان في حنق وراحت تجمع ذيـــل تنورتها الحريرية المزركشة وتهبط السلم ، وكأنها سحابة من الدخان الكثيف ، لتقول لأوليانا في نبرة من يتنبأ :

« ان ابنتك لمبتهجة . هـــذا الوضع غير سليم . انه مناف للعرف . ان البداية المرحة لتؤدي الى نهاية سيئة ! »

كانت بابما كوفا راكعة على ركبتيها مستغرقة في التفتيش عن شيء في صندوق كبير ذي اطواق من حديد. كانت قطع الحرير المزركش ، والتافتـــا ، والنسيج الصوفي المسكوفي الاحمر ، والشالات الكشميرية ، والعصائب ، والمناشف المطرزة متناثرة حولها، على السرير ، وعلى ارض الغرفة ، وكأنها في سقيفـــة من سقائف السوق . وانعكس شعاع الشمس على المنسوجات الزاهية فاذا بالوانها تتوهج وكأنها سحابة في ساعة الغروب.

« من غير الجائز ان يسكن العريس في منزل العروس قبل الزفاف . كان على اسرة آرتامونوف ان تنتقل الى مكان آخر . »

— « لمَ لمْ تقولي هذا من قبل ؟ لقد تأخرت جداً في اثارة هذا الموضوع حتى امسى من المتعذر علينا البحث فيـــه الآن . »

وانحنت اوليانا فوق الصندوق لتخفي وجهها المضطرب فأجابها الصوت الخفيض العميق :

«لقد وصفك الناس دائماً بالحنكة والبراعة. وهكذا امسكت لساني ، معتقدة انك ذات عقل راجح . وهل لي مصلحة في اسداء النصح ؟ ان كل ما ارغب فيه هو ان اقول الحـق . فاذا لم يرق للناس ، تقبله الله مني بقبول حسن . »

ووقفت بارسكايا كالتمثال حاملة رأسها وكأنه قصعة حشيت حكمة . حتى اذا لم تتلق جواباً ما اندفعت نحو الباب وخرجت. وعندئذ همست اوليانا ، وهي راكعة وسط الالوان المتوهجة ،في

خوف وضيق :

« ساعدني يا آلهي ! إحفظ عليّ عقلي !»

وسمعت حركة لدى الباب، فسارعت الى اقحام وجهها ، كرة اخرى ، في الصندوق ، لتخفي عبراتها . وكان الداخل هونيكيتا.

— « لقد ارسلتني ناتاليا بيفسييفنا لأسألك مـــا اذا كنت في حاجة الى مساعدة . »

— « اشكرك ، يا بني العزيز . »

— « لقد سفحت اولغا اورلوفا الصغيرة الشراب كله على ثيابها، في المطبخ . »

— « لا تقل ذلك ! انها فتاة صغيرة ظريفة يصلح مثلهـــا ان تكون زوجاً لك . »

- « ومن يتزوجني ؟ »

وفي الحديقة كان القوم يشربون الجعة البيتية الصنع . وحول مائدة مستديرة ، في ظل شجرة زيزفون ، جلس ايليا آرتامونوف ، وغرافيلا بارسكي ، وبوميالوف ، عراب العروس ، وزيتايكن الدباغ ذو العينين البيضاوين ، وفوورونوف صانـــع العربات . ووقف بيوتر غير بعيد ، مستنداً الى الشجرة وقد ضمـخ شعره بالطيب تضميخاً كثيفاً حتى لأومض رأسه ببريق معدني ، وراح يستمع في تأدب الى حديث الكبار .

— « ان عاداتكم تختلف من عاداتنا » قال آرتامونوف ذلك بعد تفكير ، فاجابه بوميالوف في زهو :

« نحن هنا الاصل . نحن مادة روسيا الكبرى . »

– « ولكنا لسنا دخلاء ، ايضاً . »
– « ان عاداتنا عريقة . »
– « انها تنمُّ عن تأثر بالعادات الموردافية والشوفاشية . »

وغزت الفتيات الحديقة ، صائحات مقهقهات متدافعــات ، وتحلقن حول المائدة اكليلاً مشرقاً من الالوان ، لينشدن تمنياتهن لابي العريس :

« اوه ، ايها النسيب الكبير ، هذه لك
لأيليا ، ايه ،لفازيليبيفتش
في خطوتك الاولى عسى ان تكسر رجلك ،
وفي خطوتك الثانية ، عسى ان تكسر رجلك الأخرى
وفي خطوتك الثالثة ، عسى ان تكسر عنقك ! »

وفي دهش ، صاح آرتامونوف ملتفتاً الى ابنه :
«هناك تمنيات لك ! »

وتبسم بيوتر في احتراس، وهو ينظر الى الفتيات نظراً جانبيا ويشد احدى أذنيه .

وقال بارسكي :
« توجد تمنيات أخرى . اسمع ! » وضحك ضحكاً عالياً .

« لقد كنا جد لطفاء ، اليوم مع نسيبنا ،
مع سارق فتياتنا العذارى . »

– « جدّ لطفاء ? » وضربت أصابع آرتامونوف عــلى سطح المائدة ضربات سريعة مدوية . لقـــد كان بادي الغضب ، ظاهر الدهش .

وانشدت الفتيات في حماسة بالغة :

« لعلك تطير على أسنان المسحاة
وتتحطم على الصخور ساقطاً من أعلى الجبل
آه ، من اجل خداعك لنا ،
آه ، من أجل اطرائك
لمواطن نائية ، لا نعرفها
ومزارع نائية ، مقفرة كلها
بذرت حسرة من أجلنا ،
بذرت ورويت بالدموع علينا . »

وصاح آرتامونوف وقد أخذ منه التأثر مأخذاً بعيداً :
«تلك هي اذن! حسناً ، ايتها الفتيات ، أنا لا اريد أن أغضبكن ، ولكن علي أن أشيد بمحاسن موطني بالطريقة نفسها . ان عاداتنا ألطف من عاداتكم ، وان رهطنا اكثر دماثة من رهطكم . بل ان عندنا لمثلا يقول : « ان الـ « سفــابا » والـ « أوزوشا » يصبان في الـ « سيم » . ونشكر الله على أنهما لا يصبان في الـ « أوكا » !
— « انتظر ! انت لما تعرفنا بعد . » قال بارسكي ذلك وليس يدري أحد أقصد الى الفخر أم الى التهديد ؟ ثم اردف :
« حسناً ، أعط البنات بخشيشاً . »
— « كم ينبغي أن اعطيهن ؟ »
« اقصى مبلغ لا يوقع في نفسك الاستياء . »
حتى اذا اعطى آرتامونوف البنات روبلين فضيين قــال بوميالوف مغضباً :
« انك لرخو مع دراهمك . ويبدو انك تحب التباهي والتعاظم . »

فصاح ايليا مغضباً :

« انت ممن يصعب ارضاؤهم من غير شك . »

وضحك بارسكي ضحكاً صاخباً ، وحاول زيتايكن ان يكتم ضحكه .

وانتهى وداع العروس لأترابها عند الضحى . وانصرف المدعوون وغرق معظم أفراد الأسرة في نوم عميق . اما آرتامونوف فجلس في الحديقة ، مع بيوتر ونيكيتا ، يتطلع الى الاشجار التي حوله ويكحل الطرف بوهج السحب القرنفلي . وفي صوت خفيض قال وهو يعبث بلحيته :

« انهم شعب حرّيف . انهم غير صادقي الود . بيوتر ، يا بني ، اعمل ما تطلب اليك حماتك ان تعمله . انه خبل نسائي كله ، ولكن لا بد من عمله ! أين الكسي ؟ هل راح يشيع الفتيات الى بيوتهن ؟ ان الفتيات يحببنه ، حسناً ، ولكن ليس الفتيان . إن ابن بارسكي الصغير ينظر اليه نظرات تنضح بالحقد ! اجل ! كن دمث الاخلاق معهم يا نيكيتا انت بارع في ذلك . كن بمثابة المِلاط لأبيك فلا أكاد أحدث أنا صدعاً حتى تبادر أنت الى سد خَلَله . »

والقى نظرة على برميل الخمر الخشبي الضخم وأضاف متجهم الوجـــه :

« لقد أتوا عليه كله . إنهم يشربون كالخيل . في اي شيء تفكر يا بيوتر ؟ »

وأمرّ بيوتر إصبعه على زناره الحريري ، وهو هدية قدمتها اليه خطيبته ، وأجاب في هدوء :

« الحياة في الريف أبسط ، وأيسر . »

ـ « اي شيء يمكن ان يكون أبسط ـ نوم موصول طوال النهـــار . »

ـ « إنهم يمطمطون العرس . »

ـ « تذرّع بالصبر ! »

وأخيراً طلع النهار ، وكان نهاراً طويلاً عسيراً على بيوتر . وإذ جلسَ في ظلّ الأيقونات فقـد استشعر أن حاجبيه مشدودٌ احدهما الى الآخر في عبسةٍ كالحة ، مَقيتة . وكان يدرك أن هذا غير مستحبّ ، وأنـه ينفر عروسه منه ، ولكن اصطناع البِشر كان شيئاً وراء طاقته وميسوره . لقد أحس وكأن حاجبيه قد جُمعا بخيط ليس يقوى على قطعه ،فهو ينظر من تحتهما ، الى الضيوف في عبوس وجفاء . ورد بيوتر شعره الى الوراء ، وتساقطت منه نتف جديدة تناثرت على الطاولة وعلى حجـاب ناتاليا . كذلك جلست هي ناكسة الرأس ، وقد ذبلت اجفانها إعياءً . كانت بالغة الشحوب ، مروّعة كطفل صغير ، مرتجفة خجلاً .

وهدرت الوجوه القرمزية الكثيفة الشعر العارية من الاسنان للمرة العشرين :

« مُرّة ! »

وانحرف بيوتر على هيئة الذئب ، ومن غـير ان يلوي عنقه رفع الحجاب وضغط شفتيه الجافتين ، ضغطـاً يؤذن ببدائيته في في الصناعة ، على وجنة ناتاليا ،مستشعراً برودة بشرتها المشبهة لبرودة النسيج الأملس ، وارتعاد منكبيها الجـازع . كان متحسراً على

ناتاليا ، وكان هو ايضاً خجلاً . وكانت حلقة الضيوف السكارى ، القريبة ، تصيح :

« الغـلام لا يعرف ... !
اجعـل هدفك الشفتـين !
الم اكن جديراً بأن اقبلها لو كانت ملكي ؟! »

وزعق صوت امرأة سكرى :

« جرّب ولو مرة ! »

فصاح بارسكي :

« إنها ُمرة ! »

وكز بيوتر بأسنانه ولمس بشفتيه شفتي الفتاة الرطبتين المرتعشتين وبدت الفتاة وكأنها آخذة في الذوبان كسحابة بيضاء في وجه الشمس . كان كل منهما جائعاً ، إذ لم يقـدم اليهما شيء من طعام منذ البارحة . واستشعر بيوتر بسبب من التوفز ، ورائحة الشراب الحادة ، وكأسين من خمر الـ « دون » ذات الازيز انه ثمل مخمور ، وخشي ان تلحظ عليه عروسه شيئاً من ذلك . كان كل شيء من حوله يميل وينحرف ، مندمجاً حيناً في كلٍّ واحد مختلفٍ الوانه ، ومتكسراً حينـاً آخر الى صفوف من فقاعات حمر لم تكن غير وجوه بشعة . وتطلع الابن الى ابيه ، في تضرع وغضب . ولكن ايليا آرتامونوف الملتهب المنفوش الشعر كان يحدق الى بابا كوفا صائحاً في وجهها الوردي :

« ايتها النسيبة ، اني أشرب نبيذك العسلي على صحتك . انه لا يقل حلاوة عن التي َصنَعَتْهُ ! »

ورفعت بابا كوفا ذراعاً بيضاء مستديرة ، وانعكست اشعـة الشمس على سوارها الذهبي المطعم بالحجـــارة الكريمة ، المتعددة الالوان ، وتوهجت في اللآلىء المعلقـــة على صدرها . كانت شأن غيرها من الرجال والنساء تحتسي الشراب . واشرقت في عينيهـا الرماديتين ابتسامة واهنة ،وارتعشت شفتاها المنفرجتان في إغراء . وقرعا الكأس بالكأس ، وشربت وانحنت لنسيبها الجديد . فهز رأسه الكثّ ، وصاح في افتتان :

« ان لك لأدباً رفيعاً، ايتها النسيبة! أدبا اميريا ، فاللهم عونك»

وادرك بيوتر إدرا كا غامضـا ان أباه لا يسلك سلوكا صالحا . ومن خلال صيحات الضيوف السكرى ، طرقت اذنه في وضوح هتافات بومييالوف ا. اشحة بالحقـد وتأنيبات بارسكايا المدمدمة ، وضحكُ زيتايكن المكتوم . وقال في ذات نفسه :

« ليس هذا عرسا . إنه محاكمة . »

وطرقت سمعه من جديد اصوات تقول :

« انظر كيف يحدق ذلك الشيطان الى أوليانا ! »

« هناك عرس آخر سيتم قريبا ، ولكن من غير كاهن . »

وآذاه سماع هذه الكلمات لحظة ، ولكن أذاها تلاشى حالمـا استشعر اثر احتكاكه بركبة ناتاليا او مرفقها ،هذا الاثر الذي ترك في اوصاله جميعا اضطرابا دُواريا. وحاول بيوتر ان لا ينظر اليها ، مشيحاً بوجهه عنهـــا ، في حرَن ، ولكن عينيه ما كانتا تخضعان لسيطرة مـا. لقد انحرفتا ابداً في اتجاهها .

وهمس في أذن خطيبته :

« إلام سوف تدوم هذه الحال ؟ »
فأجابته ناتاليا هامسة ً ايضا :
« لست أدري ! »
ـ « ان الخجل يلفني . »
ـ « وكذلك انا . »
واستشعر بيوتر السعادة إذ وجدها تحس بالذي يحس به هو .
وكان الكسي سارحاً مع الفتيات اللاهيات في الحديقة. في حين اقام نيكيتا داخل البيت الى جانب قس طويل هزيل ذي لحية ناعمة وعينين نحاسيتين رُكّبتا في وجه تعلوه آثار الجدري . ومن خلال النوافذ المشرعة المواجهة للفناء والطريق كان اهل البلدة يطلون : عشرات من الرؤوس تتمايل ذات اليمين وذات الشمال تحت زرقة السماء ، ظاهرة حينا ومختفية حينا في تعاقب موصول ، وافواه مفتوحة تهمس ، وتئز ،وتصيح . كانت النوافذ اشبه بأكياس مفتوحة يمكن ان يندفع منها الى الغرفة ، في ايما لحظة ، شلال من الرؤوس الضاجة ، وكأنها ركام من البطيخ . ولمح نيكيتا بخاصة صورة تيخون فيالوف ، حافر الخنادق ، وهو ذو وجه مرتفع عظم الوجنتين تنتشر فيه بقع حمراء ويحيط به شعر كثيف ضارب الى الحمرة . وكانت عيناه اللتان تبدوان للوهلة الاولى وكأنه لا لون لهما ، تتوجرجان على نحو غريب فكأنهما تغمزان . ولكن إنسانيهما هما اللذان توجرجا ، لا الاهداب الجامدة . وكانت شفتاه ــ الرقيقتان ، المطبقتان في صرامة ، المنعكس عليهما ظل خفيف لشارب جعد - جامدتين هما ايضا .

اما أذناه فكانتـا شديدتي الالتصاق ، على نحو بشع ، بجمجمته . والواقع ان فيالوف وقف وصدره الى قاعدة النافذة. انه لم يصرخ او يسب حين حاول الآخرون دفعه عن المكان ، بل اكتفى بان أزاحهم جانباً بدفرات خفيفة من كتفه او مرفقـــه . كان منكباه مقوسين في تحدر ، و كانت عنقه غارقة بينهما حتى لقد بدا رأسه و كأنـه منبثق من الصدر مباشرة . كان هو ايضاً احدب ، في ما يظهر . وعلى وجهه وجد نيكيتا شيئاً انيساً جذاباً .

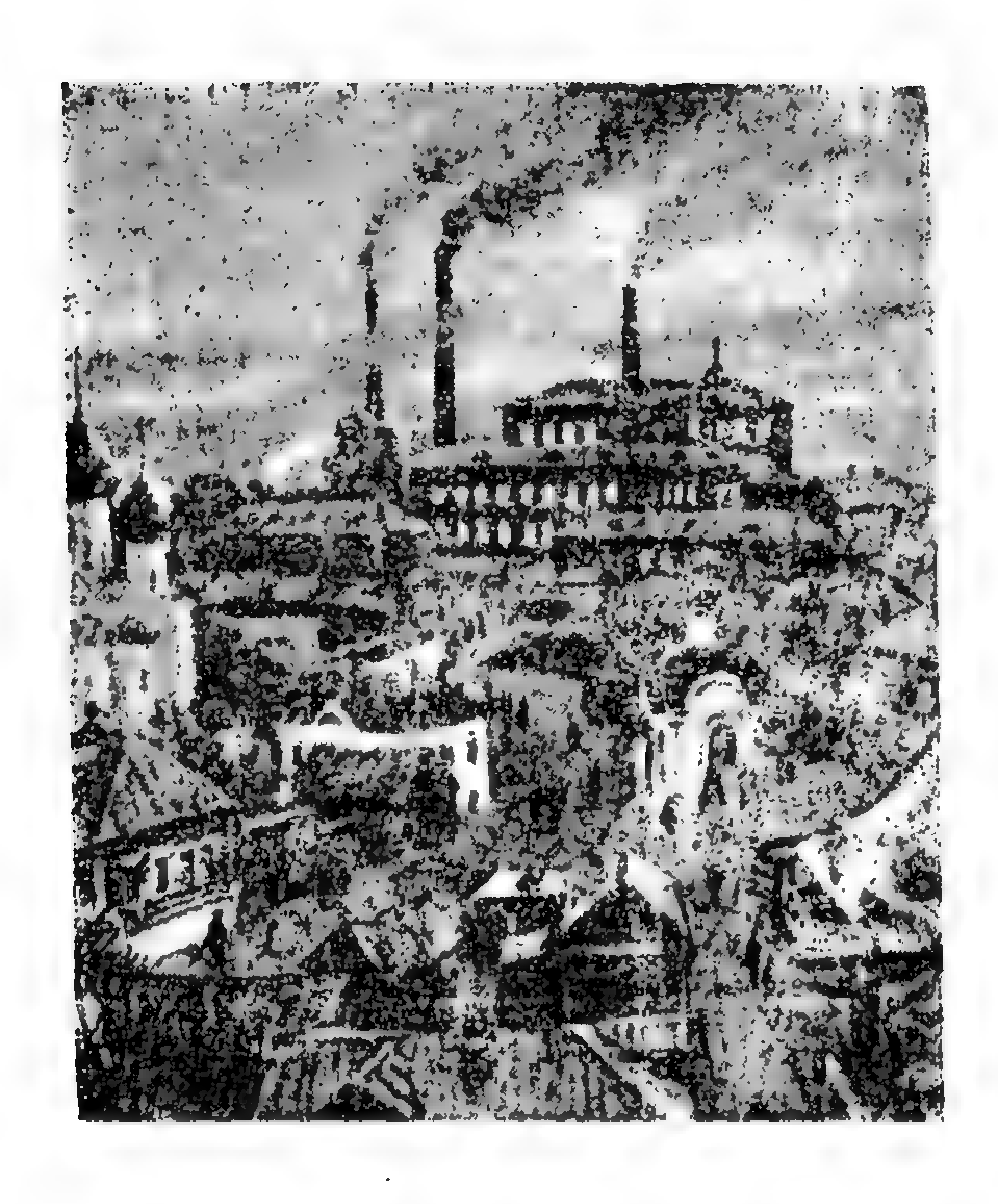
وضرب رجل اعور ضربة عالية مفاجئة على الدف و نقر باصابعه وجهه الجلدي . وأنّ الدفُ ودَنـدَن ، وصفر بعضهم صفيراً حاداً . وعُزِف لحنٌ على آكورديون ، واذا باشبين العريس ، ستيوبا بارسكي ، البدين الجعد الشعر ، ينفتل ويخبط بقدميه الارض وسط الغرفة صائحاً مع اللحن الموسيقي :

« هيه ، ايتها العذارى ، هيه ايها الاعداء الاعزاء !
ايها الراقصون والمغنون ورفاق اللعب جميعاً ،
من منكم تمتليء جيوبه بالذهب الرنان غيري ؟
تعالوا ، اذن، تعالوا وتباروا في الحلقة والذهب معي !. »

ووقف والده ، وهو رجلٌ ضخمٌ الى حد بعيد ، وزأر :

« ستيوبكا ! كن مخلصاً لبلدتـــك ! ارِ القومَ رقصك الكورسكي ! »

فما كان من ايليا الا ان انتصب واقفاً ، وهز رأسه الكثّ ، وقد شاع الدم في وجهه وغدا انفه قرمزياً كجمرة متوهجة ، وصاح في وجه بارسكي :



« من قال هذا ؟ سوف نرى من ذا الذي يعرف الرقص ! آليوشا ! »

ووقف الكسي لحظة ، مشرق الوجه متبسماً ، يرقب الراقص الدريبيوموفي . ثم انطلق ، وقد شحب وجهه فجاءة ، وراح يدور حول الحلقة في سرعة لا تصدق ، ويزعق كالبنات .

وصاح ابناء دريبيوموف :

« انه لا يعرف شعراً ما ! »

فزأر آرتامونوف مغتاظاً :

« آليوشكا ! سوف اقتلك ! »

ومن غير ان تهدأ قدماه المصفقتان ابداً ، اقحم الكسي اصبعين اثنين من اصابعه بين شفتيه واطلق صفرة مدوية وراح يتغنى في صوت عالٍ :

حين كان موكاي اميراً وسيداً ،
كان يسوق عبيده سريعاً سريعاً ،
اما اليوم فقد صار موكاي ، موكاي البهيج ،
يخدم نفسه ، على المائدة ، في ما يقولون . »

ونخر آرتامونوف منتصراً :

« خذوا هذه ! »

وهتف القس هتافاً ذا مغزى :

« آها » ورفع أحد اصابعه وهز رأسه .

وقال بيوتر لناتاليا :

« ان ألكسي سوف يغلب صاحبكم في الرقص . »

فاجابته ناتاليا في حياء :

« ان رجليه لخفيفتان »

واستحث الابوان ولديهما كالديكة المتخاصمة . لقد وقفا كتفاً لكتف ، وكلاهما نصف مخمور . فاما احدهما فضخم الجثة اخرق ككيس من الشوفان ، تسيل دموع الجذل السكران من الفتحتين الضيقتين الحمراوين القائمتين تحت جبينه . واما الآخر فمتوتر وكأنه على اهبة الوثوب ، تختلج ذراعاه الطويلتـــان ، وتربّت يداه على فخذيه ، وتلتمع عيناه ببريق مجنون . واذ رأى بيوتر الى حركة فكي ابيه تحت لحيته المرتعشة قال في ذات نفسه :

« انه يحرق الارّم غيظاً ، وقد ينبري للقتال في كل لحظة . »

وانطلق صوت ماتريبونا بارسكايا المعدني العميق يهدر :

« رقص بدائي ، يا آرتامونوف ! ان المسكين لا يحسن نقل خطواته . »

واطلق ايليا آرتامونوف في وجهها الداكن المستدير كالمقلاة ، ضحكة ساخرة . لقد ربح الكسي الجولة . وكان ابن بارسكي يترنح في سبيله الى الباب . وامسك ايليـا ، في خشونة ، بذراع بابيا كوفا وقال في لهجة آمرة :

« تعالي ايتها النسيبة . لقد جاء دورك ! »

وشحب وجهها . وحاولت ان تصده عنها بيدها الاخرى صائحة في غضب مجفل :

« هل جننت ؟ الا تعلم ان هذا اثم ؟ »

واعتصم الضيوف بالصمت مكشرين عن اسنانهم في خبث .

وتطلع بوميالوف الى بارسكايا. وانبعثت كلماته كالزيت الذي يفح :
« هذا حسن ! ارقصي ، يا اوليانا ، لأرضائنا ! ان الرب سوف يغفر لك . »
وصاح آرتامونوف :
« الخطيئة خطيئتي ! »
واستخفه السكر ، فتقدم عابسا كمن يمشي الى ميدان المعركة ، او كأنه يفعل ذلك برغمه. ودفـع بعضهم بابا كوفا الى الامام . فترنحت المرأة السكرى وتعثرت . ثم انها ردت كتفيها الى وراء وهزت رأسها واندفعت تدور حول الحلقة . وسمع بيوتر همسات استهجان تقول :
« فليحفظنا الله ! ان زوجها لم تمض على دفنه سنـة واحدة ثم تزوج ابنتها وترقص في العرس ! »
ولم يتطلع الى زوجتـه ، ولكنه استشعر انه خجل من مسلك أمها ، وغمغم :
« ينبغي ان لا يرقص والدي . »
— « ووالدتي ايضا » كذلك اجابته في صوت خفيض محزون . كانت واقفة على المقعـد تنظر من فوق رؤوس الناس الى الحلقة القريبة . واخذها دوار مفاجيء ، فتعلقت بكتف بيوتر .
وفي لهجة تفيض بالحنان قال بيوتر :
« انتبهي ! » ورفع يداً الى مرفقها لكي يسندها .
وخلال النوافذ المفتوحة ، ومن فوق رؤوس النظارة تدفقت اشعة الغروب الضاربة الى الحمرة . وفي غمرة من هذا النور انفتل

الرجل والمرأة وبرما ، كالعميـــان . وكان الناس يصيحون ويضحكون خارج الابواب ، في الحديقة والفناء والشارع . ولكن الصمت ران ثقيــلًا كما لم يرن مـ ـ قبل على الغرفة الفاسدة الهواء . ودندن رق الدف المشدود دندنة بليدة ، وصدحت الآكورديون وزعقت ، والرجـــل والمرأة يدوران دورانا محموما ، وقد تحلق حولهما جمهرة من الشبان والفتيات ، راحت تتتبع الرقص في وقار صامت ، وكأنه مسألة ذات مغزى فائق للعـــادة . اما معظم المتقدمين في السن فكانوا قد انطلقوا الى الفناء ، ولم يبق منهم غير اولئك الذين اقعدهم السكر الشديد عن الحركة .

وضرب آرتامونوف الارض بقدمـــه ووقف في مكانه لا يريم ، وقال :

« اوليانا ايفانوفنا ، لقد غلبتني ! »

واجفلت المرأة . ووقفت هي بدورها لا تريم ، وكأنها امام جدار حجري . ثم انها انحنت للقوم وقالت :

« لا تسيئوا الظن بي . »

وغادرت الغرفة في الحال ، وهي تهوّي وجهها بمنديل في يدها . وهنا تصدرت بارسكايا للكلام :

« باعدوا مـــا بين العريس والعروس ! بيوتر ، تعالَ معي . وانتما يا اشبيني العريس أمسكا بذراعيه ! »

ودفع الاب الاشبينين جانبا والقى يديه الثقيلتين على كتفي ابنه قائلا :

« أذهب ، والله يهبك السعادة ! »

وعانق ابنه ثم دفعه بعيداً عنه . وامسك الاشيينان بذراعي بيوتر . وقادت بارسكايا موكبهم وهي تتفل ذات اليمين وذات الشمال وتتمتم :

« تفو ! تفو ! لا مرض ، ولا حزن ، ولا حسد ، ولا عار . تفو ! ان النار والماء ليعرفان الزمان والمكان ، لا من اجل التعاسة ، ولكن من اجل السعادة ! »

وحين تبعها بيوتر الى غرفة ناتاليا ، حيث أُعدّ فراش عال وثير ، جلست المرأة العجوز ثقيلةً على كرسي قائم في وسط الغرفة وقالت في جرس مهيب :

« إسمع واحفظ ! دونك نصفي الروبل هذين . ضعهما في حذائك عند العقب ، حتى اذا جاءت ناتاليا وركعت لتنزع نعليك فلا تدعها تفعل . »

وسألها بيوتر في اكتئاب :

« ولكن لمَ هذا البلاء كله ؟ »

ــ « ليس لك أن تفهم سرّ ذلك . ارفض ثلاث مرات ، حتى اذا اعادت الكرة عليك مرة رابعة إئذنْ لها في خلعها ، وعندئذ تقبلك ثلاث مرات ، وتقدم اليها انت نصف الروبل قائلًا : «دونك هذا ، يا مملوكتي ، يا نصيبي ! » حذار أن تنسى ! حسناً . ثم انزع ثيابك واستلق على الفراش مديراً لها ظهرك . وعندئذ تتضرع اليك أن تؤويها تلك الليلة ، فلا تجبها الى ما تطلب الا بعد أن تكرر التضرع ثلاث مرات ، وهنا فقط تبسط يدك اليها ــ أفهمت ؟ حسناً ، ثم . . . »

وحدّق بيوتر دهشاً الى وجه مرشدته العريض الأسمر . كانت جالسة على كرسيها ، تلحس شفتيها ، وقد انتفخ منخراها ، ماسحة بمنديلها العرق المتصبب من عنقها الدهني ومن ذقنها ، متلفظة بكلمات نابية بذيئة في ضبطٍ يؤذن بأستاذيتها . حتى اذا برحت الغرفة كررت قائلة :

« حذار أن يخدعك العويل ، حذار ان تخدعك الدموع . »

ثم إنها غادرت الغرفة مترنحة الخطى ، مخلفة رائحة الشراب القوية وراءها . وعصف ببيوتر عاصف من غضب . فخلع نعليه والقاهما بعيداً ، ونزع ثيابه في سرعة وتمدد على الفراش وكأنما يمتطي ظهر جواد ، وأطبق اسنانه بشدة خشية أن ينطلق نشيجه مدوّياً بالضعة التي تضطرم في داخله :

« يا لهم من شياطين ! »

كان الفراش المنخفض حاراً . فوثب منه وشخص الى النافذة . حتى اذا فتحها دوت في أذنيه ضحكات مُرِنّة في الحديقة وصيحات نسوية ، وصخبٌ سكران . كانت شخوص قاتمة تطوّف في الغبشة الزرقاء تحت الاشجار . وكانت منارة كنيسة القديس نيقولا المستدقة تخرق كبد السماء كأصبع من نحاس . ولم يكن الصليب قائماً . لقد نُزع ليطلى بالذهب . وإذ أجال بيوتر بصره فوق سقوف البلدة شاهد نهر الـ « أوكا » يتلألأ في لوعة تحت الضوء الاصفر المنبعث من فلذة قمر يثير في النفس الحنان ، ورأى خلف النهر ملامح الغابات السوداء المترامية الى ما لا نهاية . وهنا تذكر بيوتر أرضاً أخرى — أرضاً

رحبة ، مشرقة بحقول القمح الذهبية ـ وتنهد . ثم انه سمع من ادنى السلم وقع اقدام وحسيس ضحكات مكبوتة . فارتد واثباً الى فراشه . وفتح الباب . كان ثمة حفيف عصائب وشرائط حريرية . وصر حذاء . وشخر بعضهم شخيراً دامعاً . وتك خطاف الباب حين أحكم إقفاله . ورفع بيوتر رأسه في احتراس . فاذا بـه يرى عند الباب مباشرة ، وفي شبه الظلمة التي رانت هناك ، كائناً أبيض يرسم في بطء اشارة الصليب وينحني انحناءة يكاد يمس بها الارض .

ـ « إنها تصلـي . أما أنا فلم أفعل . »

ولكنه ما كان يستشعر أيما رغبة في الصلاة .

وقال في رقة :

« ناتاليا ييفسييفنا ، لا تخافي . إني شخصياً لمروّع مذعور . »

وبكلتا يديه راح يسوّي شعره ويرده الى الوراء . ثم إنه شد أذنه وتمتم :

« لا داعيَ لخلع الحذاء ووَضْع نصف الروبل فيـه . ذلك سخف ليس غير . إني احس ألمـــاً في القلب ، وان تلك المرأة لتتحدث حديثاً مخبولاً . لا تصرُخْ . »

واجتازت ناتاليا الغرفة ، على استحياء ، وعلى نحوٍ جانبي ، وإذ اطلّت من النافذة قالت في لين :

« إنهم لا يزالون ماضين في احتفالاتهم . »

ـ « أجل . »

وسلخا فترة طويلة يَلغُون هكذا لغواً شارداً وهما تعبـان خائفان تعوزهما الجرأة على ان يقرب احدهمـــا الآخر . وقبيل

الضحى صرّت السلم وتلمّست يدٌ الجدار . وشخصت ناتاليـــا الى الباب . وهمس بيوتر :

« اذا كانت بارسكايا فلا تدعيها تدخل . »

وقالت ناتاليا وهي ترفع خُطّاف الباب :

« إنها أمي . »

وجلس بيوتر فوق الفراش ، وقد تدلت قدماه الى الارض . كان غير راضٍ عن نفسه ،وكان يفكر واجماً محزوناً :

« أنا لا اصلح لشيء . لقد أعوزتني الشجاعة. سوف تضحك مني ! »

وفُتح الباب وقالت ناتاليا في رقة :

« أمي تريدك . »

واستندت الى الموقد ، فهي لا تكاد تُرى على الآجر الأبيض . وغادر بيوتر الغرفة . وفي الظلمة الجاثمة وراء الباب همست بابا كوفا في حدة وهي مروعة مَغيظة :

« ما الذي تفعله يا بيوتر إيليتش؟ اتريد أن تُلبسني وابنتي العار؟ لقد كاد الصباح يطلع ، ولسوف يأتون وشيكــــاً لأيقاظكما . يجب ان أري الناس قميص ابنتي الداخلي لكي يعرفوا انها طاهرة لم يمسسها بشر ! »

وكانت قد وضعت احدى يديها على كتف بيوتر ، وراحت تهزه باليد الأخرى وتقول في لهجة سخط آمر :

« ما هـذا ؟ أأنت ضعيف أم بارد ؟ أجب ! لا تروعني ! »

وقال بيوتر في بلادة :

« إني محزون من أجلها . ومذعورٌ أيضاً . »

ولم يكن في ميسوره ان يرى وجه الأرملة ، ومع ذلك فقد خيل اليه أنها ضحكت .

— « اذهب وقم بواجبك كرجل ! صلّ للقديس كريستوفر . أذهب . رويدك ، دعني أقبلك . »

وألقت ذراعيها حوله وقبّلته بشفتين عذبتين دبقتين تعبقان برائحة الخمر الدافئة ، ومضت لسبيلها قبل ان يوفّق الى الاستجابة لها ، فعانقت قبلته الصارخة ، الهواء . ثم انه انقلب الى غرفته ، وأوصد الباب خلفه ، وفتح ذراعيه في عزم فما كان من الفتاة إلا ان تقدّمت نحوه والقت نفسها بين يديه . وفي ارتعاش ، قالت :

« لقد شربتُ أمي مقداراً كبيراً من الخمر . »

كان بيوتر يتوقع ان يسمع منها غير هذه الكلمات . وإذ ارتدّ الى الفراش تمتم :

« لا تجزعي . قد لا اكون جميلاً ، ولكني لطيف . »

والتصقت به اكثر وهمست :

« اكاد اسقط على الارض . »

... كان اهل دريبوموف يحبون إمتاع النفوس بالأعياد والافراح . وهكذا تطاول العرس خمسة أيام كاملة ، فهم يشهدونه من مطلع الفجر حتى منتصف الليل ، وهم يحتشدون في الشوارع متنقلين من بيت الى بيت ، مترنحين في ضبابيّة نشوى . والواقع أن أسرة بارسكي أقامت أفخم هذه الاحتفالات وأسخاها . ولكن الكمي ضرب ابنهم ضرباً عنيفاً لأهانةٍ وجهها الى أولغا أورلوفا الصغيرة ، فكان دَهش آرتامونوف بالغاً حين شكا إليه الوالدان هذا الحادث .

« وهل عرف أحدٌ قطّ اولاداً لا يتشاجرون ؟ »

وأمطر الفتيات بالعصائب والحلوى ، والغلمان بالدراهم ، وألحّ على الآباء والأمهات من غير ما رحمة ، في الشراب، وعانق الجميع من غير تمييز صائحاً :

« هاي ! ذلك كلما كنت أطمع فيه تماماً ! »

وعلا صخبُ آرتامونوف ، وغالى في الشراب وكأنما يريد أن يطفيء ناراً تضطرم في جوفه — لقد شرب ولكنه لم يسكر . لقد غدا اكثر هزالاً في بضعة الأيام هذه . وعلى الرغم من أنه كان يجتنب الاقتراب من أوليانا بايما كوفا فقد لاحظ اولاده أن عينيه كانتا كثيراً ما تلتفتان اليها في نظرة متسائلة غاضبة .وفي غمرة من الاعتزاز البالغ بقوته نازل نفراً من حامية البلدة في دفع القائمة الخشبية ففاز عليهم جميعاً . وصارع إطفائياً وثلاثة معماريين فغلبهم . ثم إن تيخون فيالوف ، حافر الخنادق ، برز له ، وقال في لهجة آمرة :

« والآن ، أنا ! »

وعجب آرتامونوف للهجة حافر الخنادق القصير البدين ، وراح يرفع بصره فيه ويخفضه :

« من انت : أقويّ أم متباهٍ ؟ »

فقال الرجل في ترصُّن :

— « لستُ ادري . »

وأمسك كلٌّ منهما بحزام الآخر وأنشآ يتجاذبان ويتدافعان على غير طائل فترةً من زمان . ومن فوق كتف فيالوف أخذ

ايليا يغمز النساء في غير ما حياء . كان أطول من حافر الخنادق ، ولكنه اشد هزالاً ، وأحسن بنيةً بعض الشيء . ودفر فيالوف بكتفه صدر ايليا ، محاولاً أن يرفع خصمه ويطرحه أرضاً من خلفه . ولكن ايليا تنبّه في الحال لما يُراد به فصاح :

« هذه ليست حيلة ايها الأخ ! انها بسيطة الى حد بعيد ! »

ونخر آرتامونوف فجأةً ، ورفع فيالوف الى ما فوق رأسه في قوة بالغة جعلت رجلي حافر الخنادق تخدران عند وقوعه . ثم ان فيالوف جلس على العشب ، وراح يمسح العرق المتصبب من خديه ، ويقول في خجل :

« انه لقويّ . »

فأجابه النظارة في سخرية :

« باستطاعتنا ان نرى ذلك . »

وكرّر فيالوف :

« انه لسليم البنية . »

ومدّ إيليا يده اليه وقال :

« إنهضْ ! »

وتجاهل حافر الخنادق اليد الممدودة اليه وحاول ان ينهض من غير ما معونة ، ولكنه أخفق . ثم إنه مدّ رجليه من جديد ، وراح يتطلع الى الحشد بعينين غريبتين تبعثان على الرثاء ، وتقدم نيكيتا اليه وسأله في جرسٍ عاطف :

« هل تؤلمك ؟ هل استطيع ان اساعدك ؟ »

وضحك حافر الخنادق ضحكة جافة وقال :

« ان عظامي تؤلمني . أنا اشد من ابيك بأساً ولكني دونه خفةً وسرعة . حسناً فلنلحق بالقـــوم، نيكيتا ايليتش ، يا ذا النفس البسيطة ! »

وأمسك بذراع الاحدب ولحقا بالقوم معاً . وطوال الطريق واصل فيالوف خبط الارض برجليه خبطاً ثقيلاً ، آملاً في اغلب الظنّ أن يخفف بذلك من آلامها المبرحة .

وكان العروسان الشابان ، وقد أمضها الأعياء وقلة النـــوم وتكاليف التقاليد ، يذرعان الشوارع في إذعان ، مـــع الحشد المبتهج الضاجّ السكران ، أو يأكلان ويشربان على المـــائدة ووجناتها محمرة خجلاً بسببٍ من النكات البذيئة الموجهة اليهما من كل صوب . وحاول كل منهما جهده ان لا ينظر الى صاحبه ، بل ان لا يتكلم معه . كانا يمشيان أبداً متشابكيْ الأذرع ، ويجلسان ابداً جنباً الى جنب ، ومع ذلك فقد تصرّفا وكأنهما غريبان لا يعرف احدهما الآخر .

وابتهجت ماتريبوتا بارسكايا بمسلكهما ذاك وتبجحت أمام ايليا وأوليانا :

« ألم أعلمّ ولدك جيداً ؟ينبغي أنأعتقدذلك. انظري،اوليانا، كيف دربتُ ابنتك ! وما رايك في صهرك ؟ طاووس عادي ! انه يقول : ليس هذا أنا ، وليست هذه زوجتي ! »

ولكن بيوتر وناتاليا كانا لا يؤوبان الى غرفتهما حتى يطرحا ، مع ثيابهما ، جميع هذه التكاليف الحرجة التي فرضت عليهما والتي كان من واجبهما الاخذ بها في حضرة الناس ، ويتجاذبان اطراف الحديث

حول خبرات اليوم .

ـ « انكم في هذه البلدة لتسرفون في الشراب ! » قال بيوتر في دَهَش .

ـ « وهل يشربون دون ذلك في دياركم ؟ »

ـ « الفلاحون لا يستطيعون ان يشربوا الخمر على هذه الشاكلة ! »

ـ « انت لا تبدو كالفلاحين . »

ـ « لقد كنا نعمل في اقطاعة كبيرة ـ وذلك ضرب من الاوستقراطية . »

وكانا في بعض الاحيان يجلسان صامتين الى النافذة ، وقد طوق كل منهما صاحبه بذراعه ، يستنشقان العبير الذكي الوافد عليهما من الحديقة .

وتسأل الزوجة في رقة :

« لم لا تقول شيئاً ؟ »

فيجيبها الزوج في رقة ايضاً :

« لست احس رغبة في الحديث العادي . »

كان يتوق الى حديث من نوع آخر ، حديث غير عادي . ولكن ناتاليا كانت عاجزةً عن إشباع رغبته . وحين كان يتكلم هو ، واصفاً لا نهائية السهوب الذهبية كانت تتساءل :

« لا غابات ؟ لا اي شيء ؟ أوه ، شدّ ما ينبغي ان تكون مخيفة ! »

فيجيبها بيوتر في فتور :

« الخوف يعيش في الغابة . أي خوف يمكن أن يوجد في

السهوب ؟ هناك ليس شيء غير الارض ، والسماء ، وأنا . »

وفيما كانا جالسين ، ذات ليلة ، الى النافذة يكحلان طرفيهما، في بهجة صامتة ، بمشهد النجوم المتلألئة ، سمعا حركة ما في الحديقة، قرب الحمام . كان ثمة شخص يعدو مهشماً في عدوه شجيرات العليق والتوت . ثم انطلقت صيحة منخفضة غضبى :

« ما الذي تفعله ، ايها الشيطان ؟ »

ووثبت ناتاليا مذعورة :

« إنها أمي ! »

وأطلّ بيوتر من النافذة ، وقد سدّها ظهره العريض بالكلية . كان أبوه واقفاً بحذاء الحمام ضاغطاً جسد حماته على الحائط ومحاولاً أن يطرحها أرضاً . وبذلت المرأة غاية جهدها للافلات من بين يديه ، ضاربة إياه على رأسه ، وهامسةً همساً لاهثاً :

« اتركني ، وإلا صرخت ! »

ثم انها صاحت في هياج :

« لا تمسّني يا حبيبي ! إرحمني ! »

وأغلق بيوتر النافذة من غير ان يحدث ايما صوت ، وأمسك امرأته بذراعيه ، واجلسها على ركبتيه قائلاً :

— « لا تنظري الى الحديقة . »

وتضاغت بين يديه وصاحت :

« ما المسألة ؟ من هو ذلك الشخص ؟ »

فأجابها بيوتر وهو يحكم شدّها اليه :

« أبي . ألا تفهمين ؟ »

— « أوه ، كيف يستطيعان ؟ » كذلك همست ناتاليـــا في خجل وخوف . فحملها زوجها الى الفراش وقال لها في هـدوء :

« ليس لنا ان ندين آباءنا . »

ووضعت ناتاليا رأسها بين يديها وانشأت تهتز الى الأمام والى الوراء معولةً :

« الخطيئة ! الخطيئة ! »

وقال بيوتر :

« انها ليست خطيئتنا ! »

واذ تذكر كلمات أبيه أضاف :

« إن الطبقة الارستوقراطية تفعل ما هو أسوأ . وعدا ذلك، إنها على هذه الشاكلة أفضل — فهو لن يأتي ويزعجك . إن الجيل القديم يأخذ الاشياء أخذاً بسيطاً ، إن الواحد منهم لا يعتـــبر اغتصاب كنته إثماً . لا تصرخي . »

ومن خلال دموعها قالت زوجته :

« حين رقصا ، تلك المرة ، فكرتُ ..... لو أنه اغتصبها فما الذي سوف نفعله ؟ »

وغرقت وشيكاً في النوم بعد ان هدها التأثر. وفتح بيوتر النافذة والقى نظرةً على الحديقة . لم يكن ثمة نفسٌ حية . لم يكن ثمة غير النسيم المتنهّد وغير الاشجار المهتزة الأعطاف في الظلمة الفاغمة . ثم انه ترك النافذة مشرعة واستلقى الى جانب زوجته وراح يفكر وعيناه مفتوحتان ، في ما حدث . ما أجمل أن يعيش هو وناتاليا وحدهما على مزرعة صغيرة ، في مكانٍ ما من هذه الارض ..

وأفاقت ناتاليا في ساعة مبكرة . لقد بدا لها وكأنما أيقظهـــا الأشفاق على أمها ، ومشاركتها الوجدانية لها . وفي قفزات سريعة انطلقت تهبط السلّم حافيةً وليس على جسمها غير قميصها الداخلي. كان الباب المؤدي الى غرفة أمها موصداً دائماً طوالَ الليل ، ومع ذلك فقد كان الساعةَ مفتوحاً نصف فتحة . وأرعبهـا ذلك . حتى اذا نظرت الى داخل الغرفة ، الى الفراش الممتد في الزاوية القصية ، رأت هضبة بيضاء تحت الغطاء وشعراً فاحماً متناثراً فوق الوسادة.

ـ« إنها نائمة . كم قد تحتم عليها ان تصرخ وتبتئس ! »

إن شيئاً ينبغي ان يُصنع لأدخال العزاء على قلب أمها التي أوذيت أذى بالغاً . وهكذا اندفعت ناتاليا الى الحديقة . لقـــد داعب العشبُ المُثقل بالندى قدميها وأرعشها . وكانت الشمس قد اطلّت منذ لحظات على الغابة ، فأعمى شعاعها المنحرف عينيها وكان بارداً ما يزال . ثم إنها نزعت ورقة أراقيطون فضية بالندى ، ووضعتها على احدى وجنتيها اولاً ، وعلى الاخرى ثانيـاً ، حتى اذا إنتعشت انحنت لتجمع عليها شيئاً من عنب الثعلب الأحمر . واتجهت أفكارها ، في غير ما غضب ، إلى حميها . كان من دأبـه أن يربّت على كتفها تربيتاً عنيفاً ويسألها في ضحكة مكتومة :

« ملأى بالحيوية ؟ جيدة الصحة ؟ هذا حسن ، عيشي ! »

لقد بدا وكأنه كان يعجز عن ايجاد كلمات غير هذه يخاطبها بها . والحقّ أنها كانت تغتاظ بعض الشيء ، ايضاً ، من تربيتاته الرؤوم ، وهي ضرب من التدليل يصلح للخيل .

ـ « يا له من وحش ! » قالت ذلك في ذاتهـا وهي تُكره

نفسها على ابغاضه .

كانت الطير تزقزق ، وكان حفيف ناعم ينبعث من الاوراق التي تظلل رأسها . ونفخ احد الرعاة في قصبته ، بعيداً عند أقصى المدينة ، وانسابت اصوات بشرية انسياباً كسولاً عبر السكون الرائق الصافي ، من ضفة الا « فاتاراكشا » حيث كانت اركان المصنع ترتفع . وطقّ شيء ما . واجفلت ناتاليا ورفعت رأسها . فاذا بها ترى على شجرة تفاح قائمة فوقها مباشرة حسوناً عالقاً في شرك فهو يناضل للنجاة بنفسه نضالاً يائساً :

— « من نَصَبَ الشرك ؟ نيكيتا ؟ »

وطقطق غصنٌ يابسٌ في مكان ما من الحديقة .

وعندما انقلبت ناتاليا الى البيت وألقت ببصرها الى غرفة امها وجدت امها يقظى وقد استلقت على ظهرها ووضعت ذراعاً تحت رأسها . ولم تكد اوليانا ترى الى ابنتها حتى رفعت اهدابها في سيما دَهَش واستغراب وصاحت مذعورة :

« من هناك ؟ ما المسألة ؟ »

— « لا شيء . لقد قطفت لك قليلًا من عنب الثعلب لتتناوليه مع الشاي . »

وكانت على الطاولة القريبة من الفراش قارورة زجاجية ضخمة من قوارير « الكفاس » * تكاد تكون فارغة . كانت سدادتها ملقاةً على الأرض . وكان غطاء الطاولة القماشي ملطخاً بـ« الكفاس » . وكان يحيط بعيني الأمّ الصافيتين الصارمتين ظلّ

* Kvass نوع من الجعة يصنعه الفلاحون الروس بأن يصبوا ماء حاراً على الشعير ويدعوه يختمر . (المعرب)

ضارب الى الزرقة، ولكنها لم تكونا مخضلتين بالدموع كما توقعت ناتاليا . لقد بدتا أشدّ قتاماً وأدخــــلَ في المحجرين . أما نظراتها الطويلة التي كانت متعجرفة بعض الشيء ، دائماً ، فقد بدت الآن ذاهلةً مترفعة على نحوٍ غريب .

ـ « لقد حرمني البعوض النوم . صار يتعيّن عليّ أن أنام، منذ اليوم ، في السقيفة » قالت الأمّ ذلك ساحبةً الغطاء حتى يحجب جيدها . « لقد أكل البعوض جسمي كـــله . ما الذي جعلكِ تنهضين في مثل هذه الساعة المبكرة ؟ ولماذا مشيتِ حافيــةً في الندى ؟ إن قميصك لرطب ولسوف تصابين بزكام . »

كانت الأمّ تتكلم في نزق ، وفي غيرما حنان، وكأنها مستغرقة في افكارٍ تتصل بشخصها . وكان الحَصَر النفسي الذي استحوذ على البنت قد فسحَ المجال شيئاً بعد شيء للفضول المتلهف المغيظ الذي يطبع موقف المرأة من المرأة .

ـ « لقد افقتُ في ساعة مبكّرة ، فخطرتِ انتِ ببالي . لقد رأيتُ في ما يرى النائم حلماً يدور حولكِ . »

« ما الأفكار التي جالت في ذهنك ؟ » سألت الأمّ ابنتها هذا السؤال ، وعيناها مثبتتان على السقف .

ـ « كنت افكّر في انك تنامين وحدكِ الآن ، بعيـــدة عني ... »

وتراءى لناتاليا وكأنّ الدم قد شاع في وجنتي امهـا ، وان بسمتها وهي تجيب « انا لست خائفة » لم تكن طبيعية أو أصيلة .

وقالت الأم وهي تغمض عينيها :

« من الخير لك أن تذهبي. لقد استيقظ زوجك - ألا تسمعينه يطوف بالمكان ؟ »

واذ ارتقت ناتاليا السلم في بطء ، قالت في ذات نفسها، بتقزّز وبروح تكاد تكون عدائية :

« لقد قضى الليل معها . لقد جيء بالكفاس من اجله . إن جيدها لمرضض كله . ليست هذه عضّات بعوض ، ولكنها قُبَل . لن اخبر بيتيا بذلك . إنها تعتزم ان تنام في السقيفة ، ومع ذلك فقد بكت وانتحبت . »

وسألها بيوتر وهو يمعن النظر اليها :

« اين كنتِ ؟ »

فغضّت طرفها ، واخذها شعور بالاثم لم تدر له سبباً :

« لقد قطفت قليلاً من عنب الثعلب ثم ذهبت لأرى امي . »

- « حسناً كيف حالها ؟ »

« يبدو أنها في خير »

- « هكذا !» قال بيوتر ذلك وشد أذنه ، ثم أعاد :

« هكذا ! »

وتبسّم ابتسامة ضجرة ، وتنهد وهو يفرك القشّ الضارب الى الحمرة على ذقنه .

-« يبدو أن بارسكايا المخبولة كانت على حق حين قالت : حذار أن يخدعك العويل ، حذار أن تخدعك الدموع ! »

ثم تساءل في تجهّم :

« هل رأيتِ نيكيتا ؟ »

ـ « لا »

ـ « ما تعنين بقولك لا ؟ هو ذا الآن في الحديقـــة ينصب الاشراك للطيور . »

وصاحت ناتاليا مذعورة :

« اوه ، يا الهي ، ولقد خرجتَ في هذه الحال ، وليس عليّ غير قميصي الداخلي ! »

ـ « لقد وقعتِ ! »

ـ « ولكن متى ينام ؟ »

ونخر بيوتر ، وكان ينزع حذاءه الطويل الساق ، نخرة عالية . وقالت امرأته وهي تنظر اليه بطرف عينها وتبتسم ابتسامة صغيرة :

« الواقع انه برغم كونه احدب قريب الى القلب — أقرب من ألكسي . »

ونخر الزوج نخرة اخرى ، خافتة بعض الشيء هذه المرة .

... وعند مطلع الفجر من كل يوم ، حـــين ينطلق الراعي ليجمع قطيعه مرسلاً الحاناً شجية من مزماره الطويـــل ، كانت أصداء الفؤوس تنبعث من وراء النهر ، وكان اهل البلدة السائقون أبقارهم يقول بعضهم لبعض في سخرية :

« اسمعوا ! لقد استأنفوا عملهم قبل ان يطلع النهار . »

« الطمع — عدو السلام اللدود . »

وفي بعض الأحيان كان يبدو لأيليا آرتامونوف وكأنه قد تغلّب على العداوة الكسول التي تكنها البلدة له . ذلك ان اهل دريوموف أخذوا يرفعون قبعاتهم له في احترام ، ويصغون لما يرويه من قصص

عن الامراء راتسكي . وكان بعضهم يعلق على كلامه تعليقاً لا يكاد يتغير ، وفي لهجة لا تخلو من زهو :

« ان الطبقة الارستقراطية عندنا اكثر بساطة وفقراً . ولكنها اشد صرامة من نبلائكم ! »

وفي بعض الأمسيات قال آرتامونوف لجماعة من اغنياء دريبوموف وأولي البأس فيها ، وكانوا مجتمعين في ظل ظليل من حديقة الحانة التي يملكها بارسكي على ضفة نهر « اوكا » :

« إن مشروعي سوف يعود بالربح عليكم جميعاً . »

– « نسأل الله ذلك » بهذا اجابه بومبيالوف وهو يلوي شفتيه في ابتسامة قصيرة لئيمة ؛ ولقد كان من المتعذر على المرء أن يحزر : أكان على وشك ان يلعق حذاء شخص ما ، أم على وشك ان يعض ؟ كانت تقاطيع وجهه المتغضنة محاطة على نحو كريه بلحية مهزولة قنّبية . وكان انفه الرصاصي يشخر بين الفينة والفينة شخيراً يؤذن بارتيابه في كل شيء . وكان الخبث يكمن في عينيه المصبغتين بلون البلوط .

وكرّر :

« نسأل الله ذلك . طبعاً لقد عشنا عيشة حسنة بدونكم ، ولكنا قد نعيش معكم عيشة حسنة ايضاً . »

وعبس آرتامونوف وقال :

« انت تقول كلاماً يحتمل معنيين . انت لا تتكلم كصديق . »

وصاح بارسكي مقهقهاً :

« ذلك دأبه دائماً ! »

وحيث كان ينبغي ان يقوم وجه بارسكي كانت بضع قطع قرمزية من اللحم ، خبط بعضها ببعض خبطاً سريعاً . وكان رأسه الضخم ، وعنقه وخداه ، وذراعاه مغطاة كلها بل كان هو كله مغطى بشعر كثيف خشن كشعر الدب . وكانت أذناه محجوبتين عن النظر . أما عيناه ، وقد بدتا شيئاً غير مرغوب فيه وسط هذا اللحم كله ، فكانتا تختبئان وراء كتلة من الدهن المتراكب .

ـ « ان قوتي كلها تذهب في الدهن . » كذلك كان يقول ، ويضج بالضحك ، فيتكشف فمه المفتوح على مصراعيه عن صفين كاملين من الأسنان المائلة غير القاطعة .

وكان صانع العربات ، فوروبونوف ، يحول عينيه اللتين لا لون لهما الى آرتامونوف وينبهه بصوته الجاف المزيل :

« إن العمل يجب ان يتم . ولكن عمل الله يجب أن لا ينسى ، في الوقت نفسه . ألم يرد في الكتب : مارتا ، مارتا ، انت معنية بأشياء كثيرة ، قلقة حول اشياء كثيرة ، ولكن شيئاً واحداً هو المطلوب . »

وبدت عيناه البيضاوان تقريباً وكأنهما تنفذان الى اشياء مخبوءة ، أو كأنهما توشكان ان تذهلهم جميعاً بنطق خارق للعادة. وكان يتكلم في بعض الاحيان وكأنه على اهبة الصدور عن مثل هذا الوحي :

« طبعاً ، حتى المسيح اخذ نصيبه من الخبز ، بحيث أن مارتا ..... »

فينبري زيتايكن الدباغ ، وهو وكيل كنيسة ، الى القول :

« احترس، فقد لا تدري الى اين انت ذاهب ! »
فيعتصم فوروبونوف بالصمت ، وترتعش اذناه السمراوان .
وسأل ايليا الدباغ :
« والآن ، هل تفهم عملي ؟ »
فأجابه زيتايكن في دهش بالغ :
« واي غناء لي في ذلك ؟ إنه عملك، ومن واجبك انت أن تفهمه ، أيها السمكة العجيبة ! عملك لك وعملي لي . »
واحتسى آرتامونوف جعته الغليظة، وتطلع من خلال الاشجار الى مجاري الـ « أوكا » الموحلة ، ثم أبعد الى اليسار ، الى التواءات الـ « فاتاراكشا » الافعوانية الخضراء حيث كانت مياهه تتدفق عبر أشجار التنوب الفضي وعبر المستنقعات لتتصل بالنهر الأكبر . والتمعت النشارة وقدد الخشب ، مشوهـــةً وجه الرمل الذهبي المقصّب . وانبعث من الآجرّ المركوم وهج اسمر محمرّ ووسط ادغال الصفصاف المهانة امتدت ، كتـابوت مفتوح ، تلك البناية الطويلة التي يشبه لونها لون لحم البقر ، والتي سوف تصبح عما قليل مصنعاً للنسيج الكتاني . وتراءى له وكأن مخزنـاً من مخازن البضاعة قد التهب عندما انعكست اشعة الشمس الجـانحة للغروب على حديد سقفه الذي لم يدهن بعد . واحالت الاشعة المنحرفـــة الجدرانَ الصفراءالتي تؤلف المنزل ذا الدورين ، بعوارضه الذهبية المرتفعة عالياً في وجه السماء القائظة ، الى صورة الشمع المصهور . وبكلمة ثانية لقد بدا المنزل من بعيد ، كما قال الكسي في براعة ، أشبه ما يكون بقيثارة . وكان الكسي يسكن هناك ، بعيداً عن

فتيان البلدة وفتياتها . كان صعب القياد ، حادّ المزاج ، نزّاعاً الى التحدّي . أما بيوتر فكان ذا طبيعـة اشد رصانة . كان على شيء من القلق والاضطراب ، ولم يكن قد ادرك بعـد أي عمل كبير يمكن أن يجترحه المرء بالجراءة والعزم.

وطافَ بوجه آرتامونوف طائف من خيـال . فالتفت والقى نظرة على سكان البلدة من تحت حاجبيه الكثيفـين ، وابتسم في ازدراء . لقد كان هؤلاء القوم من معدن رخيص ، تعوزهم ارادة العمل ، وتنقصهم روح الكفاح .

وتحت جنح الظلام ، بعد ان تغرق البلدة في نوم عميق ، كان آرتامونوف يتسلل على ضفة النهر ، كما يتسلل اللصوص ، الى حديقة بايما كوفا ، سالكاً في ذلـك سُبلًا خفيّة . كان البعوض يطن في الظلمة الحارة ، وكأنما هو الذي كان ينشر على سطح الارض عبير القثاء ، والتفاح ، والشّبث*. وكان القمر يجري وسط ضفاف رمادية من الغيوم ، وكانت تداعب النهر اطياف رقيقـــة ناعمة . ووثب آرتامونوف من فوق السياج وتسلل عبر الحديقة الى الفِناء . وما هي الا لحظة حتى دخل السقيفة المظلمة . وانبعثت من الزاوية همسة ملهوفة :

« أواثق انت من أن أحداً لم يرك ؟ »

وهدر آرتامونوف متذمراً وهو يلقي بثيابه جانباً :

« إن التّستر على هذه الشاكلة يُمرضني . مثل ولدٍ غرّ طريّ العود . »

---

* الشبث : ضرب من البقول من فصيلة البقدونس .

– « اذن فيتعين عليك ان لا تتخذ خليلة . »

– « انا لم افعل ذلك بطوعي ، ولكن الله ارسل الي واحدة . »

– « اوه ، ماذا تقول ايها الزنديق ! انا وانت انما نقترف اثماً نهانا الله عنه . »

– « حسناً ، حسناً ، ليكن ذلك . في وقت آخر ... أوه ، أوليانيا ، ولكن الناس في هذه البلدة ... »

وهمست المرأة في اذنه :

« لا تلق اليهم بالاً . »

وأنشأت تواسيه وتلاطفه . حتى اذا هدأ روعها حدثته عن اهل البلدة : عن الذين ينبغي ان يخشاهم ، والذين يمتازون بالبراعة ، وعن المخادعين ، والذين يملكون اموالاً يستطيعون الاستغناء عنها .

« إنهم يعلمون مدى حاجتك الى الخشب . من اجل ذلك يعتزم بوميبالوف وفوروبونوف شراء جميع الاخشاب الموجودة في المنطقة لكي يقيما العقبات في طريقك . »

- « لقد تأخرا اكثر مما يجب . فقد باعني الامير ما عنده من خشب . »

كانت تحيط بالعاشقين من اقطارهما ، ظلمة دامسة جداً . كان احدهما عاجزاً عن ان يرى الى عيني الآخر . وكانا يتحدثان في همس لا جَرْس له . وكانت رائحـــة الحشيش المجفف ومكانس السندر تعبق في ارجاء السقيفة ، في حين تنبعث من القبو الذي تحتها برودة رطبة مستحبة . وكانت البلدة الصغيرة غارقة في هـدوء رصاصي ثقيل ، وفي ما بين الفينة والفينة كانت تعدو وسط القش قطـة من

القطط ، او تصئ فأرة من الفئران صئياً ضعيفاً . وكان الناقوس المصدوع القائم في قبة كنيسة القديس نيقولا يرسل نداءه الكئيب المرتجف في حواشي الليل .

وهمهم آرتامونوف في اتقاد ، وهو يربت على جسمها الناعم الدافيء :

« شد ما أنت ممتلئة وقوية ! لمَ لم تنجبي اولاداً آخرين ؟ »

ــ « لقد وضعت ولدين غير ناتاليا . ولكنهما كانا ضعيفي البنية ومن اجل ذلك لم يعيشا طويلاً . »

ــ « اذن فقد كان زوجك غير كفء . »

فهمست اوليانا في اذنه :

« لن تصدقني اذا قلت لك إنني ، حتى مجيئك، لم اكن اعرف ما هو الحب . كانت النسوة يتحدثن عنه ولكني لم اؤمن لحظة بصحة كلامهن . لقد حسبت بسبب من الحياء انهن كن يكذبن ! فأنا لم اعرف في عصمة زوجي غير الحياء . كان الايواء الى الفراش أشبه عندي بالذهاب الى المشنقة . وكنت اضرع الى الله ان يُنزل عليه سكينة النوم من غير ان يمسني . كان رجلاً صالحاً بارعاً مؤثراً للسلم ، ولكن الله لم يمنحه نعمة الحب . »

وأثارت قصتها آرتامونوف واوقعت الدهش في نفسه . ثم انه دمدم وهو يداعب ثدييها العاليين :

« هكذا جرت الامور بينكما إذن ؟ لم أكن اعرف ذلك . كنت أحسب أن ايما رجل خليق به ان يكون محبباً الى قلب المرأة . »

واستشعر انه اشد قوة واكثر حكمة أمام هـذه المرأة التي عرفها ربة بيت هادئة حصيفة يحترمها اهل البلدة لذكائها ولأجادتها القراءة والكتابة . وذات يوم قال لها وقد تأثر بتدليلها إياه على طريقة الفتيات العاشقات :

« أنا اعرف كم يكلفك ذلك . كان ينبغي أن لا نجمع مـا بين ولدينا برابطة الزواج — كان ينبغي ان نتزوج نحن ، انا وانت . »

— « ان اولادك طيبون . وليس من بأس في أن يطلّعوا على دخيلة امرنا . ولكن اذا عرفت البلدة .... »

وهزت هيكلها كله رعدة .

وهمس إيليا :

« اطمئني بالاً . »

وفي يوم آخر سألته في لهفة :

« قل لي : ذلك الرجل الذي قتلته، الا تراه في ما يرى النائم؟ »

وسوّى ايليا لحيته في اناة وقال :

« لا ، أنا أنام نوماً هادئاً عميقاً . انا لا احلم احلاماً . ولـماذا يتعين عليّ أن أشهده في المنام ؟ إن عينيّ لم تقعا عليه قطّ . لقـد ضربني شخصٌ ما ، فكدت أقع على الارض . وترجّحتُ بثقلي فأصبتُ بعضهم في رأسه . ثم إنني ضربت آخر وولى الثالث فراراً . »

وتنهّـد وهمهم في استياء :

« المجانين يتحرشون بك ، وعليك أنت ان تكون مسؤولاً عنهم أمام الله . »

وصمت برهة فسألته :

« أنائمٌ أنت ؟ »

— « لا . »

— « من الخير لك ان تذهب . ان الضحى يكاد يرتفع . الى اين انت ذاهب — الى المصنع ؟ آه ، ولكنك تضني نفسك من اجلي .. »

— « لا تجزعي . لقد صمدت للأيام الكالحة ولسوف أصمد للأيام البهيجة . »

وانتفخ زهواً وهو يلبس ثيابه .

وغادر آرتامونوف السقيفة وراح يمشي عبر طيف الصباح البارد اللؤلؤي ، يمشي على ارضه هو ، وقد ردّ يديه الى وراء وغرزهما تحت سترته ، رافعاً القماش كذَنَب ديكٍ ، حتى اذا داس بقدميه النشّارة وقدَد الخشب قال في ذات نفسه :

« ينبغي أن أحمل آليوشا على ان ينفق شبابه في اقتناص الملذات الى ان يقلع عن الكلام الفارغ . إنه صعب القياد ، ولكنه ولدٌ طيب . »

وكان لا يكاد يستلقي على التراب ، أو على ركام من النشارة حتى يغرق في النوم . وما هي الا فترة حتى يمتد الضحى في لطف فوق السماء المخضرّة . وتنشر الشمس الفخور ذوائب اشعتها ، على صورة قطار من الطواويس ، ثم تبزغ ذهبيةً في قلبها نفسه . وعندئذ يستيقظ العاملون في بناء المصنع ويلتمسون الرجل الضخم المنبطح على الارض ، ويسري الانذار بين صفوفهم :

— « انه هنا ! »

في ذلك الصباح وقف تيخون فيالوف، بوجنتيه المرتفعتي العظم ومعوله المُراح على كتفـــه ، وأنشأ يرمق آرتامونوف بعينين راعشتين ، وكأنما يرغب في ان يثب عليه ، ولكنْ يُعوزه العزم.

ولم يستيقظ الرجل الضخم على ضجيج العمال ، وعلى صيحاتهم وضربات مطارقهم . كان مستلقياً على ظهره مواجهاً السماء بوجهه ، يغطّ غطيطاً أشبه بصريف منشار يحتاج الى شحذ . وأوسعَ حافر الخنادق الخطى ، ملقياً نظرات عديدة الى الوراء ، غامزاً بعينيه كما يغمز رجلٌ تلقّى ضربةً على رأسه . وبرز الكسي من البيت، في قميص كتانيّ أبيض وبنطلون أزرق . ومضى الى النهر ليغتسل، مخففاً الوطء وكأنه يسير في الهواء ،منعطفاً حول عمه في حـــذر وكأنما كان يخشى ان يُوقظه حفيف النشارة الخافت تحت قدميه .

وكان نيكيتا قد انطلق الى الغابة قبل ارتفاع الضحى . كان يجمع في كل يوم تقريباً حمل عربة أو عربتين صغيرتين من التراب الناعم الغنيّ بالمواد العضوية ، لينشره إثر عودته فوق رقعة الارض التي جردها من الصفصاف كي يجعلها حديقة له خاصة . وكان قــد غرس في تلك الرقعة شجرات السندر والأسفندان والدردار ، وشرع الآن في إعداد التربة لزراعة الاشجار المثمرة ، حافراً حُفَراً عميقة في الرمل ، ومالئاً إياها بالتراب الناعم الذي حمله من الغابة وبطين النهر والصلصال . وفي ايام التعطيل كان تيخون فيالوف يمدّ اليه يد المساعدة .

وكان يقول :

« ان العمل في الحدائق ليس إثماً ، حتى في الايام المقدسة . »

اما بيوتر آرتامونوف فراح يذرع موقع البناء ، شاداً شحمة أذنه في غير وعي ، مراقباً سير العمل . كان ثمة منشـــار يأكل الخشب في لذة ونهم . وكانت المساحيج تمشي متثاقلةً ، وهي تَصفر وتَصرف ، جيئةً وذهوباً . وكانت الفؤوس تهوي قوية مدوّية . وَصفّقَ الملاط رطباً على جنبات الحجارة ، وأنّ مشحذٌ تحت شفرة فأسٍ كليلة . وأنشد النجارون فيما هم يرفعون إحدى العوارض الضخمة نشيد الـ « دوبينوشكا » ، وفي مكانٍ ما تغنّى صوت غضّ في صَبْوة وحنين :

« الصديق زاكاري زار ماري ،
ولطم وجهها ليدخل السرور الى قلبها . »

وقال بيوتر لفيالوف :

« تلك اغنية فظّة . »

فأجاب حافر الخنادق وركبتاه غائصتان في الرمل :

« إن غناءك هذه الاغنية او تلك لا يقدم ولا يؤخر . »

- « ماذا تعني ؟ »

- « ليس في الكلمات روح . »

وقال بيوتر في ذات نفسه ، وهو يشيح بوجهه عنه :

« رجل غريب حقاً . »

وهنا تذكر بيوتر أن والده كان قد عرض على فيالوف القيام بوظيفة مراقب ، وان هذا الرجل أجابه وعيناه مركزتان على الارض :

« لا . أنا لا أصلح لذلك . أنا لا استطيع ان آمر الناس من

حولي . إعهدْ اليّ في عملٍ زراعيّ . » وذكر أنّ آرتامونوف سبّه جهاراً .

... وأقبل الخريف بارداً رطبـــاً . لقد غطّى « المنّ » الحدائق ، ورقّش حديدَ الغابات المطروق . وهبت على المنطقة ريح رطبة ملقية بالنشارة الشاحبة المدوسة بالاقـدام الى النهر . وكلّ صباح كانت العربات التي تجرها خيول كثّـة الشعر تصعّد الى مخزن البضـــاعة . كانت مثقلةً بالكتان ، وكان بيوتر يفحص البضاعة في كثيرمن الحذر خشية أن يخدعه هؤلاء الفلاحون الملتحون المكتئبون فيقدموا اليه كتاناً ندياً قدأُشبع بالماءليزداد وزنه ، أو يعطوه كتاناً من الصنف العادي زاعمين أنه طويـــل الألياف . وكان التعامل مع الفلاحـــين عسيراً . وكان الكسي الغضوب خليقاً بأن يتنازع معهم في غيظٍ ما بعده . لقـــد سافر ايليا الى موسكو وغادرت اوليانا البيت لتفرغ للصلاة في احـد الأديار ، أو هكذا قالت . وفي الأمسيات ، عند تناول الشاي أو العشاء ، كان الكسي يكثر من الشكوى متبرّماً :

« ليست الحياة هنا بالأمر السهل . أنا لا أحب أهل البلد . »

وكان ذلك يثير بيوتر ويُغضبه فيقول :

« لستَ خيراً منهم ! إنك تلتمس ضروب النزاع ذات اليمين وذات الشمال ، وتغالي في الفخر والتمدح . »

— « إن عندي ما أفخر به . ذلك هو السبب . »

وكان ينفض شعره الجعد ويرد كتفيـــه الى الوراء ، وينفخ صدره ثم يحدق بعينيه المسمّرتَين الى أخويه وامرأة اخيه تحديقاً

وقحاً . وكانت ناتاليا تجتنبه، وتعامله في برود وكأنها تخشى منه أمراً.

وبعد الغداء كان بيوتر والكسي يقصدان الى العمل من جديد، فتنطلق ناتاليا الى غرفة نيكيتا الصغيرة الرُهبانية وتجلس، وفي يدها شيء تخيطه، على الكرسي ذي الذراعين غير بعيد من النافذة. لقد صنع الأحدب لها هذا الكرسي بنفسه، ناقشاً خشبه السندري في براعة. واذ عُهِد إليه في أداء العمل الأداري فقد كان يجلس الى مكتبه من الصباح الى المساء يكتب ويحسب. ولكنه كان يطّرح العمل فترةً قصيرة حين تُقبل ناتاليا، ليحدثها عن الامراء وكيف كانوا يعيشون، وعن الازهار التي تزدهي بها البيوت الزجاجية الحارة المصنوعة خصيصاً لوقايتها من البرد. كان صوته العالي الشبيه بصوت الفتيات مكدوداً، ولكنه ودودٌ ملاطف؛ وكانت عيناه الزرقاوان تحدقان، عبر النافذة، الى الخارج، محاذرتين أن تقعا على وجه المرأة. أما ناتاليا فكانت تنكب على خياطتها مستغرقةً في صمتٍ مفكر، شأن المرء حين يخلو الى نفسه. وهكذا كانا يجلسان طوال ساعة، او ساعتين أحياناً، من غير أن يلمح احدهما الآخر ببصره، الا نادراً. وبين الفينة والفينة كان نيكيتا يدير دفء عينيه الملاطف، في حياء، وعلى نحوٍ شبه لا إرادي، الى امرأة اخيه، فتحمر أذناه الكبيرتان المشبهتان أذني الكلب، احمراراً واضحاً. وكانت نظرته الخاطفة تحملها في بعض الاحيان على أن ترفع هي بدورها بصرها اليه، مبتسمةً له ابتسامة رقيقة. والحق ان تلك الابتسامة كانت غريبة. كان نيكيتا يحس أحياناً انها تخفي وراءها فيما ضباباً غامضاً

لعاطفته . وكان يحس احياناً أخرى أنها تعبر عن معنى من السخرية به فيسوءه ذلك ويؤذيه ، ويغض طرفه فعلَ الآثم الخجلان .

وهطل المطر غزيراً ، وسُمع له خرير خارج النافــــذة وهو يغسل أصبغـــة الصيف الذاوية . وسمعا الكسي يصيخ في مكانٍ ما . وهدر دب صغير شُدَّ منذ قريب الى زاوية الفناء . وانبعثت من المصنع ، حيث كان النسوة يحلجن الكتان ، جلبةٌ غامضة .

ودخل الكسي الغرفة هادراً مبزبزاً ، والماء يقطر منــه ، والوحل يلطخ جسمه وثيابه ، وقد ارتدَّت قبعتـــه الى الجزء الخلفي من رأسه — مذكـّراً أمع ذلك بيوم من أيام الربيع . وأعلن ضاحكاً أن تيخون فيالوف قد قطع أحد أصابعه :

« هو يتظاهر بأن الحادث وقع قضاء وقدراً . ولكن الأمر واضح جداً : إنه يخشى الخدمة العسكرية . أما أنا فخليقٌ بي ان امضي كالطلق الناري ، لمجرد الابتعاد عن هذا المكان . »

وعبس وهدر كولد الدب :

« لقد ألصقنا انفسنا في جُحر يبعد أميالاً عديدة عن أيما مكان . »

ثم إنه مدَّ يده وقال :

« أعطني بعض الدراهم . انا ذاهب الى البلدة . »

— « لماذا ؟ »

— « ليس هذا من شأنك . »

وفيما هو يغادر الغرفة أنشأ يغني :

« انظر الى الوقحة تجري عبر البرسيم
حاملة الفطـــائر الى محبهـــا . »

« آه ، ولكن هذا المسلك سوف يعود عليه بضروب المتاعب . ان صديقاتي كثيراً ما يرينه مع أولغا أورلوفا ، وهي لا تتجاوز الرابعة عشرة من العمر . إن امها قد توفيت ، وإن أباها لمستهتر سكير . »

وقلق نيكيتا للهجتها . لقد بدا له وكأن في حديثها كآبة صارخة وحصراً نفسياً بالغاً ، بل لقد بدا له وكأن في كلماتها أثراً من حسد .

وتطلع في صمت الى ما وراء النافذة . كانت اغصان الصنوبر تتمايل في الهواء الرطب ، نافضةً حبات المطر الزئبقية عن رؤوس إبرها الخضراء . لقد سبق له أن ربى شجرات الصنوبر هذه وتعهدها بعنايته . إن جميع الاشجار المحيطة بالمنزل هي غرس يديه .

ودخل بيوتر الغرفة متجهم الوجه بادي التعب :

« حان موعد الشاي ، يا ناتاليا ! »

– « لا يزال ثمة متسع من الوقت . »

وهنا صاح بيوتر مغضباً :

« أقول لقد حان الوقت ! »

وعندما غادرت زوجته الغرفة ، جلس في مكانها . وشرع هو أيضاً يتذمر ويتشكى :

« لقد ألقى ابي عبء العمل كله على عاتقي . إنني أدور كالدولاب من غير أن أدري أين أدور . وإذا لم أحسن تصريف الأعمال فعندئذ يلومني على ذلك أعنف اللوم . »

وحدثه نيكيتا ، في لهجة معتدلة حذرة ، عن الكسي وأولغا أورلوفا . ولكن بيوتر لم يصغ لكلامه وقال وهو يلوح بيده :

« ليس عندي وقت أضيعه في الخوض بمشكلات البنات . بل إني صرت لا أرى زوجتي إلا ليلاً ، حين اكون نصف وسنان. أما في ساعات النهـــار فأنا أعمى كالخفّاش . إن رأسك لمحشو بالحماقة والسخف . »

وشد أذنه وواصل كلامه في احتراس :

« أحسب ان إنشاءنا هذا المصنع لم يكن عملاً موفقاً . يجب أن نقصد الى السهوب ، ونشتري قطعة من الارض نعمل عليها . إن ذلك أدعى الى تخفيف الضجة وزيادة العائدات . »

وآبَ ايليا آرتامونوف من رحلته بمعنوية رفيعةفهو يبدو أصغر من ذي قبل بسنواتٍ . لقد شذّب لحيته ، وبدت كتفاه أعرض منهما في ايما وقت مضى ، وعيناه اشد لمعاناً وبريقاً . كان أشبه شيء بمحراث جُدِّد تطريقهُ . وإذ جلس مسترخياً على الأريكة قال :

« إن مشروعنا ينبغي ان يسير كما يسير الجيش الى الميـدان . ولسوف يكون ثمة عملٌ كثيرٌ لكم ، ولأولادكم ، ولحفدتكم ، لثلاثمئة عام ستأتي . نحن اسرة آرتامونوف سوف نبعث حيــاةً جديدة في صناعة البلاد ! »

ونظر الى كنّته نظرة مدققة وصاح :

« ناتاليا ؟ أنتِ حامل ؟ اذا وضعتِ غلامــاً فسأقدم اليك هدية رائعة . »

وفي المساء، قالت ناتاليا لزوجها وهما على وشك ان يأويا الى الفراش :

« ما أظرف والدك حين يكون مبتهجاً . »

فأجابها زوجها في برودة ، ونظر اليها شزْراً :

« طبعاً هو ظريف — لقد وعدكِ بهدية . »

بيد أن حيوية آرتامونوف ما لبثت أن غاضت بعد اسبوعين أو ثلاثة ، وبدا وكأنه وازح تحت عبء من التفكير المهموم.

وسألت ناتاليا نيكيتا :

« ما الذي يُغضب والدك ؟ »

— « لست ادري . إن من العسير على المرء أن يفهمه . »

وفي ذلك المساء ، وكانت الاسرة تتناول الشاي، قال الكسي فجأةً وفي صوتٍ مرتفع :

« أبي ! دعني ألتحق بالجيش . »

وصاح ايليا :

« ... ماذا تقول ؟ »

— « لن اعيش هنا بعد الآن . »

وأمرهم آرتامونوف بأن يخرجوا جميعاً .حتى اذا شخص الكسي مع سائر افراد الاسرة الى الباب صاح إيليا :

« آليوشا ، إنتظرْ ! »

وسلخ فترةً طويلة وهو واقف ينظر الى الغلام ، ويداه خلف ظهره ، وأهدابه تختلج . ثم قال :

« وقد علّقتُ كلّ هذه الآمال عليك ! »

— « انا لا أستطيع أن أعيش هنا . »

— « هراء ! إن مكانك هنا . لقد أعطتني أمك اياكِ وأطلقت يدي في شؤونك . إذهب ! »

وخطا ألكسي خطوة متردّدة ، ولكن عمه سأله ان يتمهل

كرّةً أخرى . ثم إنه وضع يداً ثقيلةً على كتفه وقال :

« إني شديد التساهل معك . لقد كان والدي جديراً بأن يلجأ ، في مثل هذه الحال ، الى جُمْع كفه . إذهبْ ! »

ومع ذلك ، فقد سأل الغلام ان ينتظر مرةً ثالثة ، وأضاف في عبوس :

« إنك سوف تغدو رجلًا كبيراً — أفهمت ؟ لا تدعني أسمع أيما تذمر بعد اليوم . »

ثم انه اطال الوقوف وحده أمام النافذة ،شاداً لحيته في عنف ، متأملًا الثلج الأشيب الرطب وهو يسقط على الارض.حتى اذا صار الليل في الخارج كالحاً كالسرداب،انطلق قاصداً الى البلدة. وكانت بابما كوفا قد أوصدت بابها فدق على النافذة وأقبلت اوليانا بنفسها لتفتح له . وفي تجهم سألته :

« ما الذي جاء بك الى هنا في هذه الساعة ؟ »

ومن غير أن يتمهل ليجيب ، بل من غير أن يخلع قبعته تخطاها مسرعاً الى الغرفة . وبعد ان القى بقبعته الى الزاوية ارتمى على كرسيٍ وراح يحدثها ، ومرفقاه الى الطاولة ، وأصابعه في لحيته ، حديث ألكسي :

« لقد علقت حبال اختي بحبال السيد . فكان صاحبنا . ان دمه ليدلّ عليه . »

وأحكمتْ إغلاق النافذة وأطفأت الشمعة .وكان مصباح أزرق قائم على قاعدة فضية يرسل أشعته باهتة شاحبة في الزاوية ، تحت الايقونات . وقالت :

« زوّجه ، فذلك خليقٌ بأن يَحصنهُ . »

ـ « أجل . هذا أمرٌ ينبغي أن يُعمل ، غـــير أن ذلك ليس كل شيء . فبيوتر خاملٌ لا روح فيه . وهذا شيء مؤسف جداً . فالرجل الذي تعوزه الروح لا يحلّ ولا يعقد . انه يشتغل وكأنه لا يزال يعمل لسيده لا لنفسه ، وكأنه لا يزال عبداً قِنّاً . إنه لا يستشعر أنه حر ـ أفهمتِ ؟ ونيكيتا ، ما الذي استطيع ان أقول عنه ؟ إنه ذو عاهة . وهو لا يفكر في شيء غير الاشجار والازهار . ولقد حسبتُ ان الكسي خليقٌ بـأن يعض على العمل بالنواجذ . »

وحاولت بابما كوفا أن تعيد الى نفسه الثقة :

« إنك لتتعجل الهموم . ومن الخير لك ان تعتصم بالصبر . وغداً عندما تبدأ الدواليب تدور دوراناً اسرع تجـــدهم اكثر اندفاعاً في العمل واشد اقبالاً عليه . »

وتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل ، وهما جالسان جنباً الى جنب في سكون الغرفة الدافيء ، وقد ارتجفت سحابة الضوء المزرقّ القائمة فوق بُرْعم الشعلة الباهت في زاوية الأيقونات . وانتقل آرتامونوف الى الكلام على أهل البلدة :

« إنهم قومٌ ذوو قلوب صغيرة . »

ـ « إنهم يكرهونك لأن الحظ يحابيك . نحن النساء نُؤْثر الرجال من اجل ذلك . أما بالنسبة الى الرجل فأن حُسن طالع أيما رجل آخر هو اشبه ما يكون بمنظر كريه يؤذي العين . »

وعرفت أوليانا بابما كوفا كيف تهدّيء صاحبها وتواسيه . ولم

يزد آرتامونوف على أن تخر عندما قالت :

« شيء واحد يوقع الرعب في نفسي حتى الموت — أن أغـــدو حاملًا . »

وأردف وهو ينهض ليعانقها :

« إن الاعمال في موسكو اشبه ما تكون بِقدْرٍ بدأت تغـلي على النار . آه ، لو كُنتِ رجلًا فقط . . . »

— « اذهَبْ يا عزيزي . أستودعك الله ! »

وقبّلها وانصرف .

. . . وفي أيام الاعتراف السابقة للصوم الكبير جاءت بيردانسكايا من البلدة حاملة ألكسي على مركبة من مركبات الجليد بعد أن ضُرِبَ ضرباً أفقده الوعي ، وبعد أن مزقت ثيابه تمزيقاً كثيراً . ومسح نيكيتا وبيردانسكايا جسده بمسحوق خشب البان وبالفودكا ، ولكنـــه ظل فترة طويلة من الزمن يئن ولا يتكلم . وأنشأ آرتامونوف يذرع الغرفة كوحش مفترس ، رافعاً أردان قميصه حيناً ، ومعيداً اياها الى موضعها حيناً ، صارّاً بأسنانه . حتى اذا استعاد ألكسي وعيه زأر ملوّحاً بجُمع كفه :

« من الذي ضربك ؟ تكلم ! »

وفتح الكسي عيناً واحدة متورمة ، قد أظلمت من شدة الالم والغضب ، وتنفس تنفساً متقطعاً ، ثم قال وهو ينفث دماً :

« أَجهِزوا عليّ ! »

ونشجت ناتاليا في ذعر . فضرب آرتامونوف الارضَ بعقبه ، في هياج ، وصرخ في وجهها :

« إخرسي ! أخرجي من هنا ! »

وقبض ألكسي على رأسه ، وكأنما يحاول أن يقتلعه ، وأنّ أنيناً موجعاً .

ثم انه بسط ذراعيه وانقلب على جنبه وظل ساكناً لا يتحرك ، وقد فغر فاه الملطخ بالدم وراح يتنفس تنفساً ضيّقاً . وارتجفت شمعة على الطـــاولة المجاورة للفراش ، وزحفت الظلال على جسده المرضوض ،فهو يبدو متورماً ، ضارباً الى السواد . ووقف أخوا ألكسي صامتين مكتئبين ، عند طرف الفراش ، في حين أخـذ الأب يذرع الغرفة ، جيئة وذهوباً ، موجهاً السؤال الى حكَم غير منظور :

« ألن تُكتب له النجاة ؟ »

ولكن الكسي ما لبث أن نهض ،بعد ثمانية ايام ، على قدميه ، برغم انه ظل يسعل سعالاً رطباً وينفث دماً . ومن ذلك الحين اعتاد ان يبخر نفسه في الحمام ، وأن يشرب الفودكا المُفَلْـفَلَــة . واضطرمت في عينيه نارٌ مبهمةٌ بَرِمةٌ زادتهما جمالاً الى جمـال . لقد اصر على عدم التصريح باسم الذي ضربه ، ولكن بيردانسكايا تحرّت المسألة لتعلن ان المعتدين هم ستيفان بارسكي ، وإطفائيان ، ورجل يعمل في خـــدمة فوروبونوف الموردوفي . وحين سأل آرتامونوف الكسي ما اذا كان هذا صحيحاً اجاب :

« لست ادري . »

« انت تكذب ! »

« أنا لم أرهم . لقد ألقوا شيئاً على رأسي من وراء ــ سترةً أو

شيئاً من هذا القبيل . »

فقال آرتامونوف :

« أنت تخفي أمراً . »

وصوّب الكسي بصره اليه، ولمع في عينيه بريق مُرمضٌ وقال:

« سوف أنتقم لنفسي »

— « ينبغي ان تأكل اكثر .» بذلك نصحه آرتامونوف ، وهمهم همهمة ضاعت في ثنايا لحيته :

« يجب أن تنار أمامهم السبيل لمثل هـــذه المهمة — إشوِ برائنهم شياً . »

وغدا ايليا اكثر اهتماماً بألكسي ، وأشد حدباً عليه . وراح يعمل في همةٍ عارمة غير كاتمٍ الهدف الذي يسعى اليه : أن يلهب نفوس ابنائه بحب العمل الذي يعمر قلبه .

« شاركوا في كل شيء . لا تلزموا عملاً واحداً .» كذلك كان يحثهم ، وهو نفسه كان يقوم بكثير مما كان يجوز تركـــه للأخرين . ويتكشف في كل عملٍ ينبري له عن غريزة حيوانية رشيقة كانت تمكنه من ان يحزر موطن المقاومة الاشد ، وأيسر السبل الى تذليلها .

وتأخر أجلُ الحمل عند كنّته تـــأخراً غير سوي . حتى اذا وضعت آخر الأمر — وبعد يومين من مخاضٍ عسير—أنثى ، أخذه ضيقٌ شديد :

« أي فائدة تُرجى من هذا المخلوق ؟ »

وهنا قالت له اوليانا ، مقطبة الجبين :

« اشكر الاله الطيب على نعمته . هل تعرف عيد من اليوم ؟ انه عيد القديسة « إيلينا » حامية الكتان ! »

— « لا ! »

وامسك بالتقويم الكنسي واستطلع التاريخ ، وهو جذلٌ كطفل صغير :

— « خذوني اليها ! »

وصاح وهو يلقي قرطاً ياقوتياً وخمس ليرات ذهبية على صدر ناتاليا :

« دونكِ هذه الهدية ! لقد أحسَنْتِ على الرغم من انه ليس صبياً ! »

ثم التفت الى بيوتر وسأله :

« حسناً ، ايها السمكة العجوز ، هل أنت مبتهج ؟ لقد ابتهجتُ أنا عندما ولدتك أمك ! »

كان بيوتر يحدق جزعاً الى وجه امرأته الشاحب ، المشوه ، الذي لا يكاد يُعرف . كانت عيناها الكليلتان غارقتين في حفرتين مظلمتين فيهما تطلان منهما على الاشخاص والاشياء وكأنهما تستعبدان ذكريات عفّى عليها النسيان . وفي أناة ، أمرّت لسانها على شفتيها المعضّضتين .

وسأل بيوتر حماته :

« لمَ لا تقول شيئاً ؟ »

— « لقد صرختْ صراخاً كافياً . » قالت اوليانا ذلك ودفعته الى خارج الغرفة .

وكان على بيوتر ان يستمع طوال يومين وليلتين الى صراخ زوجته . لقد أشفق عليها بادىء الامر وخشي ان يتخطفها الموت. حتى إذا أصيب بعد بشبه خبل من جراء ذلك الصراخ وتلك الجلبة التي ملأت ارجاء المنزل أمست أعصابه في حال من الارهاق لا تقدر معها على خوف أو إشفاق . وحاول أن يبتعد جهد إمكانه الى مكان قصي ، ولكن صيحات امرأته كانت ابداً هناك ، فهي ترن في دماغه ، مثيرة أغرب الفكرات واعجبها . وكان حيثما اتجه يعثر بنيكيتا ، وفي يده إما فأس أو مسحاة ، يقطع الاشجار ، ويشق الاخشاب ، ويحفر الارض ، ويهرول ذات اليمين وذات الشمال في وطء خفي كوطء الخلد . كان الأحدب يبدو وكأنه يعدو في دوائر . ولعل ذلك هو السبب الذي من أجله كان يبرز ، على غير انتظار ، في كل مكان .

وقال بيوتر لأخيه :

« يبدو أنها لن تنجو ... »

فغرز الأحدب مسحاته في الرمل وسأل :

« وما تقول القابلة ؟ »

— « تقول إن علينا ان لا نجزع ، وانها سوف تشفى وشيكاً. ما الذي يجعلك ترتجف هكذا ؟ »

— « إن ضرسي يؤلمني . »

وإذ جلس بيوتر في الرواق مع نيكيتا وتيخون ، مساء اليوم التالي لمولد الطفلة ، قال في ابتسامة تؤذن باهتمام كبير :

« لقد وضعوا الطفلة بين ذراعي ، وكنت من السعادة بحيث

لم أحس اني أحمل جسما ذا ثِقل . والواقع أني ألقيت بها عالياً حتى السقف ، تقريباً . ومن عجبٍ أن يكون شيء صغير مثل هذا باعثاً على ذلك الألم كله ! »

ومسح تيخون فيالوف خدَّه ، في تأمل ، وقال بجرْسه المادي المألوف :

« كل الآلام البشرية ناشئة عن أشياء صغيرة . »

فسأله نيكيتا في جفاء :

« ماذا تعني ؟ »

فتثاءب تيخون وأجاب في غير مبالاة :

« اعني ان الأمور هكذا تجري ، ليس غير . »

ودُعوا الى البيت لتناول العشاء .

كانت الطفلة كبيرةً حسنة البنية ، ولكنها توفيت بعد خمسة أشهر متسممةً بغاز الفحم . وأصيبت امها بالتسمم أيضاً ولم تنجُ من الموت إلا بشقّ النفس .

وفي المقبرة ، قال آرتامونوف لابنه :

« حسناً ، ذلك أمرٌ لا سبيل الى دفعه . إنها سوف تنجب اولاداً آخرين . والآن ينبغي أن يكون لنا هنا قبرٌ خاصٌ . ذلك مَرسىً عميق . وعندما يكون للمرء مِلكٌ خاصٌ من حوله ، و ملك خاص من تحته ، يعني مِلكٌ فوق الأرض ، وملك تحت الأرض فعندئذ يصبح ثابت القدم راسخ الجذر ! »

ونكس بيوتر رأسه . كان يراقب زوجته وقد وقفت منحنيةً الحناءة خرقاء ، وتسمرت عيناها على الرابية الصغيرة القائمة عند قدميها ،

والتي كان نيكيتا يسويها بمسحاته في عناية بالغة . ومسحت ناتاليا الدموع عن خديها في سرعة محمومة ، وكأنما تخشى ان تحترق اصابعها بنار أنفها الأحمر المتورّم ، وهمست :

« يا إلـٰهي ، يا إلـٰهي ! ... »

وطاف ألكسي بالقبور يقرأ ما نُقِش على شواهدها . لقد غدا مهزولاً ، وبدا أكبر من سنه الحقيقية . وأخذ الوبر الاسود ينمو على وجنتيه ولحيته جاعلاً سيما وجهه غير الريفية تبدو محترقة قد سوّدها الدخان . وكانت عيناه المتكبرتان الغارقتان تحت أهدابهما السوداء تنظران الى العالم كله في بغض . وكان يتكلم في تبلّد ، وفي اسلوبٍ متعجرفٍ متفضّل ، وفي غموض يبدو مستأنياً متبصراً . حتى اذا عجز الناس عن فهم ما يقول لعنهم في صوت عالٍ :

« لقد سمعتموني ، حسناً ! »

وكان يطبع مسلكه مع اخويه طابعٌ ساخرٌ بغيض . وكان يصرخ على ناتاليا وكأنها خادم . وعندما انبّهُ نيكيتا بقوله :

« ينبغي ان لا تقسو هكذا على ناتاشا ! »

أجابه قائلاً :

« انا رجلٌ مريض . »

— « إنها لمسالمة الى حد بعيد . »

— « حسناً ، وفي استطاعتها أن تحتفظ بأمنها واطمئنانها . »

وكان ألكسي يُكثر من الكلام على صحته السيئة ، ويفعل ذلك ، دائماً تقريباً ، في زهو وفخر ، وكأنما يتحدث عن فضيلة

ما ، تميزه من سائر البشر .

وفيما كان عائداً مع عمه الى البيت ، إثر دفن الطفلة الصغيرة ، قال :

« يجب أن يكون لنا مدفنٌ مستقل . إنه لمن الخزي أن يرقد المرء مع هؤلاء القوم ، ولو بعد الوفاة . »

فأجابه آرتامونوف في ضحكةٍ قصيرة :

« سيكون لنا ذلك . وانا أطمع في ان تكون لنا كنيستنا الخاصة ،ومدرستنا الخاصة،ومستشفانا الخاص أيضاً . كل ما اسألكم إياه أن تمهلوني فترةً من زمان ! »

وحين اجتازا الجسر ، عبرَ الـ « فاتاراكشا » ، مرّا برجل زريّ الهيئة يلبس عباءةً رثّة صدئة اللون ويستند الى الدرابزون . كان يبدو أشبه ما يكون بموظف صغير أضرّ به إدمان الشراب . وكان خداه المترهلان محجوبين بشعر أشيب خشن كأنه الهشيم ، وكانت شفتاه الكثيفتا الشعر المُبَرْبِرتان تنفرجان عن أرومات أسنانٍ سوْد ، وكانت عيناه الخضلتان تومضان ببريقٍ كدِرٍ . ولم يكد آرتامونوف يرى اليه حتى حوّل بصره عنه وبصق . حتى اذا لاحظ ان الكسي نكس رأسه في اهتمامٍ غير مألوف بهذه النفاية البشرية تساءل :

« فيمَ تفكر ؟ »

— « هذا أورلوف ، الساعاتي . »

— « استطيع ان أرى بنفسي أنه أورلوف ! »

— « إنه رجلٌ ذو رأس مليء . لقد أنزلوا به كثيراً من

الأذى والاضطهاد .»

وألقى آرتامونوف نظرة حادة الى ابن اخته ، ولكنه لم يقل شيئاً .

وأقبل الصيف حاراً جافاً . وتكاثرت حرائق الغابات وراء الـ « أوكا » . ففي النهار كانت سحابة من دخانٍ كثيف مختلف الالوان تحجب وجه الأرض . وفي الليل كان القمر الأصلع ، وقد حال لونه الى أحمر بغيض ، يبدو معلّقاً وسط نجوم غير مُشعّة فهي أشبه شيء برؤوس مسامير نحاسية . وكان النهر يعكس صورة السماء الكدرة فيتراءى للناظر جدولاً لزجاً بارداً من دخان لا يصعّد في الآفاق ، ولكنه يسري تحت الأرض .

وفي ذات مساء خانق الحر جلست اسرة آرتامونوف ، بعد العشاء ، لتناول الشاي في الحديقة . لقد احاطت بالمائدة مجموعة من شجر الاسفندان*. وكان للاشجار تأثيرها المطلوب ، ولكن تيجانها المورقة ما كانت قادرة على ان تلقي ظلاً مّا في ظلمة الليل . كانت الصراصير تغني والخنافس تدندن . وهمهم السماور . وصبّت ناتاليا الشاي في صمت . كانت قد فكّت ازرار قميصها العليا فبدت بشرتها عند الفتحة دافئة وشبيهة بقشدة اللبن . وجلس الاحدب منعطف الرأس يبري الأغصان بمديته ليجعل منها اقفاصاً للطيور . وفي صوت خفيض جداً قال بيوتر وهو يشد شحمة أذنه :

« إنّ اثارة الناس لا يمكن ان تعود على احد بالخير . وان الوالد ليفعل ذلك دائماً . »

* شجر صلب الخشب حلو العصير يعمل منه نوع من السكر .

وواصل ألكسي سعاله الجاف ، مديراً وجهـــه نحو البلدة وكأنما يتوقع امراً .

ورنَّ جرسٌ رنيناً كئيباً .

وصاح الكسي :

« خطر ! نارا » ووثب رافعاً إحدى يديه الى رأسه .

ـ « ماذا بك ؟ إنه جرس الكنيسة يدعو الناس الى الصلاة . »

وغادر ألكسي المائدة . وران الصمت على سائر افراد الأسرة ، ثم لاحظ نيكيتا في رفق :

« إنَّ الحرائق لتشبُّ في دماغه . »

وقالت ناتاليا على استحياء :

« إنه مُغْضَبٌ دائماً . ولشدَّ ما كان مرحاً مبتهجـــاً في الأيام الماضية ! »

وعبس بيوتر عبسةً تليق بمكانتــه كــأخٍ اكبر ، وأنّب زوجته وأخاه :

« انكما تحدقان إليه كما يحدق المخبولون . إنه لا يحتمل ان يرى نفسه موضع الرثاء والأشفاق . ناتاليا ، لنمضِ الى النوم . »

وغادرا الحديقة ، وأتبعهما الأحدبُ نظرَهُ . ثم إنه نهض هو أيضاً وقصد الى البيت الصيفي حيث كان قد أعد فراشاً من العشب المجفف . وجلس على عتبة الباب . وكان البيت الصيفي قائماً على رابية معشوشبة . فكان في استطاعة نيكيتا أن يرى من وراء السياج الى بيوت البلدة ، وكأنها قطيـــع أسود تسوقه أبراج الكنائس ومَرْقب الاطفائيـــين . وجلجات الصحون تحت اشجار

الاسفندان ، حيث كان الخدم يرفعونها عن مائدة الشاي . ومرت جمهرة من العمال بحذاء السياج . كان احدهم يحمل شبكة صيد ، وكان آخر يحمل دلواً مقرقعاً ، على حين كان ثالث يستخرج الشرر بواسطة الصوان والفولاذ محاولاً ان يلتقطها على الصوفان ليشعل غليونه . وهر كلب ، ورن صوت تيخون فيالوف الهادىء في حواشي الليل :

« من يمشي ؟ »

وخيم على الارض سكون متوتر مشدود كوجه الطبلة . حتى أقدام العمال المخوضة في الرمل ، كان يتردد صدى وقعها مع ذلك السكون ترددا لا يكاد يبين . وكان نيكيتا يحب الهدوء الساجي في مثل هذه الليالي . وكلما تعاظم السكون،اشتد تركز قوته الخيالية كلها حول ناتاليا ، وصار في ميسوره ان يتمثل ، في وضوح أصفى ، عينيها الغاليتين اللتين كانتا ابداً مذعورتين أو تائهتين بعض الشيء. وكان من اليسير عليه ان يرخي لتفكيره العنان فيستعرض الأمكانيات السعيدة جميعاً . لعله يعثر مثلًا على كنز كبير فيعطيه لبيوتر ، فيقدمه بيوتر ، بدوره ، الى ناتاليا. أو لعل اللصوص يغيرون فيجترح هو من البطولات ما يحمل اباه وأخاه على أن يقدما اليه ناتاليا ، طوعاً لا كرهاً ، مكافأة له على حسن بلائه. او لعل وباء يفد فيقضي على الأسرة كلها خلا شخصين اثنين : هو وناتاليا . وعندئذ يستطيع أن يريها أن سعادتها منوطة به.

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل عندما رأى الى سحابة جديدة ترتفع من خلال الحدائق الجامدة ، فوق بيوت البلدة

المتجمّعة أسراباً ، مصعّدةً في بطء الى ظلمات السماء القاتمة الرمادية . وما هي إلا لحظة حتى اشتعلت من أدناها بضوء أحمر، فادرك انحريقاً قد شبّ ، وانطلق الى البيت فوجد الكسي يتسلق سلماً الى سطح مخزن البضاعة .

وصاح نيكيتا :

« النار ! »

فأجابه أخوه وهو لا يفتأ يتسلق السلم :

« أدري . وأي غرابة في ذلك ؟ »

— « ولكنك كنت تتوقع ان يشب حريق ... » قال الاحدب ذلك ، ووقف فجأةً في وسط الفناء .

— « لنفرض اني توقعت ذلك ، فأي غرابة في هذا ؟ إن الحرائق لتشبّ دائماً في مثل هذا الجوّ الجاف . »

— « ينبغي أن ندعو العمال . »

ولكن تيخون كان قد سبق الى دعوتهم فراحوا يَعْدون في اتجاه النهر صائحين ضاجّين .

— « اصعَدْ الى هنا ! » كذلك قال الكسي ، وكان يجلس مباعداً ما بين ساقيه على حافة السطح . وتسلق الأحدب السلم طائعاً وهو يتمتم :

« أرجو أن لا يأخذ الذعر ناتاليا . »

— « ألست تخشى أن يضربك بيوتر ضرباً يُطلع سناماً جديداً في ظهرك ؟ »

فسأله نيكيتا في لين :

« وما الذي يحمله على ذلك ؟ »
فأجابه الكسي :
« تجنُّبِ النظرَ الى زوجته . »
ولم يُحِرِ الاحدب جواباً . لقد شعر وكأن السطح يميد به ، وأنه على وشك أن يسقط على الارض فيدقّ عنقه .
وهمهم أخيراً :
« ماذا تعني ؟ ينبغي أن تفكّر قبل أن تتكلم . »
— « حسناً ، حسناً ! أنا لست أعمى .. لا تقلق » قال ألكسي ذلك في بِشْر لم يعرفه منذ عهد بعيد . ثم انه ظلّل عينيه بيده وراح يراقب ألسنة النيران الضخمة المتذبذبة التي كدّرت صفو السكون واحالته الى هديرٍ مكظوم . وفي شوقٍ بالغ راح الكسي يُوسل الكلام متلاحقاً ، آخذاً بعضه برقاب بعض :
« اولئك آل بارسكي . إن عنـــدهم عشراتٍ من براميل القطران في فِناء بيتهم . إن النار لن تمتدّ الى بيوت الجيران — فالحدائق سوف تحول بينها وبين ذلك . »
— « ينبغي ان أهرب » ، كذلك قال نيكيتا في ذات نفسه وهو يتطلّع الى الظلمة التي مزّقتها النيران . ففي الهواء الاحمر انتصبت أشجارٌ تبدو وكأنها خُلِقَتْ من حديد . وعلى الارض الحمراء نشطت شخوص بشرية اشبه ما تكون بالدمى . لقد كان في ميسوره ان يرى حتى الخطاطيف الدقيقةَ الطويلةَ التي اقحموها في النار .
وقال ألكسي في جذَل :

« إنها تشتعل اشتعالاً رائعا ! »

— « سوف أذهب الى احد الاديار » ، كذلك قال الاحدب في ذات نفسه .

وطرق سمعَهما صوتُ بيوتر يتشكّى في نَزَق وتكاسل في الفناء ، ثم جواب تيخون فيالوف الهادىء المروّى فيه . وكانت ناتاليا واقفة امام النافذة ،ترسم على نفسها اشارةالصليب ، كصورة في اطار .

وظل نيكيتا في مكانه من سطح المخزن حتى أُخمدت النار ولم يبق منها غير مهادٍ من جمرٍ ذهبي مرتعش حول ركام المداخن الاسود . عندئذ هبط السلم ، وانطلق عبر الباب الخارجي ليصطدم فجأة بأبيه ، مبلّل الجسم والثياب ، ملطّخاً بالسُّخام ، وقد ضاعت قبعته وغدت سترته أشبه بخرقة بالية .

—« الى أين انت ذاهب ؟ » كذلك صاح آرتامونوف في هياجٍ عارمٍ ودفع نيكيتا رادّاً اياه الى الفِناء . واذْ لمحت عينه الوجه الابيض القاعد على السطح صرخ في ثورة أعنف ، موجهاً كلامه الى ألكسي :

« ماذا تعمل هناك ؟ انزلْ ! إن عليك ان تنتبه لنفسك ، ايها المخبول ! »

ومضى نيكيتا الى الحديقة وجلس على المقعد القائم تحت نافذة ابيه . وما هي الا لحظة حتى سمع باباً يُغلَق في عنفٍ ، وصوت آرتامونوف يتساءل ، في الغرفة التي فوقه ،تساؤلاً انفعالياً مكبوتا:

« أتريد أن تُتلف نفسك ؟ وأن تكسوني خزياً وعاراً ؟

سوف أريك . . . »

فأجابه ألكسي في صوت حادّ :

« لقد أعطيتني الفكرة بنفسك . »

-« إخرسْ ! من الخير لك أن تشكر الله على أن ذلك الماكر لا يستطيع ان يتكلم . »

ونهض نيكيتا من مجلسه ، وانكفأ في رفق ولكن في سرعة ، الى المنزل الصيفي .

وفي صباح اليوم التالي ، قال الأب على مائدة الشاي :

« كان حريقاً متعمداً . ان ذلك الساعاتي السكّير هو الذي اشعل ناره . لقد أشبعوه ضرباً ؛ ويبدو أنه لن يعيش طويلاً منذ اليوم . لقد أهلكه بارسكي ، على ما يقول الناس ، وكانت له ضغينةٌ على ستيوبا ايضاً . انها لمسألة غامضة . »

كان الكسي جالساً يشرب اللبن في هدوء . وكانت يـــدا نيكيتا ترتعشان . لقد أقحمهما بين ركبتيه وضغط عليهما ضغطاً شديداً . واذ لاحظ أبوه حركته سأله :

- « ما بك ؟ »

- « أحسّ أني مريض . »

- « انتم جميعاً تحسون انكم مرضى . أنا وحدي استشعر الصحة والعافية . »

وأزاح فنجانه في غضب ، ولمّا يشربْهُ كلّه ، وغادر المائدة .

كانت صناعة آرتامونوف آخذة في ازدهار سريع . فعلى مسافة كيلو مترين تقريباً من المصنع ، وفوق منحـــدرات الروابي

المكسوّة بنبات الحَلَنْج ، وسط اشجار التنّوب الفضيّ المتناثرة ، أُنشئت حُجُراتٌ عديدة – حجراتٌ صغيرة قصيرة لا حدائق لها ولا أسيجة ، فهي تبدو للناظر اليها من بعيد خلايا نحلٍ حقيقية .

وقرب مَسِيلٍ ضحلٍ كان في يوم من الايام مجرى نهر نسيَ الناس اسمه ، شيد آرتامونوف ثكنةً للعمال الذين لا أُسرَ لهم . وكانت تلك الثكنة بناءً طويلًا له سطح ذو ثلاث مداخن ، ونوافذ صغيرة قُصِد بها الى أن تحول دون تسرّب الحرارة الى الخارج . وكانت هذه النوافذ تجعل المكان يبدو أشبه شيء بالأسطبل ، وكان العمال يدعونه « قصر الفحول » .

وازداد ايليا آرتامونوف صَخَباً واعتزازاً ، ولكنه لم يكتسب تلك الغطرسة التي تصاحب الثروة عـــادةً . كان يختلط بالعمال وكأنه واحدٌ منهم ، فهو يشاركهم أفراحهم ، ويقوم بـــدور العرّاب لأولادهم ، ويغشى ايامَ العطل مجالس الكبـــار منهم ليجاذبهم اطراف الحديث . لقد أوحوا اليه بأن ينصح الى الفلاحين أن يزرعوا الكتان في التربة الكليلة ، وفي المواطن التي أتت عليها حرائق الغابات . واثمرت تلك النصيحة أطيب الثمرات . وتغنّى العمال المتقدمون في السّن بعبقرية ايليا ، ناظرين اليه نظرتهم الى فلاح ابتسم الحظّ له ابتسامةً عريضة ، ناصحين الشباب بقولهم :

« تعلّموا منه كيف يكون العمل ! »

أما ايليا آرتامونوف فكان يقول ، هو بدَوْره ، لأولاده :

« إن الفلاّحين الكادحين أرهف إدراكاً من أبناء المدن . فالناس في المدن عظامهم رخوة وعقولهم مهشّمة . وابن المدينة

شديد الطمع ولكنه يجبن عن المغامرة. إن أعماله تتّسم بالسطحية، وليس يعمّر شيءٌ مما يصنعه أو يدوم. وابناء المدن لا يرعون جانب القانون في اي شيء. اما الفلاح فيلازم نطاق الصدق، ولا يشرّق ولا يغرّب. والحقيقة بالنسبة اليه بسيطة: الله، مثلاً، والقمح، والقيصر. إنه بسيطٌ الى ابعد الحدود. فتعلّقوا به ولا تفارقوه. وأياً ما كان، فأنت يا بيوتر تسلك مسلكاً جافياً مع العمال. أنت لا تتحدث اليهم إلا عن شؤون العمل. وتلك خطة غير صالحة. ينبغي ان تجاذبهم اطراف الحديث في غير تلك الشؤون، وان تسمعهم بعض النكات ايضاً فالناس يفهمون الحديث المرح بأكثر مما يفهمون الحديث المتجهّم.»

فقال بيوتر وهو يشدّ أذنه على نحوٍ آليّ:

«لستُ بارعاً في إرسال النكتة.»

— «درّب نفسك على إجادة النكتة. إن دقيقة من الفكاهة خليقةٌ بأن تجدّد نشاط المرء مهما يكن متعباً. وألكسي لا يُجانِسُ العمال ايضاً. انه كثير الصياح، سريعٌ الى المخاصمة لأتفه الأسباب.»

فأجابه ألكسي في قوة:

«انهم غشّاشون يحبّون التبطّل واضاعة الوقت.»

فنهرَهُ آرتامونوف مُغضباً:

«ما الذي تعرفه عنهم؟»

ولكنه ابتسم ابتسامة خفيفة حجبها بيده كي لا يراها احد. لقد تذكّر موقف ألكسي الجريء الواعي اثناء المناقشة مع ابناء

البلدة في أمر المدفن . ذلك ان الدريبوموفيين أبوا ان يدفنوا عمال المصنع في جبّانتهم ، فكان على آرتامونوف ، آخر الامر ، ان يشتري غيضة سروٍ واسعة من بوميبالوف ليجعل منها فِناءً يستريح فيه العمال بعد الوفاة .

- « فِناءٌ تدفن فيه الاجساد ! » كذلك قال تيخون فيالوف ، في رويّة وتأمّل ، فيما كان هو ونيكيتا يقطعان اشجار السّرو النحيلة المريضة . « إننا نستعمل الكلمة الخطأ في المكان الخطأ . نحن ندعو المقبرة فِناءً وهي المنزل الذي يضمّ أجسادنا حتى آخر الابد . ان البيوت والمدن هي هي الأفنية التي نجتازها في طريقنا الى الأبدية . »

وكان نيكيتا قد لاحظ أن فيالوف يعمل في مهارة وشيقة مُظهراً في عمله ذاك منطقاً أوفر من ذلك الذي يصدر عنه في تصريحاته الغامضة غير المتوقّعة . كان شأنَ آرتامونوف سريعاً الى الكشف عن نقطة المقاومة الدنيا في ايما مهمة يُعهد اليه فيها ، موفّراً بذلك قوّته ، مؤدياً عمله في فنٍّ وبراعة . ولكنْ كان ثمة فارقٌ واضح المعالم بين الرجلين : ذلك ان آرتامونوف كان يباشر كل عمل من اعماله في حماسة ، على حين كان فيالوف يعمل في تبرّم وكأنه ينهض بعبء العمل بسائق الخدمة وإسداء المعروف ليس غير — مثلَ رجلٍ يعرف أنه قادرٌ على أشياء أفضل بكثير . وفي حديثه أيضاً كان يصطنع الاساوب عينه ، فهو مُوجِزٌ مُتَفضِّلٌ ناظرٌ أبداً الى معانٍ بعيدة ، مُسبغٌ على كلامه ظلّاً من اللامبالاة الفجائية وكأنما يريد ان يقول بلسان التلميح :

« أنا أعرف أشياء كثيرة جداً ، غير ما سمعتَ . أنا لم اقل غير نصف ما عندي . »

وكان نيكيتا يرى في كل كلمة من كلماته إيماءةً خفية تثير في ذات نفسه شعوراً بالسخط على هذا الرجل وبالخوف منه ، كما تثير في الوقت نفسه فضولَهُ على نحو حادٍ قلق .

وقال لفيالوف :

« إن معرفتك واسعةٌ جداً . »

فأجابه فيالوف في أناة :

« ذلك ما أعيش من أجله . وإذا كنت اعرف فليس في هذا ما يدعو الى التشاؤم . فأنا اعرف لنفسي . وما اعرفه مصونٌ في صندوق مقفل كصندوق البخيل . إن احداً لا يطّلع عليه . في استطاعتك أن تطمئن من هذه الناحية . »

وكان تيخون لا يستطلع الناسَ أفكارَهم على الأطلاق . كان يحدّق الى المرء تحديقاً موصولاً فاذا عيناه الشبيهتان بأعين الطير تخفقان ، واذا هو ينبري فجأةً ، وكأنما قد نفذ الى أفكار صاحبه، للكلام عن أشياء لم يُعنَ أحدٌ بأطلاعــه عليها . وكان نيكيتا يتمنى في بعض الأحيان لو ان فيالوف يقرض لسانه أو يبتره كما بَتَرَ إصبعه . وحتى بَتْر الأصبع أجراه تيخون في غير ما روية ولا عناية معطّلاً يده اليسرى بدلاً من ان يعطّل يده اليمنى !..

وكان آرتامونوف وبيوتر وسائر الرهط يحسبون فيالوف مخبولاً ، ولكنه ما كان بالمخبول في نظر نيكيتا الذي كان ينمو في ذات نفسه شعور متعاظم نحو هذا الرجل الغريب المرتفع الوجنتين ،

فيه فضولٌ وفيه خوف . وإنما غلب عنصر الخوف على عنصر الفضول ، بخاصةٍ ، حين قال فيالوف فجأةً ، ذات يوم ، فيما كان عائــداً هو ونيكيتا الى البيت عبر الغابة :

« أنت لا تزال تأكل بعضَك . لمَ لا تصارحها ، أيها الأبله ؟ لعلّها أن تكون رفيقةً بك . يبدو أنها لطيفة . »

وجمد الاحدب في مكانه ، وغار فؤاده هَلعاً ، وغدت رجلاه ثقيلتين كالرصاص . ثم تمتم مُلجلِجاً :

« أصارح بماذا ؟ أصارح من ؟ »

ورمقه فيالوف بنظرة ، وواصل السير . وتعلّق نيكيتا بردن حافر الخنادق ، ولكن تيخون أزاح يده في اشمئزاز :

« وماذا يفيد التمويه والأنكار ؟ »

واطرح نيكيتا شتلة السندر التي كان يحملها على كتفهِ ، وألقى نظرةً يائسة الى ما حوله . كان يريد ان يصفع وجه تيخون الفظ ، أن يُكرهه على ان يُلجم لسانه . ولكن تيخون حدّق الى الأبعاد بعينين مدوّرتين ، وأنشأ يتكلم برباطة جأشهِ المألوفة :

« واذا لم تكن لطيفة فقد تتظاهر باللطف . إن النســاء فضوليّات . وليس فيهنّ من لا تحبّ أن تجرّب رجلاً آخر ، ان ترى ما اذا كان ثمة شيء أشدّ حلاوة من السكّر . أما نحن الرجال فمطالبنا محدودة . إننا نفعل ذلك مرةً او مرتين ثم نكتفي . وها أنت ذا تأكل بعضك . جرّبْ حظك : أخْبِرْها لعلّها ان تكون راغبة فيك . »

ووجد نيكيتا في هذه الكلمات نبرةَ إشفاق ودّي لم يقع على

مثلها قطّ من قبل . وانقبضت حنجرته انقباضاً مريراً . ومع ذلك فقد أحسّ ، في الوقت نفسه ، ان تيخون كان يعرّيه على حقيقته ، فقال :

« كل ما تتحدث به هراء . »

كانت الأجراس ترنّ في البلدة داعيةً الناس الى أداء صلاة المساء . وعدّل تيخون وضع الشتلات على كتفه وسار ضارباً الارض بمجرفته ، قائلاً في جَرْسه الهادئ :

« لا تخف مني . أنا متحسّرٌ عليك . انت ولدٌ طيب ، وشائق . الحقّ ان آل آرتامونوف كلهم شائقون . انتَ لست احدب ، داخلياً ، على الأطلاق ، برغم هذا السنام كله القائم فوق ظهرك . »

وانحلّ خوف نيكيتا الى كآبة طاغية . لقد عشيَتْ عيناه ، وترنّح كما يترنح الشارب الثمل . ونازعته نفسه الى أن يرتمي على الارض طلباً للراحة . وتضرّع الى تيخون في رفق :

« أرجو ان تحتفظ بهذا لنفسك ، فهل انت فاعل ؟ »

— « لقد قلت لك من قبل . إنه في حرز حريز . »

— « إنسَ كلّ ما يتصل بي . لا تخبرها بشيء . »

— « لستُ اتحدث معها على الأطلاق . فيم ينبغي ان اتحدّث معها ؟ »

وسارا بقية الطريق في صمت . لقد غدت عينا الأحدب الزرقاوان اشد اتساعاً واكثر استدارة واعمق حزناً من ذي قبل . كان يحدق من فوق اكتاف الناس الى لا شيء ، وهو اشدّ صمتاً واقرب الى ان تخطئه الابصار مما كان في أيما وقتٍ مضى . ولكن

ناتاليا ادركت انه يشكو امراً فسألته :

« ما الذي يحزنك منذ زمن قريب ؟ »

فأجابها نيكيتا :

« كثرة العمل » – وولى مسرعاً . واستشعرت انها اوذيت فلم تكن هذه هي المرة الاولى التي تحس فيها بتغيّر في عاطفة ابن عمها الاحدب نحوها . وهل كانت الحياة التي عاشتها حتى اليوم غير حياة بليدة خاملة ؟ لقد وضعت خلال اربع سنوات ابنتين أخريين ، وها هي ذي الآن حاملٌ من جديد .

– « لماذا تستمرين في ولادة البنات؟ أيّ فائدة ترجى منهنّ؟»

كذلك هدر حَمُوها يوم وضعت ابنتها الثانية . ولم يقدّم اليها هديةً ما ، مبدياً تذمّرهُ لبيوتر بقوله :

« اريد حَفَدَةً ، لا اصهاراً . أنا لم أنشيء مصنعي من اجل الغرباء ! »

وأوقعت كل كلمة من كلماته شعوراً بالجريمة ، في نفس المرأة . واستشعرت ايضاً ان زوجها كان أبعد الناس عن الرضا . فكانت اذا تمدّدت الى جانبه ليلاً ، وعيناها مسمّرتان على النجوم النائية في ما وراء النافذة ، تربّت على بطنها وتصلّي في صمت :

– « ربّ هَبْ لي صبياً ! »

ولكن كانت ثمة أحيانٌ تحسّ فيها برغبة جامحة الى ان تصيح في وجه زوجها وحميها :

« لن اقلع عن ولادة البنات لغرضٍ في نفسي ، هو ان اغيظكما ليس غير . »

وكانت ترجو ان تقوم بعمل خارق للعادة ، بشيء يوقع الدهش في نفوسهم جميعاً — شيء رائع يجعلهم ارفق بها ، او شيء كريه يملأ قلوبهم رعباً . ولكن تفكيرها لم يهدها الى امر بعينه ، حسناً كان ذلك ام سيئاً .

وكانت اذا نهضت مع الضحى تهبط الى المطبخ لتساعد الطاهية في إعداد شاي الصباح . ثم تصعد السلم لتطعم بنتيها ، ثم تسكب الشاي لحميها وزوجها وابن عمها ، لتمضي بعدُ فتطعم بنتيها من جديد ، وتخيط الملابس للاسرة وترفوها . حتى اذا كان الاصيل خرجت ببنتيها الى الحديقة لتبقى هناك حتى يحين موعد شاي المساء . وكانت بعض العاملات الناضحات بالحيوية يُطلِلْنَ على الحديقة ويُطْرِين محاسن البنتين الصغيرتين فتبسم ناتاليا ولا تحتفل بأطرائهن . كانت لا ترى في ولديها جمالاً ما .

وكانت ترى بين الاشجار في بعض الأحيان ، ابن عمها نيكيتا ، وكان هو وحده الذي يتحدّث اليها في رفقٍ ولين . اما في هذه الايام فصار اذا سألته ان يجلس معها فترةً من زمان يجيبها في جَرْس الرجل الآثم :

« آسف . ليس عندي وقت . »

وتشكلت في ذهنها ، شيئاً بعد شيء ، فكرةٌ مريرة . لقد شعرت ان ذلك اللطف الذي تكشّف عنه الاحدب كان لطفاً كاذباً . لقد كان نيكيتا مجرد كلب من كلاب الحراسة أقامه زوجها للتجسس عليها وعلى ألكسي . وكانت هي تخشى ألكسي لما تُحِسّ من جاذبٍ يجذبها اليه . ولو قد رغب هذا الشاب الجميل

فيها اذن لما كان في مقدورها ـ وهي تعرف ذلك ـ ان تقاومه. ولكنه لم يتودّد اليها يوماً . كان نادراً ما يحسّ بوجودها . وكان ذلك يجرح كبرياءها ويثير في نفسها شعوراً بالعداء نحو ذلك الفتى الجريء النابض بالحياة .

كانوا يتناولون الشاي عند الساعة الخامسة ، ويجلسون للعشاء في الساعة الثامنة . ثم انها كانت تفرغ لتحميم بنتيهـــا واطعامهما وتنويمهما . حتى اذا تمّ لهـا ذلك طفقت تصلي صلاة طويلة ، وهي راكعة على ركبتيها ، لتتمدّد بعدُ الى جانب زوجها يلفّها الاملُ في ان تعلق منه بصبيّ . وكان زوجها يناديها من فراشه، في تذمّر ، وهي مستغرقة في صلاتها :

« حسبكِ هذا . تعالي . »

فتصلّب على نفسها ، في سرعة ، وتقطع صلاتها ، وتتمـــدّد طائعة الى جانبه . وكان بيوتر يمازحها في احيان قليلة نادرة فيقول :

« لماذا تصلّين هذه الصلوات كلها ؟ أنتِ لا تستطيعين أن تحصلي على كل ما تطلبينه على أية حال ، وإلا لم يَبقَ شيءٌ لسائر الناس ! » .

وكانت إذا أيقظها صراخ إحدى بنتيها ، في موهنٍ من الليل ، تنهض من فراشها فترضعها وتهدّيء من روعها ثم تمضي الى النافذة فتقف لديها ناظرةً الى الحديقة والى السماء ، مفكرةً في ذاتها ، وفي أمها ، وفي حميها ، وفي زوجها ـ في كل ما جلبته عليها الأيام القاسية التي مرت بسرعة بالغة . ولم تكن لتسمع في تلك الوقفات الاصوات المألوفة ، واغاني العاملات بهيجة حيناً ، حزينة حيناً ، ومختلف ضروب القرقعة والخشخشة المنبعثة عن المصنع والغارقة كلها في دوي

مُطنطنٍ كذلك الذي ينطلق من قفير نحلٍ هائل عظيم . فقد كانت ساعات النهار غاصة ابداً بهذا الضجيج المتلاحق الموصول ، وكانت اصداء ذلك الضجيج تطفو الى الغرف ، وتهمس في آذان الحديقة المورقة ، وتمسّ زجاج النوافذ مساً رفيقاً . ان جلبةالعمل تشوش الذهن وتحول دون التفكير .

اما فيهدأة الليل، حين تستسلم الكائنات الحية كلها الى الصمت أو النوم ، فكانت ناتاليا تستحضر في ذاكرتها تلك الحكايات المخيفة التي تعوّد نيكيتا ان يرويها عن النساء اللواتي وقعن في الأشراك التي نصبنها بانفسهن ،وعن حيوات النساك المتوحدين والشهداء الطاهرين . وكانت تستحضر في ذاكرتها ، احياناً ، حكايات تدور على الحياة المرحة السعيدة ، ولكن الافكار القاتمة كانت هي الغالبة على ذاكرتها في تلك المواقف .

وكان حموها ينظر اليها وكأنها غير موجودة أمامه . هذا في أحسن الاحوال . أما في بعض الاحيان ، حين كان يلتقيها وحدها في القاعة أو في احدى الغرف ، فكان ينظر اليها في غير ما خجل بعينيه الحادتين ، من أعلى الى أدنى ، من الصدر حتى الركبتين ؛ وكان يُتبع هذه النظرة عادةً بنخير ينطوي على كثير من التقزز والاشمئزاز .

كان زوجها كالح الوجه بارداً ، وكانت تشعر في بعض الاحيان، إذ يتطلع اليها بعينيه ، وكأنها معترضة سبيله ، وكأنها تصد بصره عن شيء مغاير قائم خلفها . وكان كثيراً ما ينزع ثيابه مساء ليجلس فترة غير يسيرة على حافة الفراش ، مغيباً إحدى يديه في حشية

الريش، شاداً أذنه بالاخرى، أو حاكاً وجنته بشعر لحيته ، وكأنما تؤلمه أسنانه. كان وجهه القبيح يتغضن في تقطيب نكد أو غاضب، فلا تجرؤ ناتاليا على الاقتراب من الفراش . وكان لا يتحدث الا قليلاً ، وفي مسائل منزلية خالصة ، مستعرضاً في احوال نادرة جداً ذكرياته عن حياة الريف والفلاحين ، تلك الذكريات التي ما كانت ناتاليا لتدرك منها شيئاً . وخلال أعياد الشتاء ، في الميلاد وأيام الاعتراف السابقة للصوم الكبير ، كان يخرج بها للنزهة في أرجاء البلدة . كان يجر العربة حصان أسود ضخم . وكان هذا الحصان ذا عينين صفراوين نحاسيتين محتقنتين بالدم ، وكان يحرك رأسه في حدة مغضَبة ، ناخراً نخيراً عالياً . وكانت ناتاليا تخشى هذا الحيوان، وقد تعاظم خوفها عندما صرح تيخون قائلاً :

« لقد جُعِل هذا الحصان لأصحاب الدم الازرق . فهو لا يسلس قيادَهُ للعوام . »

وكانت امها تزورها بين الفينة والفينة . والواقع ان ناتاليا كانت تحسدها على ما تتمتع به من حرية ، وعلى ذلك البريق المستبشر الذي يومض في عينيها . وانما غدا هذا الحسد أشدّ سَوْرةً واكثر مضاضةً عندما رأت ناتاليا الى ما تمور به مداعبات آرتامونوف لأمها من روح الشباب، وكيف كان يربّت على لحيته في ابتهاج غامر ، مطرياً محاسن خليلته المنتصبة امامه في زهو ، محرّكةً شفتيها ، مُباهيةً بجمالها في غير ما حياء . وكانت البلدة قد تسامعت منذ عهد بعيد بالودّ الذي يعمر قلب بابا كوفانحو نسيبها، وسلقوها بألسنة حِداد . لقد تحاماها الناس كلهم واجتنبوها .

كذلك خسرت ناتاليا صديقاتها القديمات ، بنات ابرز الأسَر في البلدة . لقد حُظّر عليهن أن يزرنها – فهي ابنة امرأةٍ غارقة في الخطيئة ، وكنّة فلاح غريب كالح الوجه ، وزوجة رجلٍ نكد الخُلق منتفخ زهواً وغروراً . لقد اخذت المباهج الصغرى التي يحفل بها عهد الصبا تبدو الآن حيوية الى حد بعيد ، في عيني ناتاليا.

كان من المؤلم ان ترى امها ، التي كانت عنوان الصدق والاخلاص في الماضي ؛ تنحدر الآن الى دَرْك المكر والمواربة . واستشعرت ناتاليا ان الارملة كانت تخشى بيوتر ، وانها كانت تحاول ان تستر خوفها بعبارات الاطراء ، وبأظهار الاعجاب ببراعته وفعاليته. وليس من ريب في انها كانت تخشى عيني ألكسي الساخرتين ، ايضاً ، ذلك لانها كانت تطارحه النكات الرديئة وتسرّ اليه الحديثَ وتُغدِق عليه الهدايا . والواقع انها قدّمت اليه في عيد القديس الذي يحمل اسمه ساعةً من خزف صيني مزدانة بغنم ترعى العشب وبامرأة على رأسها اكليل من الأزهار – شيء جميل ابدعته يد الفن . وقد أعجب بها كل من رآها .

–« لقد وضعها بعضهم عندي مقابل دَيْنٍ لي عليه. » كذلك اوضحت الأرملة قصة هذه الساعة . « ثلاثة روبلات ليس غير . انها لا تدور ، فهي قديمة جداً . وعندما يتزوج آليوشا سيكون لديه ما يزين به بيته . »

وقالت ناتاليا في ذات نفسها :

« أنا لا يهمني أن أزين بيتي ! »

وكانت الأم تسأل ابنتها عن بعض الشؤون المنزلية وتوجهها

في شيء من الضجر :
« لا تضعي المناديل على المائدة ايام الاسبوع العادية . انهـا خليقة بأن تتسخ في سرعة بسببٍ من لحى الرجال وشواربهم . »
ومع انها احبت نيكيتا باديء الأمر فقد اصبحت الآن تقلب شفتيها حين تراه ، وتتحدث اليه كما يتحدث النـاس الى موظف يشكّون في امانته . وحذّرت ابنتها بقولها :
« حاولي أن لا تتوثق أواصر الود بينك وبينه . ان اصحاب الحدَبات لماكرون . »
وخطر لناتاليا ، غير مرة ، أن تشكو الى أمها قلة ثقة زوجّها بها وتكليفه الأحدبَ مراقبتها ، ولكنّ شيئاً كان يصدّها عن ذلك دائماً .
وفي بعض الأحيان كانت الأرملة تسأل ابنتها ـ وقد اقلقها إخفاقها في إنجاب الذكور ـ عن تصرّفاتها الليلية مع زوجها ، مستجوبةً إياها في غير ما حياء ومن غيرما تستر ، وقد استداوت عيناها النديتان وابتسمتا ، واستحال صوتها الى مثل مواء القطة المخملي . وكان هذا الفضول يؤذي ناتاليا أذىً كبيراً تكاد تعجز عن احتماله ، فهي تجد راحةً بالغة حين تسمع صوت حميها ينادي :
« هل ترغبين في العودة الى البيت على متن عربة ، ايتها النسيبة ؟ »
ـ « اوثر أن أمشي على قدميّ . »
ـ « حسناً ، إذن اشيعك حتى المنزل . »
وهنا قال زوج ناتاليا مفكّراً :
« ان امك امرأةٌ بارعة . إنها تعرف كيف تسيطر عـــلى

والدي سيطرةً تامة . انه يخفف من قسوته علينا كلما زارتنـا . من اجل ذلك أرى ان تبيع بيتها وتنتقل الى هنا .»

– « انا لا أرحب بذلك » بهذا كانت ناتاليا تريد ان تجيب عن ملاحظة زوجها . ولكنها لم تجرؤ . وحسدت امّها لكونها سعيدةً ومحبوبةً بأشدّ مرارةً مما حسدتها في ايما وقت مضى .

وكانت اذا جلست قرب احدى النوافذ المطـلّة على الحديقة ، او في ظل بعض الاشجار ، حاملة بيديها شيئاً تخيطه ، يطرق سمعها مقاطـع من كلام يدور خلف شجرات العُلّيق والتوت ، حيث كان تيخون ونيكيتا منصرفين الى عملهما قرب الحمام . ومن خلال دندنة المصنع كان صوت حافر الخنادق ينبعث هادئاً :

« ان الحزن وانكسار القلب انما ينشآن عن تكاثر الناس . ان بعضهم يُومض قلب الآخر ، فاذا بهم جميعـاً – يا لهم من دمىً ! – غارقون في بحرٍ من الغم والاكتئاب . »

وقالت ناتاليا في ذات نفسها : « ما أصح هذا الكلام ! »

ولكن صوت نيكيتا العذب اعترض :

« أنت تهذي . وإلا فما قولك في ضروب اللعب والرقص ؟ لا متعة ولا لهو حيث لا ناس . »

وفكرت المرأة في دَهَش :

« هذا صحيح أيضاً . »

كان كل من تعرف من الناس يتحدثون في ثقة واطمئنان الى صحة ما يقولون ، كل على طريقته الخاصة . وكان في ميسورها ان تتمثل ذلك في وضوح : كلمات بسيطة جامدة أُلف ما بينها أحسنَ

تأليف وأدقه ، تصون لكل من المتكلمين نصيبه من حقيقة راسخة موثوق بها . وانما يتمايز الناس بكلماتهم . إنهم يتخذون من الكلمات حلية لأنفسهم فهم يعبثون بها لترنّ كما يعبثون بسلاسل الساعة الذهبية والفضية . أما ناتاليا فلم تكن تملك مثل هـذه الكلمات . لم يكن عندها ما تزّين به أفكارها . واذ كانت أفكارها هذه مبهمة كضباب الخريف فقد أنقضت ظهرها وعطّلت مواهبها ، فهي كثيراً ما تخاطب نفسها ، في خيبة ويأس :

« انا بلهاء ، لست أعرف شيئاً ، ولست أفهم شيئاً . »

وتمتم تيخون بين شجرات العّليق :

« خذ الدب مثلاً . انه يعرف أين يوجد العسل . وهـذا هو السبب الذي من أجله دُعي باسمه ذاك* . »

وقالت ناتاليا في ذات نفسها :

« هكذا هو . »

وارتعدت أوصالها وذكرت كيف قتل ألكسي دبها الحبيب . كان حتى بلوغه من العمر ثلاثة عشر شهراً يلعب في فناء الدار أليفاً ودوداً كالكلب . كان يقصـد الى المطبخ ، وينتصب على قدميه الخلفيتين ويهر هريراً رفيقـاً غامزاً بعينيـه الصغيرتين الظريفتين ، ملتمساً شيئاً من الخبز . كان في الحق حيواناً مضحكا ، ولكنه صادق الودّ عارف للجميل . وكان أفراد الاسرة جميعاً مولعين به .

---

* هنا تلاعب لفظي يمتنع على الترجمة . ان تيخون يفسر كلمة **medved** الروسية (ومعناها الدب) وكأنها مؤلفة من جذرين : هما **myod** (العسل) و**vedat** (عرف) . [المعرب]

فأما نيكيتا فكان يسرح شعره الكثّ الغليظ ويقتاده الى النهر ليبترد فيه . وقد بلغ من تعلُق الدب الصغير بنيكيتا أنه كان ، في حالة غياب الأحدب عن البيت ، يتنشق الهواء في قلق ، رافعاً خَطْمه ، ويندفع ناخراً بأنفه الى شباك مكتبه . والحق انه كسر زجاج النافذة ، غير مرة ، بل كسر إطار هـذا الزجاج الخشبي . وكانت ناتاليا تحب ان تطعمه الخبز الابيض والدبس . وما هي الا فترة حتى تعلّم كيف يغمس قطعة الخبز في وعاء الدبس بنفسه . وفي تخيرٍ مرحٍ ، كان يقيم توازنه على رجليه الخلفيتين الكثّتين ويقحم قطعة الخبز ، والدبس يقطر منها ، في فمه القرنفلي الحـــاد الاسنان ، لاحساً ، بعدُ ، ما سقط من الدبس على قدمه الدبقة . حتى اذا شبع ،فرك رأسه على ركبتي ناتاليا، وشعاع السعادة يلتمع في عينيه الصغيرتين الأنيستين ، داعياً اياهـا الى اللعب . كأن في ميسور المرء ان يتحدث الى هذا الحيوان الغالي—لقد بداو كانه يفهم.

بيد ان ألكسي سـقاه ، ذات يوم ، مقداراً من الفودكا . فما كان من الدب الثمل إلا أن أخذ يفتل ويثب . لقد صعد الى سطح الحمّام وحطّم مدخنته شرّ تحطيم ُملقياً بالآجر الى الارض . عندئذ احتشد جمعٌ من العمال وراحوا يضحكون لعبث الحيوان ضحكاً عالياً . ومنذ ذلك الحين دأب ألكسي على ان يقدّم الى الدب الصغير ، في أيام العطلة ، شراباً مسكراً ، ابتغاءَ إضحاك الناس وتسليتهم . وما هي الا فترة حتى ادمن الحيوان الشراب فهو يطارد أيما عامل تفوح منه رائحة الفودكا ، وهو يعكّر ابـداً صفو ألكسي مندفعاً اليه كلما رآه يجوز الفِناء . واخيراً قيدوه

بالحديد ، ولكنه حطّم اغلاله وأنشأ يطوف في ساحة الدار هازّاً
رأسه ، ساحباً قطعة الخشب الضخمة التي شُدّ وثاقهُ اليهـــا .
وبُذلت محاولة لألقاء القبض عليه ، فخدش رجلَ تيخون ، وصرعَ
عاملاً يافعاً يدعى موروزوف ، وسَدّد رفسةً ثقيلةً الى فخذ
نيكيتا ، عندئذ تقدّم اليه ألكسي وفي يده حربة ، وطعنه بها في
بطنه . وكانت ناتاليا تشهد المعركة من نافذتها فرأت الدب يسقط
على وَرِكَيه ملوّحاً بكفّيه الأماميتين وكأنه يلتمس المغفرة
من الناس الذين كانوا يصيحون من حوله صياحاً محموماً . وقدّم
بعضهم الى ألكسي فأساً حادة فتناولها منه ووثب الى فوق فضرب
احدى قائمتيه أولاً ، ثم ضرب الأخرى بعد ذلك . وأطلق الدب
هديراً مدوياً وسقط على قائمتيه الجريحتين . وتدفق منه الدم ذات
اليمين وذات الشمال حتى لقد شكّل بُقَعاً حمراء قانئة على الأرض
الصلبة . ثم انه تضاغى تضاغياً موجعاً وحطّ رأسه على الثرى وكأنما
يدعو خصمه الى ان يسدّد اليه ضربة جديدة . وهنا وقف ألكسي
وقفةً راسخةً ، مباعداً ما بين رجليه ، وأهوى بالفأس على أمّ
رأس الدّب ، وكأنها قطعة ضخمة من الخشب . وسقط خَطْمُ
الحيوان في بركةٍ من دمهِ هو . وذهبت الفأس بعيداً في العظام
حتى لقد تعيّن على ألكسي أن يُفرغ قوّته بكاملها ، واطئـــاً
بقدمه الجثةَ الكثيفة الشعر ، قبل ان يُوفّق الى انتزاعها . كانت
نهايةً مؤلمةً حقاً . ولكنْ كان شرّاً منها وأشدّ مضاضةً عـلى
النفس ان يطوّف هذا الفتى المرح الجريء المولع بالأذى في فِناء
الدار مع فتاةٍ وقحةٍ لا تصلح لشيء ، وأن لا يلتفت اليها هي ،

ناتاليا ، التفاتة واحدة .

وأطرى القوم كلهم شجاعةَ ألكسي وبراعته . وصاح الأب مربّتاً على كتف ابنه :

« وتزعم انك مريض ! أيها المخادع المتمارض ! »

وفرّ نيكيتا من الساحة ، ونشجت ناتاليا نشيجاً جعل زوجها يسألها في دهشٍ غاضب :

« لنفرضْ ان رجلاً قُتل على مرأى منك ؟ فما الذي تفعلينه عندئذ ؟ »

وصرخ في وجهها وكأنها طفلة :

« إخرسي ، ايتها البلهاء ! »

وحسبت أنه يريد أن يضربها . واذ حاولت ان تمسك عن البكاء ذكرت أولى لياليها معه ، ومقدار ما تحلّى به آنذاك من لطف وحياء ، وذكرت أنه لم يضربها منذ ذلك الحين قطّ ، كما يضرب جميع الازواج زوجاتهم . فخنقت تنهداتها وقالت :

« أنا آسفة . لقد كنت جدّ مولعة بالدب . »

فأجابها بيوتر في نبرةٍ ودية :

« كان ينبغي ان تولعي بي أنا ، لا بالدّب . »

وهنا ذكرت كيف انها حين شكت الى أمها ، اولَ مرة ، تجهُّمَ وجه زوجها ، قالت لها اوليانا :

« الرجال نحل . ونحن ازهارها . إنهم يفدون الينا التماساً للعسل . ذلك ما ينبغي أن تفهميه ، يا عزيزتي ، وان تأخذي نفسَك باحتماله . الرجال هم السادة المتحكمون في كل شيء . إن

لهم هموماً وشواغل تفوق همومنا وشواغلنا . انهم يشيّدون كنائس ومصانع . انظري أيّ معمل أنشأه حموكِ حيث لم يكن شيء من قبل . »

وفي ضراوةٍ ما عرف لها ايليا آرتامونوف ضريباً ، راح هذا الرجل الجبار يطوّر صناعته ويمكّن لها في الارض. لكأنما هاجسٌ مشؤوم كان يهمس في اذنه انّ منيّته أزفت وشيكة . وفي نوار قبيل عيد القديس نيقولا ، علمَ ايليا ان المرجل البخاريّ الذي أُعِدّ لبناية المصنع الثانية قد وصل . ورسا المركب الذي كان يقلّ هذا المرجل عند ضفة الـ « أوكا » الرملية ، عند تلك النقطة التي يتمّ فيها التقاؤه بمياه « الفاتارا كشا » المستنقعية الخضراء. بقيت مهمةٌ غير يسيرة : أن يُسحب المرجل نحواً من ثلاثمئة وخمسين باردةً فوق الارض الرملية . وفي عيد القديس نيقولا أقام آرتامونوف لعماله مأدبة فخمة حفلت بمقادير كبيرة من الفودكا والجعة. ومدّت الموائد في فناء الدار ، وزيّن النساء كل شيء في الخارج بأغصان الصنوبر والسندر ، وبطاقات من ازاهير الربيع الأولى ، في حين اتخذنَ زينتهن فبدت كلٌّ منهنّ كأيّ زهرةٍ من الزهرات نضرةً وبهاءً . وجلس رب العمل مع أسرته ونفر قليل من الضيوف ، وسط مجموعة من العمال المتقدّمين في السنّ ، وانشأ يمازح في جراءةٍ بعض العاملات الحادّات اللّسان ، مُسرفاً في الشراب ، محرّضاً مدعويه على الاخذ بأسباب البهجة والمرح . ثم إنه أمرّ يده على لحيته ، وكان الشيب قد ألمّ بها ، وصاح في صخب :

« إيه أيها الاصدقاء ! ولكنّ الحياة جميلة ! »

كان ايليا موضع الاعجاب ، وكان يستشعر ذلك . وزاده ابتهاجه بأن يكون هو مَنْ هو سُكراً على سكر . كان يتوهج ويتألق مثل ذلك النهار المشمس من أيام الربيع ، ومثل الارض كلها ، الأرض الزاهية بخضرة العشب والورق النضرة ، العابقة بأنفاس شجيرات السندر والصنوبر التي ترفع أكوازها الذهبية الى السماء الشاحبة الزرقاء . لقد جاء الربيع مبكّراً ، تلك السنة ، وجاء حارّاً . كان البنفسج قد أزهر منذ قريب . وكان الكون كله يحتفل ويبتهج . وحتى في قلوب الرجال بدا كل ما هو خيّر وفاضل وكأنه يمور بالنضرة والجمال .

ونهض عامل عتيق يدعى بوريس موروزوف . إنه رجل قصير متهدّم ، أبيض نظيفٌ كجثة غُسِلت منذ لحظات ، تغطّي وجهه الشمعي الهزيل وتبعث فيه الدفء ، لحيةٌ شائبة استحالت خضراء بتراخي الأيام . واستند العجوز الى كتف نجله البكر ، وهو رجل في نحو الستين من عمره ، وصاح في حماسة ، ملوّحاً بيدٍ عظمية ليس يكسوها من اللحم شيء :

« انظروا . لقد بلغت التسعين من عمري ، بلغت التسعين وزيادة ، أليس ذلك مدهشاً ؟ لقد كنت جندياً — حاربت بوغاتشوف ، ورفعت راية العصيان بنفسي ايضاً ، في حرب الطاعون بموسكو ! لقد حاربت نابوليون ... »

وهنا صاح آرتامونوف في أذن العامل العجوز ، وكان أصمّ :

« ومن عانقتَ ؟ »

— « زوجتين ، فضلاً عن عدد من النساء غير داخل في الحساب .

انظروا : سبعة بنين ، وبنتان ، وتسعة عشر حفيــداً ، وخمسة أولاد حفَدة - كلهم من صُنعي : وها هم أمام أعينكم - انهم يحيون جميعاً معكم . انهم هناك يجلسون ! »

وصاح ايليا :

« أعطِنا عدداً آخر منهم ! »

- « سوف يكون لكم ذلك ! لقد عاصرت ثلاثة قياصرة وقيصرةً واحدةً أيضاً ، ماتوا جميعاً وبقيت أنا من بعدهم . ألا يدهشكم ذلك ؟ ان جميع الاسياد الذين خدمتهم قضوا نحبهم وأنا لا أزال حياً أرزق، لقد صنعتُ أميالاً من القماش. ولكنك انت القماش الأصيل، يا ايليا فازيليفتش. أنت الوحيد الذي سوف يبقى. انك لسيدٌ حقيقيٌ . فأنت تحبّ عملك ، وعملك يحبك . وليس فيك ايما صفة وضيعة . انت فرعٌ من دوحتنا ، فليحالفك الحظ السعيـــد ! ان النجاح هو بالنسبة اليك زوجة شرعية لا خليلة تحاسنك فترة ثم تنبذك ! فامضِ اليها ! نخبك ايها الرجل ! اقول نخبك ... »

ورفع آرتامونوف الرجلَ العجوزَ بين ذراعيه وقبّله صائحاً في انفعال :

« شكراً ايها الغلام ! سوف أجعلك مدبّراً لشؤوني ! »

ووسط الصيحات والضحكات العالية هزّ الحـــائك العجوز السكران قبضتيه العظميتين من فوق احدى الموائد وصاح ضاحكاً :

« انه يسير على هواه في كل شيء ! »

وكفكفت اوليانا بايما كوفا دموع الفرح المتحدرة على خديها ،

في غير ما تستّر .

وقالت ابنتها :

« ما اشد سعادته ! »

وتمخطت بابيا كوفا قبل أن تستطيع إجابتها :

« تلك هي طبيعته . لقد خلقه الله للسعادة . »

وصاح آرتامونوف موجهاً الخطاب لاولاده :

« ههنا امثولة لكم ايها الفتيان . تعلّموا كيف تتصرفون مع الناس . افتح عينيك جيداً يا بيتروخا ! »

وحين رُفعت الموائد شرعت النساء في الغناء ، في حين جرّب الرجال قوتهم من طريق المصارعةوما اليها . وكان آرتامونوف في كل مكان ، يتبارى في الرقص والمصارعة معأبرع القوم وأقواهم . وهكذا ظلوا في لهو وطرب حتى الفجر . ومع أشعة الشمس الأولى انطلقت عصبة مؤلفةمن سبعين عاملا ،وسيدهم على رأسهم،انطلاقاً صاخباً الى ضفة النهر وكأنهم قاطعو طريق يتخذون سبيلهم الى الغزو ، فهم يصيحون صيحاتٍ سكرى ويغنون اغنياتٍ مخمورة . وكانوا يحملون على اكتافهم مُدَحرِجاتٍ غليظة ، وعَتَلاتٍ من خشب البلوط ، ولفّاتٍ ثقيلة من الحبال وعرج العامل العجوز القصير خلفهم على الارض الرملية هامساً في اذن نيكيتا :

« سوف يمضي لسبيله ! هو ؟ لست أدري ! »

ومن غير ان يقع حادث ما نقلوا المرجل من المركب الى ضفة النهر —نقلوا ذلك الغول الأحمر الأبله ، الذي بدا وكأنهثورٌ لا رأس له . لقد ألقوا حبالهم حوله ، ونخروا جميعاً في جهد

موحّد ، فأقاموه على الواح خشبية وراحوا يجرونه بواسطة المدحرجات عبر الرمل . وترنح المرجل في سيره ، وبدا لعين نيكيتا وكأنه يفغر فاه المستدير الأبله دَهِشاً لقوة هؤلاء القوم المرحة . وسحب آرتامونوف ،مخموراً ،مع الساحبين، صائحاً في توتر:

« على رسلك ، هناك ، على رسلك ! »

وصفع جانبَ الغول الحديدي الأحمر محرّضاً إياه على السير :

« تقدّم أيها المرجل ، تقدّم ! »

وكانوا على بعد مئة ياردة من المصنع ليس غير عندما تمايل المرجل كما لم يتمايل من قبل وسقط في اناة عن المدحرجة الامامية، وغرز فمه الأبله في الرمل . ورأى نيكيتا الى فم المرجل ينفخ غباراً رمادياً فوق رجلي ابيه . وتجمهر الرجال مُغْضَبين حول الجثة الثقيلة محاولين دفع المدحرجة تحتها . ولكن الاعياء اخذ منهم مأخذه ، وتشبث المرجل بالرمل تشبثاً عنيداً ، غارزاً في ما يبدو أعمقَ فأعمق برغم محاولاتهم كلها . وبذل آرتامونوف أقصى ما يستطيع من جهد ، وصاح وفي يده إحدى العتَلات :

« ارفعوا جميعاً ! ارفعوا جميعاً ــ الآن ! »

وتحرّك المرجل على كره ثم غاص في الرمل من جديد . وشاهد نيكيتا أباه ينطلق من بين العمّال المحتشدين، في مشيةٍ غريبة غير مألوفة وانطباعة غريبة غير مألوفة . كانت إحدى يديه مقحمةً تحت لحيته تشدّ على حنجرته ، في حين ارتفعت الاخرى في الهواء تتلمّسه كما يتلمس الأعمى سبيله . وظلع العامل العجوز خلفه صائحاً :

« كلٌ بعض القذر ، بعض القذر ! »

وهُرع نيكيتا الى أبيه . وحوزق آرتامونوف وبصق . وسقطت فقّاعةمن الدم على قدمي نيكيتا . وقال الأب في برودة:

« دم . »

كان وجهه رمادياً . وكانت عيناه تطرفان خوفاً . وصرّت أسنانه ، وبدا جسمه الضخم القوي كلهوكأنه ينكمش ويتقلّص .

وسأله نيكيتا ممسكاً بذراعه :

« هل أصابَك أذىً ؟ »

فتمايل الأب عليه وأجاب في صوت خفيض :

« أحسب أن وريداً قد انفجر . »

— « كل شيئاً من القذر ، أقول لك . »

— «دعني وشأني . اذهب من هنا ! »

وبصق آرتامونوف دماً ، كرةً أخرى ، ولكن في غزارة هذه المرة . وغمم مرتبكاً :

« لا يزال يجري . أين أوليانا ؟ »

وحاول الأحدب أن يعدو الى البيت ، ولكن أباه أمسك بكتفه . ووقف آرتامونوف ناكسَ الرأس ،ناقلاً قدميه على الرمل في تثاقل ، وكأنما يريد ان يسمع ما يُحدثان من صوت هو أشبه ما يكون بصوت المَضغ — صوتٍ لا يكاد يُسمع في غمرة من صيحات العمّال المُغضَبة .

وتساءل :

« ما القصة ؟ »

وراح يسير في اتجاه البيت بخطىً حذرةٍ تشبه خطى امريء

يعبر نهراً عميقاً على لوحٍ خشبيّ ضيّق . كانت بابا كوفا في الرواق تودّع ابنتها . ولم تكد عينها تقع على آرتامونوف – كما لاحظ نيكيتا – حتى شحب وجهها الجميل ، والتوى على نحوٍ غريب ، وكأنه دولاب ، الى اليمين أولاً ثم الى اليسار .

« ثلج ، عجّل ! » كذلك صاحت حين سقط آرتامونوف على درجات الرواق يُحَوْزق وينفث الدم في فترات كانت تتقارب في اطّراد . وسمعَ الأحدب ، وكأنه في حلم ، حافرَ الخنادق يتمتم :

« الثلج ماء . إنك لا تستطيع ان تصنع الدم من الماء . »

– « ينبغي أن يضع بعض القذر .... »

– « تيخون ، أدعُ القسّ . »

وأصدر ألكسي أمره :

« ارفعوه واحملوه الى الداخل ! »

وأمسك نيكيتا بأبيه من مرفقه . ولكن شخصاً ما وطىء على أصابعه وطأً ثقيلاً جعل كل شيء مظلماً في عينيه لحظةً من زمان . وبعد ذلك أخذت عيناه تريان بأحدّ مما كانتا تفعلان من قبل ، طابعتين في ذهنه ، بلهفة مَرَضية ، كل ما كان يفعله الناس في غرفة أبيه المزدحمة وفي الفناء . كان تيخون يجوس خلال الفناء ممتطياً متن جواد ضخم أسود لم يكن له قِبَلٌ بتهدئته . وكان الجواد قد حرنَ فجأة عند الباب الخارجي ، فهو يُدبر ويدور نافضاً رأسه في غضب . واجتمع الناس حوله . وكان واضحاً أن الحريق الذي أشعلته ، في السماء ، الشمس المشرقة قد أوقع الرعب في قلب الجواد . واخيراً اندفع الجواد الى الخارج وأنشأ يعدو . حتى إذا رأى الى

المرجل الاحمر الضخم ، أجفل وطرح تيخون أرضاً وانقلب راجعاً الى الفناء ، ناخراً وملوّحاً بذيله .

وصاح بعضهم :

« ايها الشباب ! اركضوا ركضاً ! »

وعلى قاعدة النافذة جلس ألكسي لاوياً لحيته القاتمة المحدّدة .
وكان وجهه الأشأم غير الريفيّ مستدقاً رمادياً كأنما تعلوه طبقة من غبار . ومن غير ان تطرف عيناه حدّق عبر الغرفة ، فوق رؤوس الناس ، الى الفراش الذي كان والده ممدّداً عليه يتمتم في صوت متفاوت تفاوتاً غريباً :

« واذن فقد كنتُ مخطئاً . إنها ارادة الله . ايها الاولاد ، إني أترك فيكم اوليانا فاتخذوها أماً لكم هل تسمعون ؟ وانت يا أوليا ، كوني لهم عوناً ، باسم المسيح . آه ، أخرجوا الغرباء من هنا . »

— « اطمئنّ بالاً ،فليس ههنا غريب » قالت بابما كوفا ذلك في جرس متأوّه أليم ، وهي تلقي في فمه قطعاً صغيرةً من الثلج .

وبلع آرتامونوف الثلج وواصل كلامه ، في تنهّد متردّد :

« اذا كنتُ قد أثمت فليس لكم ايها الاولاد ، أن تدينوني . إنها غير مسؤولة عن ذلك وينبغي ان لا تكون موضع اللوم . ناتاليا ، لقد كنت قاسياً عليك ، فلا تبتئسي ولا تحزني . أنجبي غلماناً ! بيوتر ، آليوشا ، لا تتنازعا . أحسنا معاملة العمّال . إنهم قوم طيبون ، إنهم النخبة المختارة آليوشا ، تزوّج من تلك الفتاة التي تحبها . هذا حسن ! »

وركع بيوتر وتضرّع الى والده :

« أبي ، لا تتركنا ! »

ولكن ألكسي وكزَهُ وهمس :

« رويدك ! أنا لا أعتقد .. »

كانت ناتاليا تكسر الثلج في وعاء نحاسي ، بواسطة سكين من سكاكين المطبخ . وكان الثلج يُقرقـــع وسط الأناء ، فتختلط قرقعته هذه بنشيج المرأة وتنهداتها المتقطّعة . ورأى نيكيتا الى دموعها تتساقط فوق الثلج . . وتسرّبت الى الغرفـــة خيوط صفراء من أشعة الشمس ، وإذ انعكست على المرآة ، كوّنت رقعة مرتعشة لا شكل لها على الجدار ، محاولةً أن تمحو صُوَر الرجال الصينيين ذوي الشوارب الطويلة والملابس الحمراء المرسومة على ورق الجدار الازرق ، القاتم كالسماء في ظلمة الليل .

ووقف نيكيتا عند قدمي آرتامونوف ، ينتظر من أبيه أن يذكره . كانت بابا كوفا تسرّح شعر ايليا الكثيف الجعد متمهلةً بين الفينة والفينة لتمسح بأحدى الفُوَط الدمَ الذي كان يقطر في غير ما انقطاع من زاوية فمه ، وحبات العرق المتفصّدة على جبينه وصدغيهْ . وهمست بكلامٍ ما ، ناظرةً الى عينيه الذاويتـــين — همست في انقاد ، وكأنها تصلي . ووضع ايليا إحدى يديه على كتفها ، والاخرى على ركبتها ، وغمغم معلناً وصيته الأخيرة :

« أنا أدري . ليخلّصكم المسيح . ادفنوني في مقبرتنـا ، لا في البلدة . أنا لا اريد ان ارقد هناك . في استطاعتهم جميعاً ... »

ثم إنه عادَ فهمسَ في ضَنْكٍ غامر :

« إيه ، ولكني كنت مخطئاً . يا إلهي .. كنت مخطئاً . »

ووصل القسّ ، وهو رجـــل فارع الطول ، ذو منكبين ملتويين الى أدنى ، ولحية تشبه لحية المسيح، وعينين كئيبتين.

وقال آرتامونوف :

« تمهّل أيها الأب ! »

والتفت كرّةً ثانيةً الى أولاده وقال :

« أبقوا معاً ، انتم الثلاثة – لا تقسموا الثروة ! لا تتنازعوا . إن العداوة لن تعود عليكم بغير الخراب . بيوتر ، أنت أرشدهم . يجب ان تكون مسؤولاً عن كل شيء – هل تسمع ؟ والآن اذهبوا .. »

وذكّرته بايما كوفا قائلةً :

« نيكيتا . »

فهمس :

« أحبّوا نيكيتا . أين هو ؟ اذهبوا .. بعد ذلك .. ناتاليا ، أيضـاً . »

وقضى نحبه بسببٍ من نَزْف الدم ، بعد الظهر بقليل والشمس ترسل أشعتها سخيةً من نقطة سمت الرأس . وسجّي في فراشـه مرفوع الرأس ، شمعيّ الوجه مقطّباً حافلًا بالهمّ ، وقـــد بدت عيناه نصف المفتوحتين وكأنهما تحدّقان في اهتمام الى يديه العريضتين المطويتين في استسلام على صدره .

واستشعر نيكيتا ان افراد الأسرة كانوا دَهِشين لوفاته اكثر منهم جزِعين أو متفجعين . وكان في ميسوره أن يلحظ هـــذا

الدَهَشَ البليد عليهم جميعاً خلا بابا كوفا التي جلست صامتةً جافة العين قرب جثمان الميت . كانت صورة متجمدة صماء فهي لا تسمع شيئاً مما حولها ، وكانت يداها مسترخيتين على ركبتيها . أما عيناها فكانتا مركّزتين تركيزاً ثابتاً على الوجه الحجري البارد الذي يعلو اللحية الثلجية البيضاء .

وزوى بيوتر ما بين حاجبيه وتيبّس في مكانه ، وراح يتحدث اكثر مما ينبغي وبصوت أعلى مما ينبغي ، عندما دخل الغرفة التي سُجّي فيها جثمان أبيه ، حيث كان نيكيتا وراهبة" بدينة" يتناوبان على ترتيل بعض الابتهالات من سفر المزامير . وتطلّع بيوتر في تساؤل الى وجه ابيه ، ورسم على صدره إشارة الصليب . وبعد أن وقف دقيقتين أو ثلاثاً الى جانب الفراش غادر الغرفة على رؤوس أصابعه ، قاصداً الى فناء الدار وراح يُطوّف بين اشجار الحديقة وكأنه يبحث عن شيء .

أما ألكسي فكان في حمّى من النشاط متخذاً جميع الترتيبات الضرورية للجنازة . كان يطير بعربته الى البلدة ويعود منها ، ثم يهرع الى غرفة أبيه ليسأل اوليانا عن العادات المتبعة عندهم في امر الدفن والاحتفالات التذكارية .

فتجيبه بقولها :

« إنتظر ! »

ويتوارى ألكسي متحرّقاً متعباً . وعندئذ تدخل ناتاليا في إشفاقٍ خجولٍ وتتضرع الى أمها أن تتناول شيئاً من الطعام أو كوباً من الشاي . فتصيخ اليها الأم ثم تجيب :

« إنتظري ! »

ولم يعرف نيكيتا قطّ ، يوم كان آرتامونوف على قيد الحياة، ما إذا كان يحب أباه أم لا . كان يستشعر الخوف ، ليس غير ، من أبيه . وكان يستشعر الى جانب هذا الخوف ، ومن غير ما تأثّر به ، إعجاباً بذلك النشاط العارم يُبْدِيه هذا الرجل الذي لم يتكشف يوماً عن حبّ له ، والذي كان لا يُعْنى بأمر الأحدب أيما عناية فهو لا يكاد يعرف أحيّ هو أم ميت . أما الآن فقد بدا لنيكيتا أنه هو ، وهو وحده ، كان يحبّ أباه حباً أصيلاً عميقاً . لقد غمرته موجةٌ من الكآبة الموحشة ، وإحساسٌ بأذىً بالغٍ حدّ القسوة قد أصابه لدن وفاة هذا الرجل القويّ المفاجئة . وضاق صدره حتى لتعذّر عليه أن يتنفس في يُسْر . كان جالساً على صندوق في الزاوية ينتظر دوره في ترتيل المزامير . ومرت الكلمات المألوفة عبرَ دماغه مرّاً بليداً ، فيما كانت عيناه تحدقان في ظلام الغرفة الدافيء الى تلك الزهرات الحية المترنحة الصفراء — الى الشموع . وتعلق الصينيون ذوو الشوارب الطويلة بالجدران ، كما يتعلّق البهلوان ، موازنين صناديق من الشاي تدلّتْ من أنيارٍ رُكّزت فوق أكتافهم . كان ثمة ثمانية عشر صينياً ، في كل صف اثنان ، على كل قطعة من ورق الجدار . وكان هؤلاء الرجال يصعّدون في بعض الصفوف ، في اتجاه السقف ، على حين كانوا يهبطون في بعضها الآخر نحو ارض الغرفة وسقطت رقعة زيتية من ضوء القمر على الجدار ، وهنا مشى الرجال الصينيون صعوداً ونزولاً في خفّةٍ اكثر ونشاط اعظم .

وفجأةً سمع نيكيتا ، من خلال فيض المزامير الرتيب ، سؤالاً

خافتاً صادراً من حبّة القلب :

« أهو – حقاً – ميت ؟ يا إلهي ؟ »

كانت هي أوليانا ، وكان صوتها يمور بـــلوعةٍ غامرة جعلت الراهبة تُمسك عن التلاوة لتجيبها في لهجة اعتذار :

« لقد مات ، ايتها المرأة الصالحة ، لقد مات ، بمشيئة الله . »

كان ذلك كله فوق الطاقة ، ووراء الاحتمال . فنهض نيكيتا وغادر الغرفة من غير ان يُحدث صوتاً ما ، وقد امتلأ فؤاده بأشدّ الحقد على الراهبة .

وعلى مقعد طويل قرب الباب الخارجي كان يجلس تيخون وفي يده قطعة من خشب فهو يشقّها قِدَداً قِدَداً . حتى اذا تمّ له ذلك تناول هذه القدد واحدةً بعد أخرى وغرزها في الرمل واطئاً إياها بقدمه حتى تغيب تحت الـــثرى . وجلس نيكيتا الى جانب تيخون ، وراح يتأمله من غير ان ينبس بكلمة . وذكّره صنيـــع تيخون بأنطونوشكا مخبول البلدة الجبان . وكان هذا فتىً يافعاً أسمر كثيف الشعر ، ذا رِجْلٍ مَلْوِيّة عند الركبة وعينين مدوّرتين كعيني البومة . وكان من دأب انطونوشكا أن يرسم بعصاه بضع دوائر في الرمل ، ثم يبني ضمن هـذه الدوائر اقفاصاً صغيرة من الأغصان والقِدَد الخشبية . ولا يكاد يُتمّ تشييد البناء حتى يسحقه بقدمه ، في الحال ، ويُلقي على أطلاله مزيجاً من الرمل والغبار مغنّياً من أنفه :

« أوه ، المسيح قـد قام ، قـد قام ،
لقد فقدت العربة دولاباً ، فقدت دولاباً .

نم ، نم ، نم،
نم أيها المسيح ! »

ـ « هكذا كان ، إيه ؟ » قال تيخون ذلك وصفع رقبته ساحقاً بعوضةً وأمَرّ راحةَ يدهِ فوق ركبته ، وتطلّع الى القمر المنعكسة أشعته على غصن من اغصان الصفصاف فوق النهر . ثم إنه التفت الى الموجل البخاري الضخم الجثة ، وقال في هدوء :

« لقد أقبل البعوض باكراً ، هذه السنة . أجل ، البعوض يعيش ، و . . »

وقبل أن يوفق الى إتمام كلامه ، ذكّره الأحدب في تجهم ، وقد أخذه الخوف بعض الشيء مما يمكن أن يلي :

« نعم ، ولكنك قتلتَ البعوضة . »

وأوسع الخطى مبتعداً عن حافر الخنادق . وبعد دقائق قليلة ، وكان مرتبكاً لا يدري ما يصنع بنفسه ، انقلب الى غرفة ابيه ، وقام مقام الراهبة في تلاوة المزامير . وسكب نيكيتا أساه في كلمات المزامير ، حتى اذا دخلت ناتاليا الى الغرفة لم يحسّ بدخولها . وفجأةً سمع الى وشوشات صوتها الهادئة ، من خلفه . وكان كلما وجدها غير بعيد منه يحسّ أنه خليق بأن يقول أو يعمل شيئاً خارقاً للعادة ـ شيئاً ربما كان مروّعاً مخيفاً . وحتى في تلك اللحظة المهيبة خشي نيكيتا ان تندّ منه ، برغم ارادته ، مثل هذه الكلمات فحنى رأسه حتى لقد احتجب وراء حدبته ، وخفض صوته ، وكان قد أصيب فجأة بضعفٍ ملحوظ . ثم انه سمع صوتين يمتزجان امتزاجاً دامعاً بالتراتيل الدينية .

— « انظري ، لقد أخذتُ صليبه لأعلقه في عنقي . »

— « أمي ، يا أعزّ الناس ،لقد أمسيت أنا وحيدةً ، ايضاً . . »

ورفع نيكيتا صوته بالترتيل كي يُغرق هذه الهمسات الدامعة في خضم انغامه العالية ، ولكن نفسه ظلّت تنازعه برغم ذلك الى الاصاخة لما تقوله المرأتان .

—« إن الله لن يأخذنا بذنبنا . . . »

— « في عشٍّ غريب ، وحيدة . . »

وانشد نيكيتا :

« أين اذهب من روحك ؟ ام اين افرّ من حضرتك ؟»

ووسط صيحة الخوف واليأس هذه أوحت اليه ذاكرته بالمثل الكئيب : « الحياة من غير حب غمّ ، حتى اذا جاء الحب اصبحت غماً مضاعفاً . » واستحيا بعض الشيء ، وشعر ان الحزن الذي يلف ناتاليا قد أمدّه بأمل في السعادة جديد .

وعند الصباح وفدَ بارسكي من البلدة يرافقه رئيس بلديتهـا ، ياكوف زيتايكن ، وهو رجلٌ ذو عينين خلوٍ من كل تعبير يطلق عليه الناس لقب « المخبوز نصف خبز » : قصير القامة ، مدوّر ، فطيريّ الهيئة كأنه صُنع حقـاً من عجين غير ناضج . وانحنى الزائران أمام جثمان الميت ، ناظرين الى وجهه القاتم بضرب من الشك المغلّف بالخوف . لقد أذهلتهما ،هما ايضاً، وفاة آرتامونوف . واخيراً قال زيتايكن لبيوتر ، بصوته اللاسع الخاثر :

« يقولون انكم تفكرون في دفن ابيكم في مقبرتكم الخاصة — هل الامر كذلك ؟ إنّ في ذلك لاهـانةً توجه الى البلدة ، بيوتر

إيلييتش ، فكأنكم لا تريدون أن تصلكم بنا صلة ما ، وان نعيش معاً كأصدقاء ــ هل الامر كذلك ؟ »

وصرّف ألكسي بأسنانه ، وهمس في اذن اخيه :

« إقذف بهما الى الخارج ! »

وغمغم بارسكي موجهاً الخطاب الى اوليانا :

« ايتها النسيبة ، هذا لا يجوز ! انكم تسيئون الينا بذلك . »

وأنشأ زيتايكن يسأل بيوتر :

« لعل القس " غلب " هو الذي نصح لك بـــذلك ؟ لا ، لا ، إرجع عمّا قررته في هذه المسألة . لقد كان ابوك اكبر صناعيّ في المنطقة ، وكان مؤسساً لصناعة جديـدة هي فخر البلدة وموضع اعتزازهـــا . وحتى رئيس الشرطـة يقول ــ ولم يكن له مناص من ذلك ـ انكم وثنيون من غير شك ! »

وواصل زيتايكن حديثه المتلاحق الرتيب ، متجاهلاً محاولات بيوتر للردّ عليه . حتى اذا وفق بيوتر آخر الامر الى افهامه أن وصية والده قضت بذلك أخلد في الحال ، الى الهدوء ، وقال :

« مهما يكن من أمر ، فلسوف نشيّع الجنازة . »

واتضح للجميع أنه اقبلَ لغاية غير التي بسطها في حديثه . ذلك انه ما لبث ان سعى الى زاوية الغرفة حيث كان بارسكي قد زحم اوليانا الى الحائط وطفق يكلمها في همس . وقبل ان ينتهي زيتايكن اليهما صرخت اوليانا :

« انت مخبول ، ايها النسيب ! اخرج من هنا ! »

كانت شفتاها ترتجفان وكانت اهدابهـــا ترتعش . واذ رفعت

رأسها في زهو قالت لبيوتر :

« هذان الاثنان ، بومبيالوف وفوروبونوف ، يريدان مني ان احدثك انت وأخويك برغبتهما في شراء المصنع . وقد حاولا اغرائي بالمال لكي اساعدهما على اقناعكم بضرورة البيع . »

- « أخرجا ، ايها الرجلان ! » كذلك صاح ألكسي ، وهو يومىء بأصبعه الى الباب .

وتأبط زيتايكن ذراع بارسكي ، وسار به الى الباب ، وهو يتنحنح ويتمتم ويتكلف الابتسام . وألقت بابا كوفا بجسمها على الصندوق واخذت تبكي وتنتحب :

« يريدون ان يمحوا ذكراه نفسها ! »

وخفض ألكسي رأسه متطلعاً الى وجه ابيه ، واعلن في خشوع مرير :

« لست احب ان اعيش واكون كهذا الضرب من الرجال . اني لأوثر الموتَ على ذلك . »

وغمغم بيوتر :

« وقت مناسبٌ للمساومة .. » وتطلّع هو ايضاً الى ابيه .

واقتربت ناتاليا الى ابن عمها نيكيتا وسألته في لين :

« وأنت ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ »

لقد أبهجه أن يجد آخر الامر من يتذكره ، وزاده بهجة ان تكون ناتاليا هي التي تذكرته . فلم يستطع أن يكبح ابتسامة سعيدة طافت على شفتيه وهو يجيبها في لينٍ أيضاً :

« لماذا ... أنتِ وأنا ... »

ولكنها كانت قد مضت لسبيلها ، مستغرقة في التفكير .

وشهد جنازة ايليا آرتامونوف عيون البلدة كلهم تقريباً . شهدها رئيس الشرطة ، وهو رجل هزيل طويل ذو لحية حليق وسالفين طويلين اشيبين . لقد ظلع في مهابة ووقار فوق الطريق الرملية ، وقال لبيوتر ، وكان الى جانبه ، هذه الكلمات مكرّراً اياها بالحرف الواحد مرّتين اثنتين :

« لقد قدّم اليّ الفقيد أول الأمر من طريق شهادة ممتازة شهدها فيه سموّ الامير جيورجي راتسكي . ولقد عاش والدك حياةً كانت من جميع نواحيها مصداقاً لتلك الشهادة . »

ولكنه ما لبث أن أعلن في تذمر :

« إن السير بالميت في هذه الطريق الصاعدة لعسيرٌ حقاً . »

وشقّ طريقه ، على نحوٍ معترض ، من بين الحشد ووقف في الظل ، تحت شجرة صنوبر وقد ضغطت احدى شفتيه الحليقتين على الأخرى ضغطاً شديداً وراح ينظر الى حشود العمال وابناء البلدة المشتركين في الجنازة وكأنما يستعرض الجند في احتفال رسمي .

كان النهار مشرقاً . لقد غمرت الشمس باشعتها نباتات الارض الخضراء وفراشاتها الصفراء ، والموكب المختلف الالوان المتحرك في بطء بين كثيبين اثنين وفوق كتفٍ ثالثٍ . وهنا كانت تقوم صلبان كثيرة ، بعضها مسدّدٌ الى كبد السماء الصافية الزرقاء ، وبعضها قائم في ظلٍ وارف من صنوبرة عجوز ملتوية . وكان الرمل اشبه بماسٍ متوهج ، وكان يَصِرّ تحت اقدام الناس ، في حين كانت اصوات الكهنة تتمايل وترتجف فوق رؤوسهم . وفي

نهاية المطاف أقبل انطونوشكا المخبول واثباً متعثراً . كانت عيناه المدورتان القائمتان تحت حاجبين خاليين من الشعر ، مركزتين في الأرض ، وكان لا ينفكّ ينحني ليلتقط الأغصان الجافة من جوانب الطريق مقحماً إياها في صدر قميصه، وكان هو ايضاً يتغنى في نبرة عالية :

« أوه ، المسيح قد قام ، قد قام ،
لقد فقدت العربة دولاباً ، فقدت دولاباً ... »

وكان الاتقياء من الناس كثيراً ما يضربونه لترديده هذه الأغنية . أما اليوم فقد هزّ رئيس الشرطة في وجهه إصبعاً مهدّدةً ، وصاح :

« اسكت ، ايها المجنون ! »

ولم يُضع أبناء البلدة ذرّة من الحبّ على انطونوشكا ، فقد كان بوصفه موردوفياً أو شوفاشياً غير خليق بأن يُعتبر في عداد المعذّبين من اجل المسيح . وكانوا على أيّة حال يخشونه معتقدين أنه نذيرٌ بشؤم . وعندما برز يوم الدفن في فناء الدار ، وراح يثب بين الموائد صائحاً صياحاً ليس ينطوي على أي معنى :

« كوياتير ، كوياتير ، الشيطان في قبة الكنيسة ، أوه، يا إلهي ، المطر سوف يأتي ، الرطوبة سوف تأتي ، كيباميس الدموع السوداء ! » ـ همس بعضهم :

« اسمعوا ! ان ابناء آرتامونوف لن يحالفهم الحظ ! »

وسمع بيوتر هذه الهمسات . وبعد قليل رأى الى تيخون فيالوف يمسك بالمجنون في احدى زوايا الفناء وسمع حافر الخنادق

يسأل ، في هدوء ولكن في إلحاح :

« ما معنى هذه الكلمة — كيباميس ؟لستَ تدري؟ أخرج من هنا . كن عاقلًا ، كن عاقلًا . »

.... وتصرّمت سنةٌ على وفاة آرتامونوف ، وكان تصرُّمها خفيفاً رشيقاً كجداول الخريف الموحلة المتحدّرة على جنبات الجبال . ولم يقع شيء ذو شأن ، ما عدا اشتعـــال الشيب في رأس أوليانا بايما كوفا ، وبروز خطوط العمر الحزينة على صدغيهـا . وتغيّر ألكسي تغيّراً واضحاً . لقد أصبح اكثر لطفاً ودماثة ، ولكنه انتهى في الوقت نفسه الى ان يولع بتوجيه النكات المرحة والهتافات اللاذعة الى الناس . وكان بيوتر يستشعر قلقاً شديداً بسبب موقفه اللامبالي من العمل . لقد بدا وكأنه يعبث بالمصنع — كما عبث يوماً بالدبّ ، ليعود بعدُ فيقتله . وكان يعاني ضعفاً غريباً تجاه ضروب الكماليات التي تزدان بها حياة الطبقة الارستوقراطية. فعدا الساعة التي أهدتها بايما كوفا إليه ، ظهرت زخارف اخرى في غرفتـه — زخارف لا غَناء فيها ولكنها تُبهج عين الناظر . كانت تتدلى على الجدار صورة مزركشة بالخرز تمثّل فتيات يرقصن في حلقة . وكان ألكسي شحيح اليد ، فما الذي كان يحمـله ، اذن ، على ان ينفق المال على هذه السفاسف ؟ كذلك أخذ ألكسي يُعنى بملابسه فيختار لها أنفس الاقمشة وأحدث الأزياء ، ويعنى بلحيته الداكنة المحدّدة، ويحلق شعر وجنتيه مما زاد في اختـلاف سيماه عن سيما الفلاحين البسطاء . وكان بيوتر يرى في محيا ابن عمته هذا شيئاً أجنبياً وغير واضح . وكان يراقب ألكسي خلسةً ، بروحٍ من عــــدم الثقة

ازدادت على الايام قوةً ورسوخاً .

وكان بيوتر حذراً ، كثير الاحتراس في موقفه من العمل كما كان حذراً كثير الاحتراس في موقفه من الناس . لقد أخذ نفسه بالسير في أناة ، وكان يتلصّص على عمله مثبّتاً عينيه الجافيتين ، وكأنما يتوقع أن يضمحلّ او يتلاشى . وكان يستشعر في بعض الأحيان ، وقد أنقضت ظهره هموم العمل ، أنه مغلّفٌ بسحابة قاسية من ضجر غريب مقلق . وفي مثل هذه اللحظات كان المصنع يبدو لعينيه اشبه شيء بحيوانٍ من حجر ولكنه حيّ . وكان هذا الحيوان جاثماً فوق سطح الأرض ، ملقياً ظلالاً شبيهة بالأجنحة ، ورافعاً ذنَباً لا يعدو ان يكون مدخنة آجرية شديدة الخيلاء . وانما كانت سيماه البهيمية شيئاً مخيفاً حقاً . ففي النهار كانت النوافذ تلمع كالأسنان المثلوجة ؛ وفي امسيات الشتاء كانت تتألف من حديد ملتهب بنار الثورة والانتقام . وعندئذ يتبادر الى ذهنه ان غرض المصنع الحقيقي ، أنّ هدفه السري، ليس يكمن في حَوْك ميلٍ بعد ميل من النسيج الكتاني ، ولكن في شيء آخر ، شيء عبر محبَّب الى قلب بيوتر آرتامونوف .

ويوم الاحتفال بذكرى وفاة ايليا ، وبعد أداء الصلاة السنوية عن روحه في المقبرة ، اجتمعت الأسرة كلها في غرفة ألكسي البهيجة الزاهية . وفي شيء من العصبية انشأ ألكسي يتكلم :

« لقد كان من وصية أبينا ان لا نتنازع . وكان في ذلك على صواب . إننا أشبه ما نكون بأسرى الحرب في هذا المكان »

ولاحظ نيكيتا ان ناتاليا ، وكانت جالسةً الى جانبه ، قد

اجفلت ورمقت ألكسي بنظرة تنطوي على معـــنى الدهَش والاستغراب . وواصل ألكسي حديثه في رفق واناة :

« ولكن اذا لم يكن لنا ان نتنازع فليس معنى ذلك ان احدنا ينبغي ان يعترض سبيل الآخر . إن مشروعنا الصناعي مِلْكٌ لنا جميعاً ، ولكن حياتنا مِلْكٌ لكلٍّ منا بمفرده . أليس كذلك ؟ »

ـ « أكمِلْ ، » قال بيوتر ذلك في احتراس ، محدّقاً الى شيء فوق رأس اخيه .

ـ « تعلمون جميعاً انني اعيش منذ زمن مع اولغا اورلوفا . إني اريد ان اتزوجها الآن . أتذكر يا نيكيتا ؟ ـ لقد كانت الوحيدة التي أحزنها سقوطك في الماء .. »

وهزّ نيكيتا رأسه علامةَ الموافقة . إنه لم يجلس يوماً على مثل هذا القرب من ناتاليا . وكان سعيداً بذلك الى درجة جعلته زاهداً في ان يتحرك أو يتكلم ، بل زاهداً في ان يصيخ الى كلام الحاضرين . وكان كلما اجفلت ناتاليا لسبب ما ، ومسّه مرفقها مساً رفيقاً ابتسم ناظراً تحت المائدة الى ركبتيها .

وأردف ألكسي :

« إنها مقدّرةٌ لي في ما احسب . وفي استطاعتي حين اتزوّجها ان أغيّـر وجه حياتي . ولست أريد ان آتي بها لتعيش هنا . فأنا اخشى ان لا تنسجموا معها . »

وانتصرت أوليانا بايما كوفا لألكسي ، رافعةً عينيها الناضحتين بالأسى :

« انا اعرفها جيداً . إن لها لأبرة بارعة جـــداً ، وهي تحسن

القراءة والكتابة . لقد اعالت اباها السكير منذ ان شبّت عن الطوق . كل ما في الامر انها تحبّ ان تسير في الحياة على هواها . ولست احسب ان ناتاليا تستطيع ان تنسجم معها . »

فاعترضت ناتاليا ، مغتاظة بعض الشيء :

« في استطاعتي ان انسجم مع جميع الناس . »

ونظر اليها زوجها وقال لأخيه :

« اجل ، هذه المسألة خاصة بك . »

وعرض ألكسي على بابا كوفا ان تبيعه منزلها .

– « وما حاجتك اليه ؟ »

وايده بيوتر في ذلك ، قائلاً لها :

« إن موضعكِ الصحيح هو معنا . »

فقال ألكسي :

« حسناً ، سوف أذهب وأخبر اولغا ».

حتى اذا ذهب نكزَ بيوتر كتف نيكيتا وسأله :

« انائم انت ؟ ما الذي تفكّر فيه ؟ »

– « إن الكسي لمصيبٌ في ما اعتزم عليه . »

– « تظنّ ذلك ؟ سنرى . وما رأيكِ أنتِ يا اماه ؟ »

– « طبعاً إنه لمضيبٌ في الزواج منها . ولكنْ من الذي يستطيع ان يحزرَ الى أيّ حدّ سوف يكون في ميسوره ان يعيش معها ؟ إنها غريبة المزاج ، بل انها تعاني نوعاً من الاختلال العقلي. »

فأجاب بيوتر ، في ابتسامة صفراء :

« شكراً على هذه النسيبة . »

— « لعلّني اخطأت في التعبير » قالت اوليانا ذلك في أناة ، وكأنها تحدّق الى مكانٍ مظلم حيث كان كل شيء يتمايل ويختفي مجتنباً رؤيتها .

— « إنها الماكرة . كانت عند أبيها اشياء كثيرة فحملتْها إليّ ابتغاء إخفائها عندي حتى لا يبيعها ويشتري بثمنها خمراً . وكان آليوشا يحملها اليّ تحت جنح الظلام فأتظاهر بعدُ بأني اقدّم اليه هدايا كثيرة. والحقّ ان هذه الاشياء كلها ملْكٌ لها. إنها مَهرها . وبعضُ هذه الاشياء نفيسٌ ذو قيمة . وعلى الجملة فأنا غير مولعة كثيراً بها — إنها عنيدة جداً ، شديدة التشبّث بأرادتها.»

ووقف بيوتر امام النافذة مولياً حماتَهُ ظهرَه . وهناك في الحديقة كانت الزرازير تضجّ محاكيةً صخب النهار . وتبادرت الى ذهنه كلمات تيخون :

« انا لا أحب الزرازير . إنها تبدو أشبه شيء بالأبالسة . »

إنه لرجل أبله ، هذا الذي يدعونه تيخون . إنك لا تستطيع إلا أن تلتفت اليه لمجرد أنه أبله الى هذا الحدّ .

وبالنّبرة المنخفضة المشمئزة نفسها ، أخذت بابا كوفا — وكانت مستغرقة في افكار اخرى من غير شك — تقصّ عليهم خبر والدة اولغا اورلوفا ، وهي امرأة لا تعرف الحياء . كانت اول امرها زوجة لأحد أصحاب الاقطاعات فخانته وهو لا يزال حياً وهربت مع اورلوف وعاشت الى جانبه خمس سنوات :

« كان صاحب صنعةٍ ، يُحْسن فرش البيوت بالأثاث ، ويُصلح الساعات ، ويحفر صوراً على الخشب . إن عندي صورةً من حفره

في البيت ، وهي تمثل امرأة عارية . وتزعم أولغا أن هـذه المرأة العارية ليست غير أمها ، وكانت مثله تدمن الشراب ، فلما توفي بعلها تزوجا . وفي ذلك العام نفسه خرجت لتبترد بماء النهر ، وهي سكرى ، فابتلعتها الأمواج . »

وهنا قالت ناتاليا ، فجأة :

« ذلك ما يدعونه الحبّ . »

ولم تكد المرأة تلفظ هذه الكلمات غـير اللائقة حتى رمقتها أوليانا بنظرة تأنيب ، على حين أجاب بيوتر ، في ضحكة قصيرة :

« نحن نتكلم عن السّكْر ، لا عن الحب . »

ورانَ الصمت ، ولاحظ نيكيتا أن هذه القصة قد استثارت كامن الشعور في نفس ناتاليا . لقد اختلجت أصابعها وكادت تنتّف أهداب شرشف الطاولة . وانتشر الدم في وجهها البريء الرقيق ، وطفت عليه سيما غضبٍ لم يشهدها نيكيتا من قبل .

وبعد العَشاء ، جلس نيكيتا على مقعد خشبي طويل في الحديقة وسط أشجار اللّيْلنج ، وتحت نافذة ناتاليا مباشرةً . وفجأة سمع اصواتاً منبعثة من الغرفة التي فوقه . كان بيوتر يقول في رويّة :

« إن ألكسي لذكي . انه لبارع . »

فتصيح ناتاليا ، في الحال ، صيحة منبعثة من فؤاد كليم :

« انتم كلكم بارعون . أنا وحدي البلهاء بينكم . لقد كان صدقاً ما قاله ألكسي – مثل أسرى الحرب . إني انا الاسيرة في داركم . »

ولهث نيكيتا ذعراً وإشفاقاً . وتعلّق بكلتا يديه بالمقعد الطويل . ذلك بأن قوةً مجهولةً كانت تهمزه ، وتحضه على الاندفاع

الى حيث لا يدري . وكان صوت المرأة التي أحبّ يرنّ فوق رأسه في نبرات لا تنفكّ تعلو وتعنف ، مثيراً في نفسه آمالاً حارّة متلاطمة .

كانت ناتاليا تضفر شعرها عندما أضرمت كلمات زوجها ، فجاءةً ، لهيباً من الحنق في ذات نفسها . فاستندت الى الجدار رادّةً يديها الى الوراء ، وكانتا مشوقتين الى ان تَضْربا أوتمزّقا . ومن خلال التنهدات الجافة انطلقت كلماتها متعثّرةً مشوّشة . إنها لم تعرف ما الذي كانت تقوله ، ولم تسمع الصيحات المغضبة التي أرسلها زوجها الحائر المرتاع . كانت تتشكى أنها غريبة بينهم وأنّ احداً لم يكن يحبّها ، وانها مجرد خادم في البيت .

— « انت لا تحبني . بل انك لم تحدّثني يوماً عن أي شيء . انت تهبط عليّ كما يهبط الحجر ، وينقضي الامر ! لماذا لا تحبني ؟ ألأنا زوجتك أم لا ؟ هل فيّ شيء كريه ؟ — احبّ أن أعرف ! فكّر في الطريقة التي اصطنعتها والدتي في حبّ والدك . إن قلبي ليكاد يتميز ، في بعض الأحيان ، من الحسد . »

فاقترح بيوتر :

« حسناً ، إذن ، أحبيني انتِ بالطريقة نفسها ! »

كان يجلس على قاعدة النافذة ، يسترق النظر الى ملامح زوجته المحرّفة ، في زاوية الغرفة المظلمة . لقد بدا له ان كلماتها خرقاء ، ولكنه استشعر في دَهَش ان لوعتها كانت مشروعة — أدرك انها لم تكن لوعةً بلهاء . وكان اسوأ ما في هذه اللوعة أنها تُنذر بغليان قريب ، بهموم جديدة ومخاطر جديدة ، في وقتٍ يكاد بيوتر

يرزح فيه تحت ثقل المتاعب والمشكلات .

وتمايلت صورة امرأته البيضاء ، وقــــد بدت في ردائها الليلي الفضفاض وكأنها مقطّعة اليَدَين ، وأنشأت ترتعد حتى لقد ظنّ انها لا بدّ صائرة الى الذوبان . كان صوتها يرتفع وينخفض ، فهي تهمس حيناً ، وتزعق حيناً ، فكأنما كانت في ارجوحة ، تحلّق بها تارة ، ونُسف بها تارة :

« أنظُرْ كيف يحبّ ألكسي فتاته . وهو نفســه قريبٌ الى الفؤاد . انه طروبٌ ابداً ، ويلبس كما يلبس ابناء الطبقة الرفيعة . وانت ؟ انت لا توجه كلمة لطيفةً الى احد . ولا تبتسم لأحد . لقد كنت خليقةً بأن اكون على صداقة وثيقة مع ألكسي ولكني لم أجرؤ على ان اقول له كلمةً ، لأنك اقمت أحدبك ، ذلــــك المخلوق الماكر المقيت ، رقيباً عليّ ، لغرضٍ في نفسك . »

ونهض نيكيتا وأخذ يطوّف في الحديقة مهيض الجناح ناكسَ الرأس . وكانت الأغصان تعترض سبيله فيردّها عن كتفيه ردّاً آلياً .

ونهض بيوتر أيضاً . وتقدّم الى زوجته وامسك بشعرها ولوى رأسها الى خلف محدّقاً الى عينيها .

— « مع ألكسي اذن ؟ » قال ذلك في صوتٍ غير مرتفــع ولكنه قاسٍ . لقد اذهله ما قالته امرأته الى حدّ جعله عاجزاً عن ان يغاضبها او ان يستشعر الرغبة في ضربها . وادرك في وضوح متعاظم ان امرأته كانت تقول صدقاً ، وان حياتها كانت رتيبــة خلواً من المتعة والشوق . وكان يعلم علم اليقين معنى الرتابة والضجر ، ولكنْ كان لا بدّ من تهدئة روعها بطريقة ما ، فاختار ان يحقق

الحائط برأسها ويسألها في رفقٍ ولين :

« ما الذي قلته ايتها المخبولة ؟ مع ألكسي ؟ »

– « اتركني ... اتركني ... وإلا صرخت ! »

وبيده الاخرى امسك حنجرتها وضغط عليها . وانتشر الدم في وجه امرأته ، وشرعت تُخَرْخِر .

– « امرأة فاجرة ! » قال ذلك ودفعها الى الحائط ، ثم اعرض عنها . فترنحت الى الأمام وتخطّته الى السرير حيث كانت الطفلة تنتحب انتحاباً خافتاً منذ فترة من الزمان . وخيّل لبيوتر انها داسته بقدميها . فترنحت امام عينيه قطعة من السماء زرقاء قاتمة ، وتراقصت النجوم . ونظر بمؤخر عينه ذات اليمين وذات الشمال فرأى امرأته جالسةً غير بعيد عنه . كان في ميسوره ان يصفعها على وجهها من غير ان ينهض من مجلسه . وكان وجهها ثابتاً لا يتحرك ، وكأنما هو وجه خشبي ، ولكن الدموع جرت في بطء وتكاسل على وجنتيها . كانت ترضع بنتها الصغـــيرة محدقةً الى الزاوية من خلال الغشاوة الزجاجية التي ضربتها الدموع على عينيها ، فلم تلحظ ان الطفلة ما كانت قادرةً على ان ترضع على نحوٍ مريح . كانت حلمة الثدي لا تنفكّ تنزلق من بين شفتيها ، فترتضـع في الهواء منتحبة انتحاباً عاجزاً . وهزّ بيوتر نفسه وكأنما ينفض عنه بقايا كابوس ثقيل ، وقال :

« الا تستطيعين ان ترضعي الطفلة كما ينبغي ؟ »

فهمهمت ناتاليا :

« ذبابة في البيت . ذبابة من غير اجنحة . »

— « وعلى أية حال ، فأنا أعيش وحيداً ايضاً . فليس ثمة غير بيوتر آرتامونوف واحد . »

واحس احساساً مبهماً ان هذا لم يكن هو الشيء الذي اراد ان يقوله — فضلاً عن انه كلام ينطوي على شيء غير صحيح . ولكي يهديء من روع زوجته ويجتنب الخطر المعلق فوق رأسه يتعين عليه ان يعطيها حقيقة لا لبس فيها ، حقيقة بسيطة لا تحتمل الخلاف بحيث تفهمها في الحال ، وتستسلم اليها ، فلا تزعجه بشكاواها ودموعها الحمقاء ، وبتلك الاساليب النسوية التي ما كانت تصطنعها من قبل . وإذ لاحظ حركاتها الخرقاء المهملة وهي تضع الطفلة في سريرها ، أردف قائلاً :

«إن عندي عملاً ينبغي ان اعنى به ! عندي مصنع — وهو شيء غير زرع الحنطة او البطاطا . إنه مشكلة . اما انتِ فأي همّ يقلق بالك ؟ »

لقد تكلم بادئ الامر في صرامة وقصدٍ الى التأثير ، محاولاً ان يقبض على هذه الحقيقة الزئبقية ، ولكنها أفلتت من يده ، فاذا بصوته يرشح كآبة :

— « ان ادارة مصنعٍ ما ليست شيئاً بسيطاً ، » كذلك اعاد فكرته السابقة شاعراً انّ ذخيرته من الالفاظ قد نضبت ، وانه لم يبق لديه شيء يقوله . وكانت ناتاليا واقفة في صمت تهزّ سرير طفلتها ، مديرة ظهرها لزوجها . ولم ينقذه من هذا المأزق غير صوت تيخون فيالوف ، المادي ، ينادي :

« بيوتر ايليتش ! هاي ، هناك ! »

فتساءل متخذاً سبيله الى النافذة :

« ما الخبر ؟ »

فقال حافر الخنادق في لهجة الامر :

« تعال الى هنا ! »

— « جِلْف ! » كذلك هَدَرَ بيوتر ، ثم التفت الى زوجته واضاف في نبرة عتب وتأنيب :

« تفضلي ! لا حقّ لي في الراحة ، حتى اثناء الليل ، ومع ذلك فأنتِ تقفين هناك وتنتحبين . »

ولقيه تيخون في الرواق ، حاسر الرأس خافق العينين . وبعد ان القى نظرةً الى فِناء الدار الرافل بحلة من ضوء القمر قال في صوتٍ خفيض جداً :

« لقد حاول نيكيتا ايليتش ان يشنق نفسه . »

— « ماذا ؟ ماذا قلت ؟ »

وسقط بيوتر في ثِقل على دَرَج الرواق وكأنّ الارض قد انخسفت به .

— « علامَ تجلس ههنا ؟ اسْرِعْ . انه يريد ان يراك ! »

ولم ينهض بيوتر ، بل سأل في همس :

« ما الذي حمله على ان يصنع ذلك ، أيه ؟ »

— « لقد عاوده الوعي الآن .. لقد ظللت اسكب الماء عليه حتى صحا . فلنذهبْ اليه . »

وتابط تيخون مستخدِمهُ وساعده على النهوض ثم قاده الى الحديقة .

— « لقد حاول الانتحار في الحمّام ، في غرفة التزيّن . لقد دلّى حبلاً من عارضةٍ في العلّية و .... »

ووقف بيوتر فجأةً وكرّر :

« ما الذي حمله على ان يفعل ذلك ؟ أغلب عليه الحزن على ابيه ام ماذا ؟ »

وتمهّل حافر الخنادق ايضاً .

- « لقد غلب عليه الوجد... فراح يقبّل قمصانها الداخلية . »

— « اية قمصان ؟ عن أيّ شيء تتكلم ؟ »

وجرّ بيوتر رجليه الحافيتين في تثاقل ، وخفض بصره محدّقا الى كلب تيخون ، وكان قد اقبل على صاحبه من بين اشجار الحديقة الملتفة وراح يتطلع إليه مستعلِماً ، ويبصبص بذَنَبه . كان خائفاً أن يقصد الى أخيه . لقد أحسّ بفراغٍ في ذات نفسه ، ولم يكن ليعرف ما الذي ينبغي ان يقوله لنيكيتا .

وهدر حافر الخنادق :

« إيه ، ولكنك أعمى ... »

وصمت بيوتر ليسمع بقية الخبر .

— « قمصانها ، قمصان ناتاليا بيفسييفنا . كانت منشورة هناك مع بقية الغسيل لكي تنشف . »

— « ولكن ما الذي ... أكمِلْ ! »

ورفس بيوتر الكلب بقدمه . لقد تمثّل ، فجاءَة ، صورة أخيه الحدباء القصيرة مع غِلَظ يُقبّل قميص امرأة . كان ذلك مضحكاً ، ومع ذلك فقد دفعه في الوقت نفسه الى ان يبصق في تقزّز واشمئزاز .

ثم إنّ هاجساً ما لبث أن استحوذ عليه فأمسك بجافر الخنادق من كتفيه وشرع يهزه هزّاً عنيفاً سائلًا إياه من خلال أسنانه المطبقة في شدّة :

« هل تبادلا القبل ؟ أرأيتها ؟ تكلم . »

– « إني أرى كل شيء . إن ناتاليا بيفسييفنا لا علمَ لها بذلك كله . »

– « أنت تكذب ! »

– « ولمَ اكذب ؟ أنا لا أتوقع شيئاً منك . »

وقص تيخون على مستخدِميه حكاية أخيه الفاجعة في كثيرمن الأيجاز . كان يتحدث وكأنما يحمل فأساً يقطع بها نافذةً ما في الظلام . وكان في ميسور بيوتر ان يشعر أنه يتكلم صدقاً. فالحق أنه هو نفسه كان قد كوّن فكرة ضبابيةً عن هذا الحب من نظرات عيني أخيه الزرقاوين الى ناتاليا ، وتلهفه على خدمتها ، وقلقه الطفيف ، ولكنْ الموصول ، عليها .

وهمس وهو يظنّ أنه يتكلم بصوت عال :

« هكذا ... ! لقد كان عندي من المشاغل ما جعلني لا أدرك هذه الحقيقة . »

ودفعَ تيخون الى الأمام ، قائلًا :

« هيا ! »

كان لا يريد ان يكون أول من تقع عليه عين نيكيتا . وفيما كان يلج الباب المنخفض المؤدي الى الحمّام ، وقبل أن يتبيّن وجه أخيه في الظلام صاح في صوتٍ مرتعش من وراء ظهر تيخون :

« نيكيتا ، ماذا دهاك ؟ »

ولم يُجب الأحدب بشيء . كان منكمشاً فوق المقعد الخشبي الطويل بحذاء النافذة ، وكان الضوء الضئيل يلقي أشعته الباهتة على رجليه وبطنه ، فلا يكاد يُرى . وبعد برهة قصيرة أدرك بيوتر ان نيكيتا كان جالساً في مكانه ذاك محنيّ الرأس ، مسنداً ظهره الأحدب الى الجدار . وكان قميصه ممزّقاً من اعلى الرقبة الى ادنى الحاشية ، وقد تندّى بالعرق فهو شديد الالتصاق بجسده . وكان وجهه مبللاً كذلك ، وكانت اشعةٌ نديةٌ تنتشر من نجم مظلم قاتم فوق خدّه .

وسأل بيوتر في همس :

« ما هذا ؟ – دم ؟ هل سقط على وجهه ؟ »

– « لا . لقد خدشتُهُ خدشاً طفيفاً وانا في غمرة من التعجل والأسراع » ، قال تيخون ذلك في صوتٍ مرتفع جداً ، وانتحى جانباً من المكان .

وكان الاقتراب من نيكيتا شيئاً مخيفاً . فشدّ بيوتر اذنه كالعادة ، ومضى يتحدث في لهجة توجّع وتأنيب سامعاً كلماته هو وكأنّ رجلاً غريباً كان يتلفظ بها :

« يا للعار ! لقد خالفتَ وصايا الله ، ياأخي . هذا شيء لا يجوز ! »

– « ادري ، » كذلك اجاب نيكيتا في جَرْسٍ مبحوح وكأنّ صوته هو ايضاً كان صوت انسان غريب . « انا لم اطق صبراً عليها . دعني اذهبْ الى احد الأديار . وهناك سوف اترهّب . اسمع ! اني من كل قلبي اتوسل اليك ..... »

وانفجر في سعال ضاقت له انفاسه . ثم سكت .

وغلب التأثر على بيوتر فراح يؤنب اخاه كرّةً اخرى ولكن في رِفْقٍ وحنان هذه المرة . واخيراً قال :

« اما في ما يتصل بناتاليا ، فكان الشيطان هو الذي يغريك ، من غير شك . »

فأعول نيكيتا إعوالاً مؤثراً وقال :

« اوه ، تيخون . الم اتضرّع اليك يا تيخون ان تُمْسِكَ عن الكلام ؟! أمسك عن الكلام امامها ، على الاقل ، باسم المسيح ! انها سوف تسخر مني ، وقد تغضب عليّ . ارحمني ! سوف اصلّي من اجلك بقيةَ عمري . لا تخبرها ! لا تخبرها ابداً . آه يا تيخون ، كلّها غلطتك . »

وواصلَ إعواله وتمتمته ، وكان رأسه مستقيماً على نحوٍ غير طبيعيّ ، جامداً لا يتحرك . وكان ذلك ايضاً شيئاً مخيفاً . وقال حافر الخنادق :

« كنت خليقاً بأن امسك عن الكلام امساكاً كاملاً لولا هذه الحادثة . ثِقْ انها لن تسمع شيئاً مني . »

وتعاظم تأثر بيوتر واخذه الارتباك . ثم انه وعد اخاه بالتزام الصمت قائلاً :

« اقسم لك بالصليب انها لن تعرف ايما شيء . »

— « شكراً ! وسأعتزل الحياة في احد الاديار . »

واغرق نيكيتا في الصمت وكأنه استسلم للرقاد .

وسأله اخوه :

« هل تؤلمك ؟ »

واذ لم يتلقّ جواباً اعاد السؤال :

« عنقك – هل تؤلمك ؟ »

فقال نيكيتا في صوت اجشّ :

« لا ، لستُ احسّ ألماً . اذهبِ الآن . »

فهمس بيوتر في اذن تيخون ، وهو يتخذ سبيله نحو الباب :

« لا تَدَعْهُ وحده . »

ولكنه لم يكد يخرج الى الحديقة ويمتليء انفه بالروائح الدافئة الريّا المنبعثة من الأرض المتصببة عرقاً ، حتى زايله هدوؤهُ وغرق في خضمّ من الأفكار المقلقة . وخفّف بيوتر الوطء ، فوق مجاز الحديقة ، لكي لا يصرّ الحصى تحت قدميه . ينبغي ان يكون ثمة هدوء شامل والا لما استطاع السيطرة على هذه الافكار وكبح جماحها . واذ كانت افكاره تلك ذات طابعٍ معادٍ ، واذ كانت من الكثرة بحيث توقع الرعب في القلب ، فقد بدت وكأنها لا تنبعث من داخل ، بل تنطلق شأن الغزاة من خارج ، من دُجنّة الليل – لكأنها خفافيشُ مندفعةٌ في الظلام . كانت تتعاقب في سرعة بالغة ، واحدة فوق اخرى ، بحيث تعذّر على بيوتر ان يقبض عليها ، او ان يجسّدها في كلمات ، فهو يكتفي بمجرّد النظر الى عُقَدها واشكالها الغامضة . لقد اوقعته في شركها واوقعت ناتاليا وألكسي وتيخون – شدّت وثاقهم جميعاً الى حلقةٍ مَلْوية كانت تدور في سرعة يصعب معها تبيُّنها . وكان هو في وسطها ، فريداً وحيداً . أما بلغة الألفاظ فقد قال بيوتر في ذات نفسه

بشكل بساطة :

« يجب أن آتي بوالدة ناتاليا الى البيت في الحال ، وأن أسأل الكنسي مغادرته الى مسكن آخر . يجب ان ألاطف ناتاليا بعض الشيء . « ذلك ما يدعونه الحب . » ولكن ، ليس الحب هو الذي دفعه الى أن يشنق نفسه . انها حدبتُهُ ولا شيء غيرها . ومن الخير أنه سوف يعتزل الحياة في الدير . فليس له في هذا العالم شيء . أجل ان ذلك لحسن . إن تيخون مجنون . كان يتعيّن عليه أن يخبرني باسرع مما فعل . »

ولكن ما علاقة هذا بتلك الأفكار الزئبقية الخرساء التي أوقعت الرعب في قلبه ، وجعلته ينظر في ذعر الى ظلام الليل الكثيف الرطب ؟ وعلى مسافة بعيدة ، تمعّج جدول رقيق من أصداء أغنية كئيبة تمعّجاً مبهماً بعض الشيء فوق بيوت عمّال المصنع . ودندنت جحافل البعوض . كان ثمة شيء واحد أحس به بيوتر آرتامونوف احساساً واضحاً : أن عليه أن يكبت هذا القلق ، أن يهزمه ، وان يفعل ذلك عاجلاً . وفجأة وجد نفسه على غير توقّع بين شجرات الليلنج القائمة تحت نافذة الغرفة التي ينام فيها . فاستراح هناك على المقعد الخشبي الطويل فترة غير قصيرة ، ومرفقاه على ركبتيه ، ووجهه مغيّب بين يديه ، وعيناه محدقتـــان الى التربة السوداء المنبسطة تحت قدميه . واهتزت الأرض وفارت وكأنها موشكة أن تنخسف من عليها .

– « انه لمذهل هذا الانتصار الذي استطاع نيكيتا ان يحرزه على الرمل . ولا ريب في انه سوف يُعنى ، حين يعتزل الحياة ، بحدائق

الدير . ولسوف يجد في ذلك متعة . »

ولم يلحظ اقتراب زوجته منه ، فوثب واقفاً في ذعر شديد عندما برزت أمامه بطلعتها البيضاء ، وكأنها نبعت من بطن الأرض . ولكن صوتها المألوف ما لبث أن هدّأ من روعه قليلاً :

« باسم المسيح ، إغفرْ لي صراخي . »

ـ « آه ، حسناً . يغفر الله لك . لقد صرخت انا ايضاً ، »

بذلك اجابها بيوتر في رفق وتلطّف ، وقد غمرت فؤادَه السعادة لأن زوجته جاءت تعتذر اليه ، ولأنه لم يعد في حاجة الى البحث عن كلمات لطيفة يسد بها الخلل الذي أحدثه نزاعهما .

وجلس بيوتر ، وجلست ناتاليا خَفِرةً الى جانبه . أجل ينبغي ان يصنع شيئاً لأمتاعها ومؤانستها . فقال :

«انا أدري ان حياتك مملة . فليس في البيت منها ما يسلي فؤادك . ومن اين تتيسر لك اسباب التسلية ؟ كان ابي يسلي نفسه بالعمل . وكان يعتقد اننا كلنا عمّال ، باستثناء الشحاذين وابناء الطبقة الرفيعة . كان يقول اننا كلنا نعيش لنعمل ، وان قيمة الانسان رهن بعمله ، وليست رهناً بشخصه . »

وكان بيوتر يتخير كلماته في عناية بالغة خشية ان يقول اكثر مما ينبغي . وحين وقعت كلماته في اذنه خيّل اليه أنه تكلم كرجل ذي وزن ، كصاحب عمل ، كسيد حقيقي . ومع ذلك فقد كان يراوده شعور بأن جميع هذه الكلمات كانت ، بطريقة ما ، غريبة او دخيلة ، وانها كانت تنزلق على سطح افكاره من غير ان تكشف عن حقيقتها لعجزها عن فهمها والنفاذ الى كنهها . وبدا له ، وكأنما

كان يجلس على حافة خليج ، ووراءه شخص قد يلقي به الى اللجة في كل لحظة – شخص استمع الى ما قاله وهمس :

« ليس هذا من الحقيقة في شيء . »

وفي الوقت المناسب وضعت زوجه رأسها على كتفه وهمست :

« على اية حال ، ان عليّ ان اعيش معك ، بقيةَ عمري كلها . لمَ لا تستطيع ان تفهم ؟ »

وعانقها في الحال وشدّها الى صدره مصيخاً الى همسها المنفعل :

« انه لأثمٌ ان لا تفهم . تتزوج من فتاة ، وتضع لك هذه الفتاة اولاداً ، وانت مشغولٌ عنها حاضرٌ كالغائب – ليس بين جنبيك حبٌ لي . انه لأثم يا بيتيا . هل يوجد احدٌ في العالم اقرب اليك مني ؟ من ذا الذي يمنحك العطف والمؤاساة حين تكون في امسّ الحاجة اليهما ؟ »

واحسّ وكأن زوجته قد رفعته وقلبته بطناً لظهر في الهواء مُفرغةً في اوصاله ضرباً من الخول اللذيذ ، ناقمةً اياها في برودةٍ مُحيية.. وبشعورٍ مجاورٍ للاعتراف بالجميل تمتم بيوتر :

« لقد وعدته بأن اعتصم بالصمت ، ولكني لا استطيع ! »

واعاد على مسمعها ، في عجلة ، كلّ ما حدّثه به حافر الخنادق عن نيكيتا :

« لقد قبّل قمصانك الداخلية وهي منشورة في الفِناء – لقد ذهب الى هذا الحد ! الم تعرفي ؟ الم تدركي كيف كان ذلك ؟ »

ولاحظ ان زوجته ترتعد ارتعاداً شديداً .

واستغرب بيوتر :

« اتأخذك الحسرة عليه ؟ »

فسارعت الى القول في حنق :

« لم اكن اعرف شيئاً قطّ ! يا له من مخـــلوقٍ متكتّم ! صحيحٌ ما يقولون : اصحاب الحدبات دهاة . »

وسأل آرتامونوف نفسَه :

« اهي مشمئزة فعلاً ام ان هذا كله تمثيل ؟ »

اما على مسمع من زوجته فقال :

« كان لطيفاً معك دائماً . . »

فأجابته في جرَاءة :

« حسناً ، وايّ بأس في ذلك ؟ ان تولون لطيفٌ ايضاً . »

— « صحيح ، ولكنّ تولون . . كلب . »

— « وهو ؟ لقد اطلقته من ورائي كما يُطلق الكلب تماماً لكي يترصدني ، ويحميني من ابيك وألكسي . لقد لاحظت ذلك جيداً . اوه ، شدّ ما كان بغيضاً اليّ ، مثيراً لاشمئزازي ! »

وواضح ان هذا الكلام اثار سخط ناتاليا وجرح كبرياءَها . لقد اعربت عن ذلك رِعْدتها ، واصابعها المرتعشة التي كانت تُنعن في بُردها الليلي فتلاً وجذباً . ولكنّ ذلك كله بدا في عيني الرجل تزيّداً ومبالغة ، فلم يطمئن قلبه ، وضرب ضربته الأخيرة :

« لقد حاول ان يشنق نفسه . لقد رآه تيخون . كان منطرحا على ارض الحمّام . »

وأسقط في يد زوجته ، وصاحت في ذعرٍ صريح :

« لا ! . . ماذا تقول ؟ يا إلهي ! »

وقال بيوتر في ذات نفسه :

« واذن فقد كانت تكذب .. »

ولكنها ردّت رأسها الى الوراء ، وكأن احداً صفعها على جبهتها ، وهمست وهي تسفح عبراتٍ غضبى :

« وماذا بعد ؟ لقد كان موت والدك هو الذي اسكت افواه الناس قليلاً ، ولا ريب في ان القيل والقال سوف يُستأنفان ، الآن ، من جديد - ومن اجل ايّ اثم ، يا إلهي ؟ أخ يحاول ان يشنق نفسه ، وآخر يتزوج فتاةً لا يعرف احد من هي ، يتزوج خليلته. أهكذا يفعل الناس؟ آه ، نيكيتا إيلييتش ، كيف اجترأت على هذا العمل المخجل ؟ اما أنت ، ايها الشيء الذي لا قلب له ، فألفُ شكرٍ لك على هذا اللطف ! »

وربت لزوج على كتف زوجته وهو يتنهد تنهّد المكروب وجد فَرَجاً :

« لا تقلقي . لن يعرف احد ما حدث . ان تيخون لن يتكلم فهو على صداقة معه ، فضلاً عن انه يأكل خبزه بواسطتنا . ان نيكيتا يعتزم ان يترهّب . »

— « متى ؟ »

— « لست ادري . »

— « اوه ، ليته يفعل ذلك عاجلاً ! بأي عينٍ اواجهه الآن ؟ »

وبعد صمت ، قال بيوتر :

« في استطاعتك ان تذهبي لتودّعية . »

ولكنها ارتدت مُجفلةً الى الوراء وكأنه قد ضربها وصاحت :

« لا ، لا ، لا تكلّفني ذلك – لن اذهب ! لست استطيع ! إني خائفة .. »

فسألها بيوتر في سرعة :

« خائفة من ماذا ؟ »

– « من الانتحارات . لن اذهب . لست أبالي بشيء . إني خائفة . »

فقال آرتامونوف ، وقد نهض على قدمين راسختين :

– « حسناً ، هيا الى النوم . لقد تحمّلنا من البلاء فوق ما ينبغي لامريء أن يتحمّله في يوم ٍ واحد . »

وإذ مشى في تؤدة الى جانب امرأته أحسّ أن هذا النهار قد حمل اليه ، بالأضافة الى شرّه ِ المُنْكَر ، شيئاً ذا شأن ، احسّ أنه هو ، بيوتر آرتامونوف ، كان رجلاً يتمتع بمزايا لم يكن يعرفها في نفسه قبل اليوم ، فهو بارعٌ جداً ، وهو داهيةٌ يُحْسِنُ التأتّي للأمور . وها هو ذا قد خدع في براعة ٍ إنساناً كان يُقلق روحه إقلاقاً موصولاً بأفكار ٍ غامضة .

وقال لزوجته :

« طبعاً ، انت ِ أقرب الناس اليّ . من يمكن أن يكون أقرب اليّ منك ِ ؟ اذكري ذلك جيداً : انك ِ الأقرب اليّ . وعندئذ يسير كل شيء سيراً حسناً . »

وبعد اثني عشر يوماً انقضت على تلك الليلة أطلّ الفجر على نيكيتا آرتامونوف ، وفي يده عصاً وعلى ظهره كيسٌ جلديٌّ كبير ، وقد أوسعَ الخطى عبرَ مجاز ٍ رملي ٍّ مُتَلَوٍّ صيّرهُ الندى

الكثيف قائماً – أوسعَ الخطى في خفةٍ ، وكأنه شديد التوق إلى أن يفرّ من ذكريات فراق أسرته . لقد اجتمعوا كلّهم والكرى يُثقل أعينهم ، في غرفة الطعام المحاذية للمطبخ . وجلسوا جلسةً جامدةً متصلّبة ، وتحدّثوا حديثاً جامداً متصلّباً ، وكان واضحاً أنّ أياً منهم لم تكن لديه كلمةٌ مفردة صادرة من القلب يقولها له . وكان بيوتر باديَ الحنان ، يكاد يغلب عليه الابتهاج شأنَ رجل وُفّق منذ لحظةٍ الى إتمام صفقة رابحة . ومرتين أو ثلاث مرات قال :

« حسناً ، سوف يكون لأسرتنا منذ اليوم متوسّلٌ خاصٌ يصلي من أجل غفران ذنوبنا وآثامنا . »

وصبّت ناتاليا الشاي ، في لامبالاة وفي استغراق في التفكير. كانت أذناها الصغيرتان المشبهتان أذني الفأرة محمرّتين احمراراً ملحوظاً ، وكانت طلعتها متغضنةً متجعّدة . كانت كئيبة محزونة الفؤاد ، وكانت كثيراً ما تغادر الغرفة . أما أمها فجلست صامتةً مفكّرةً ، تبلّل بين الفينة والفينة احدى أصابعها بلسانها وتسوّي شعرها الأشيب عند الصدغين . وأما ألكسي فكان هو وحده المنفعل ، على غير عادته ، فهو يهز كتفيه أبداً ، سائلاً أخاه :

« ما الذي حملك على ان تتخذ هذا القرار يا نيكيتا؟ وفي مثل هذه السرعة ايضاً ؟ لست أقضي العجب من ذلك ! »

والى جانبه كانت تجلس أولغا اورلوفا الضئيلة الجسم ، المحدّدة الأنف ،وقد رفعت أهدابها السّود وراحت تحدّق الى كلّ من في الغرفة من غير احتفال أو « كلفة » . ولم يُحبّ نيكيتا عينيها . فقد

كانتا كبيرتين جداً بالنسبة الى سائر وجهها ، وكانتا حادتين باكثر مما ينبغي لعيني فتاةٍ أن تبلغا من الحدّة ، وكانتا تغمزان في كثير من الأحيان .

كان من العسير على ناتاليا أن تجلس بين هؤلاء القوم ، وكان يعاودها أبداً هذا الخاطر القلق :

« لنفرض ان بيوتر أخبر كل واحد من هؤلاء بما حدث ؟ شدّ ما أتمنّى لو ينقضي هذا الموقف ! »

وكان بيوتر أول من نهض لتوديع أخيه . لقد عانقه وقال ، بنبرةٍ عالية جداً ، وفي صوته مخادعةٌ :

« حسناً ، أيها الأخ ، استودعك الله . . »

ولكنّ بابا كوفا صدّته عما هو بسبيله :

— « ما الذي تفكّر فيه ؟ يجب أن نجلس جميعاً ، قبل كل شيء ، ونُمسك عن الكلام فترةً ، وعندئذ ، بعد ان نكون قد أدّينا الصلاة ، نستطيع ان نودّعه . »

وفي الحال عملت الأسرة بمقتضى ما ذهبت اليه بابا كوفا . ونهض بيوتر كرة أخرى وتقدّم الى أخيه قائلاً :

« سامِحنا . أحِطنا علماً بأمر الوقف ، ونحن على استعداد لأن نبعث اليك المال ، في الحال . لا ترتضِ كفّارةً ثقيلة . استودعك الله . صلِّ دائماً من أجلنا . »

ورسمت بابا كوفا فوقه إشارة الصليب وقبّلت خديه وجبينه . ولسبب ما ، أنشأت تنشج وتبكي . وعانقه ألكسي عناقاً مُحكماً ونظر الى عينيه وقال :

« حسناً ، وفّقك الله . إن لكلّ امريء ان يتخذ السبيل التي يريد . ولكني لا استطيع ان أفهم لماذا اعتزمتَ فراقنا بهـــذه السرعة كلها . »

وبعدهم جميعاً تقدمت ناتاليا لوداعه . ولكنها وقفت على مسافة يسيرة منه وانحنت انحناءة ً دانيـــة ، وضغطت يدها على صدرها وقالت في صوتٍ مرتعش :

« استودعك الله ، نيكيتا إيليتش . »

كان ثدياها لا يزالان ناهدين كأثداء الفتيات ، على الرغم من إرضاعها اولاداً ثلاثة .

حسناً ، كان ذلك كلّ شيء . آه ، ولكنّ كان ثمـة أورلوفا أيضاً . لقد مدّت إليه يداً صغيرة حارّة ، يابســـة ً كقطعة من خشب . وبدا وجهها عن كثب اكثر بشاعة ، وسألته في حماقة :

« انعتزم أن تترهب فعلاً ؟ »

وكان قد وفد على فِناء الدار بضع عشرات من عمال المصنع العتق لتوديع نيكيتا . وصاح الشيخ الأصمّ ، بوريس موروزوف ، من بينهم وهو يهزّ رأسه في عزم :

« الجنود والرهبان – هؤلاء هم خدّام المجتمع الأولون ، تلك هي الحقيقة ! »

ودخل نيكيتا المقبرة ليودّع ضريح أبيه . حتى اذا بلـــغ الضريح وركع امامه لم يصلِّ ، ولكنه استغرق في تفكير عميق . ايّ تحوّل طرأ على الحياة ! وعندمـــا بزغت الشمس من ورائه مُلقية على حشائش القبر المندّاة ظلاً عريضاً على هيئة زاويةٍ ، يشبه

الى حدّ بعيد شكل زريبة «تولون» الجافية ، حتى نيكيتا رأسه الى الأرض وقال :

« إغفر لي ، يا ابي ! »

وسقط صوته كئيباً أجشّ في هدأة الصباح الرقيقة. وبعد أن صمت لحظة كرّر قوله بنبرة أعلى :

« إغفر لي ، يا أبي . . »

وانخرط في البكاء ناشجاً في مرارة ، وكأنه امرأة ، بسببٍ من فقدانه على نحوٍ فاجع لا يُحتمل صوتَهُ الذي كان في وقتٍ ما صافياً مرناناً .

ولما صار على نحو كيلو مترٍ بعيداً عن المقبرة ، أبصر ، فجأة ، حافر الخنادق واقفاً كما يقف الخفير بين الاشجار الملتفة القائمة على جانب الطريق ،وقد حمل مسحاةً على كتفه وشكّ فأساً في نطاقه.

وسأله تيخون :

« انت ذاهب ، اليس كذلك ؟ »

— « انا في طريقي الى الدير . ماذا تفعل هنا ؟ »

— « لقد خطر لي أن اقتلع شجرةمن أشجار الدردار لأزرعها قرب نافذتي . »

ووقفا لحظةً يتبادلان نظراتٍ صامتة. واخيراً حوّل تيخون عينيه الأنيستين عن نيكيتا وقال :

« تابع سيرك . سوف أصحبك في هذه الطريق مسافةً ما . »

وتقدّما في صمت . ثم إن تيخون كان السابق إلى الكلام :

« الأنداء هذه السنة تهبط ثقيلةً كثيفة . تلك علامة رديئة .

مثل هذه الانداء تعني القحط والمحل »
- « لا سمح الله . »
وغمغم تيخون بجوابٍ ما .
فسأله نيكيتا مرتاعاً بعض الشيء :
« ماذا قلت ؟ »
ذلك بأنه كان يتوقع دائماً أن يسمع من هذا الرجل كلماتٍ غير التي يسمعها من الناس ، كلماتٍ تُلقي في روعِهِ القلق والاضطراب .
- « قلتُ جائزٌ أن لا يسمح .. »
ولكن نيكيتا كان على مثل اليقين من أن حافر الخنادق قال شيئاً آخر لم يكن راغباً في أن يكرره .
فسأله مؤنباً :
« ولكن ، ألا تؤمن برحمة الله ؟ »
فأجابه تيخون في هدوء :
« وما الذي يحملني على أن أؤمن ؟ إن ما نحتاج اليه الآن هو المطر . وهذا الندى الكثيف ضارٌ بنبات الفطر ، أيضاً . الذي اعرفه أنه حين يكون هناك سيدٌ صالحٌ يتمّ كل شيء في إبّانه من غير تقديم أو تأخير ! »
وتنهّد نيكيتا وهزّ رأسه قائلاً :
« إن طريقة التفكير هذه غير ملائمة . »
- « إنها ملائمةٌ بمقدار كافٍ . أنا لستُ من اولئك الذين يفكرون بواسطة أعينهم . »

ومشى الرجلان خمسين خطوةً أخرى في صمت . وظلّ نيكيتا يحدّق بعينيه الى الارض متتبعاً ظله العريض . وقرعت اصابع فيالوف قبضةَ فأسهِ قرعاً رفيقاً متساوقاً مع خطاه .

– « أعتزم أنَ اقصد الى الدير لأراك، بعدعام أو نحو ذلك– هل أفعل ؟ »

– « اذا شئت . إنك فضوليّ . »

– « هذا صحيح . »

ووقف وخلعَ قبعته .

– « حسناً ، إذن أستودعك الله ، نيكيتا ايليتش ! » قال ذلك ثم حكّ خدّه وأضاف في تفكير :

« انا أحبك ، لقلبك الوديع . إن مواهب أبيك كانت كامنة في الجسد ، أما أنت فمواهبك كامنة في قلبك ، في روحك . »

وألقى نيكيتا عصاه وهزّ نفسه ليعدل وضع الكيس على حدَبته ، ثم عانق حافر الخنادق عناقاً صامتاً . فأجابه تيخون عن هذا العناق بضّمةٍ قاسية مكرراً ابداً في صوتٍ عالٍ :

« إذن فسوف اذهب ! »

– « شكراً . »

وعند المنعطف الحاد الذي تهبط الطريق بعده الى غابة الصنوبر ، تلفّت نيكيتا الى الوراء . كان تيخون واقفاً في منتصف الطريق ، متكئاً على مسحاته ، وقبعته تحت ذراعه ، وكأنه قد وطن النفس على ان لا يدع أحداً يمرّ . وهبّت احدى نسمات الصباح فنفشت الشعر على رأسه البشع .

ومن هذه المسافة كان تيخون يُحضر في ذهن الناظر اليه صورة انطونوشكا المجنون . وأغذّ نيكيتا آرتامونوف السير . ودارت افكاره على محور هذه الشخصية اللغز ، وبدا له وكأنه يسمع مرةً ومرةً :

« أوه ، المسيح قد قام ، قد قام ،
لقد فقدت العربة دولاباً ، فقدت دولاباً ... »



- ٢ -

لم يتمّ بناء الكنيسة التي شادتها أسرة آرتامونوف الا عند حلول الذكرى السنوية التاسعة لوفاة عميدها ، فكرّسوها لأيليا النبيّ . لقد تطاول العمل فيها تسع سنواتٍ ونيفاً . وكان المسؤول عن هذا البطء هو ألكسي .

— « في استطاعة الله ان ينتظر — ما الذي يجعله يستعجل ؟ »

هكذا كان الكسي يبرّر تراخيه في انشاء الكنيسة . ولقد حوّل الآجرّ المعَدّ لبنائها عن وجهته هذه مرّتين متواليتين : لينشيء بناية المصنع الثالثة ، اولاً ، وليشيد مستشفى ، ثانياً .

وبعد ان تمّ الاحتفال الخاص بالتكريس ، وأدّت الاسرةُ الصلاة عن روح ابيها وابنائها تمهّلت في المقبرة ريثما ينفضّ الحَشْد .

ثم انهم تجاهلوا ، في لباقة ، اوليانا بايما كوفا التي لم تنفصل قطّ عن الاسرة ، والتي آثرت ان تستريح قليلاً على مقعد خشبيّ طويل تحت أشجار السّندر ، واتخذوا سبيلهم ، في أناة ، الى المنزل . لم يكن ثمة داعٍ الى العجلة ، فقد حُدّدت الساعة الثالثة موعداً للغداء الذي دُعي اليه رجال الدين ، واصدقاء الاسرة ، والعمال .

كان نهاراً غائماً . وتجهّم وجه السماء كما يتجهم في ايام الخريف تقريباً ،وتنفّست ريحٌ رطبةٌ تَعِدُ بالمطر تنفّساً ضيقاً ، كفرس متعب ، عبر تيجان التنوب الفضي المتاوجة . وتدحرجت صُوَرٌ بشرية داكنة وهي تهبط مترنّحةً الجزء المحمرّ من الطريق الرملية المؤدية الى المصنع ، الذي بدت أبنيتُهُ الآجرية الثلاثة ، المشيدة فوق ثلاثة أشعةٍ من دائرةٍ واحدة ، قابضةً على الارض وكأنها أصابعُ قرمزيةٌ منشبةٌ أظفارها .

وأومأ ألكسي بعصاه وقال :

« كان الوالد جديراً بأن يسعد ويبتهج لو قُدر له أن يطّلع على مدى نجاحنا ! »

فأجابه بيوتر بعد ان فكّر لحظة — وكان لا يحبّ أن يقرّ أخاه على كل شيء يقوله :

« كان خليقاً بأن يحزن عندما قُتِل القيصر . »

— « حسناً ، إنه لم يكن مولعاً بالحزن . وكان يصطنع وسائله الخاصة لا وسائل القيصر . »

وأنزل ألكسي قبعته على جبينه وتمهّل قليـلاً ، والتفت الى الوراء ليلقي نظرةً على المرأتين . كانت زوجته ، الهزيلة الضئيلة

الجسم ، المرتدية ثوباً بسيطاً غامقاً ،تخطو خطواً وئيداً فوق الرمل المُوَطّأ ، ماسحة نظارتيها بمنديل . لقد بدت اشبه ما تكون بعلمة قروية الى جانب ناتاليا الممتلئة الفارعة الطول اللابسة معطفاً حريرياً اسود يزينه عند الكتفين صف طويل من الخرزات الزجاجية ومنديلاً ارجوانياً غامقاً يتلاءم وشعرها الكثيف الضارب الى الحمرة .

— « انّ امرأتك لتزداد ، مع الايام ، جمالاً . »

ولم يجب بيوتر بشيء .

— « لم يحضر نيكيتا ليشهد الذكرى السنوية، هذا العام ايضاً. أهو غاضب علينا أم ماذا ؟ »

كان ألكسي يستشعر ، في الايام الرطبة، ألماً في صدره ورجله فهو يعرج بعض الشيء ، ويتوكأ على عصاه . وكان تائقاً الى ان يمحو الانطباعة الكئيبة التي رانت على وجهه اثناء الصلاة عن روح ابيه وبعدها ، ويخفف من جهامة هذا النهار الغائم. وهكذا واصل الجهد ، في عناده المألوف ، لحمل اخيه على الكلام .

— « لقد تخلّفت حماتك عنا لتنشج وتنتحب . إنها لا تستطيع ان تَسْلوه . إنها لسيدة عجوز يندر ان يكون لها نظير . لقد همستْ في اذن تيخون ان ينتظر ليرافقها إلى البيت . إنها تشكو من تقاصر انفاسها ، وتقول إن المشي إجهاد . »

وفي صوت خفيض ، كأنما يصدر عنوة ، كرر بيوتر :

« إجهاد . »

— « هل أنت نائم ؟ أيّ شيء هو الجهد ؟ »

فأجاب بيوتر مُسرحاً نظره في شجرات التنوب الفضي الكثيفة

الشعر على جنبات التلال :

« يجب ان يُصرف تيخون من العمل . »

فتساءل أخوه في دَهَش :

« لماذا ? إنه امينٌ ، نظاميٌّ ، محبٌّ للعمل .. »

ـ « ومجنون ايضاً ... »

واقتربت المرأتان . وقالت اولغا لزوجها في صوت عذب ، قويٍّ الى حدٍّ مستغرب بالنسبة لضآلة جسمها :

« كنت أحاول إقناع ناتاشا بضرورة ارسال ايليا الى المدرسة ولكنها خائفة . »

وكانت ناتاليا حاملاً فهي تتهادى في مشيتها ذات اليمين وذات الشمال ، كبطةٍ مسمَّنة . ولم تكد تسمع الى كلام اولغا حتى اجابتها في بطء ، وبصوتٍ صادرٍ من الانف ، بما يتفق ومركزها بوصفها الزوجة الأكبر سنّاً :

« في رأيي أن هذه المدارس موضةٌ ضارّة . إن ايلينا تكتب في رسائلها كلماتٍ لا يفهم المرء منها ما تريد ان تقوله . »

ـ « المدرسة ، المدرسة ، يجب ان يوضعوا كلهم في المدرسة . »

قال الكسي ذلك في عزم ، ورفع قبعته ليمسح العرق المتصبّب على جبينه لقد ألمّ به صلعٌ مبكّر زحَفَ من الصدغين الى قمة الرأس فشكّل زاويتين حادّتين وأطال وجهه إطالةً كبيرة .

وناقشت ناتاليا هذه المسألة ، ملقيةً نظرةً متسائلة الى زوجها :

« إنّ بومبيالوف لمصيبٌ . هو يقول إن العلم يجعل الناس قساةً غلاظ القلوب . »

وهنا قال بيوتر :

« أجل ! »

فوقع السرور في نفس ناتاليا وقالت في لهجة المنتصر :

« وما تقول الآن ؟ »

ولكن زوجها ما لبث ان اضاف في رويّةٍ وتفكير :

« التعلّم في المدارس أمرٌ ضروريٌ . »

فانفجر اخوه واولغا ضاحكين . فما كان من ناتاليا الا ان خاطبتهما مؤنبةً :

« كيف تستطيعان ان تضحكا ؟ اذكرا من اين نحن عائدون ! »

وامسكا بذراعيها وراحوا يغذّون السير . ولكن بيوتر تباطأ قليلاً وقال :

« سوف انتظر امي . »

كان ذلك الرجل البغيض ، تيخون فيالوف ، قد أثاره . ذلك أن بيوتر كان قد القى نظرةً الى المصنع ، من ارض الجبـــانة ، قبيل اداء الصلاة عن روح ابيه ، فخاطب نفسه في صوتٍ عالٍ — لا اعتزازاً وزهواً ، ولكنْ على سبيل التعبير المجرّد عمّا رأى :

« لقد نما العمل وازدهر . »

ولم يكد يتلفظ بهذا الكلام حتى سمع ، من وراء ظهره ، حافر الخنادق السابق يقول بصوته الهادىء :

« العمل ينمو كالعفَن في مستودع المؤن ، بقوته الخاصة . »

ولم يقل بيوتر شيئاً ، بل لم يُدِر رأسه الى مصـدر الصوت . ولكن البلاهة الواضحة الشائنة التي اتسمت بهـــا كلمات تيخون

أثارت حنقه . إن الرجل لينكبّ على العمل ، مُعطياً مثـــات الناس خبزهم اليومي – إنه ليستغرقُ ليلاً ونهـاراً في التفكير في صناعته او تجارته حتى لينسى نفسه .. ثم يأتي مجنون جاهل ليعلن فجأة ان العمل يزدهر بقوته الخاصة ، لا نتيجةً للجهود التي يبذلها عقل صاحبه المصرّف لشؤونه ، وحيثما لقيت هذا المخلوق تجده يغمغم بشيء يتصل بموضوع الروح والاثم .

وجلس آرتامونوف في بعض الطريق على ارومة صنوبرة يابسة ، وانشأ يشدّ أُذنه . لقد ذكر كيف شكا لأولغا ، ذات يوم ، حـاله :

« لست اجد قطّ متسعاً من الوقت للتفكير في روحي . »

فألقت عليه سؤالاً غريباً :

« ولكن هل تعيش روحك مستقلة عنك ؟ »

لقد اعتبر هذه الكلمات باديء الامر دعابة من دعابات النساء . ولكنّ سيما من الجد كانت تطفو على وجه اولغا الشبيه بوجه الطير ، وكانت عيناها السوداوان تبرقان من وراء نظارتيها بريقاً لطيفاً . فقـال :

« لستُ افهم . »

– « وانا لا افهم ايضاً عندما يتكلم الناس عن الروح في معزلٍ عن الشخص ، وكأنها طفلٌ لقيط . »

– « لست افهم . » كذلك كرّر بيوتر كلامه السابق وفقد كل رغبةٍ في التحدث مع هذه المرأة . كان يستشعر انها غريبـــة جداً عنه ، وانه لا يكاد يفهمها . ومع ذلك فقد كانت بساطتهـا

تجذبه ، وان كان يخشى ان تكون هذه البساطة الظاهرية مجرّد ستارٍ يختفي وراءه دهاء كثير .

أما تيخون فيالوف فكان بيوتر يكرهه عُمْرَهُ كله. كان يؤذيه مجرد النظر الى وجهه المرقش ، وعظمَيْ وجنتيه العاليين، وعينيه الغريبتين ، وأذنيه المُلْصقتين بجمجمته إلصاقاً مُحكماً والمختبئتين نصف اختباء في شعره المحمرّ ، والى لحيته الخفيفة المتفرقة ومشيته غير السريعة ولكن الفعالة ، وكامل هيئته الخشنة الغليظة . وكان اطمئنان تيخون شيئاً مزعجاً أيضاً ، يثير في نفس المرء ضرباً من الحسد . وحتى انكبابه على العمل كان مثيراً . كان يعمل كالآلة غير مُفسح أيما مجالٍ للنقد والتعنيف ، ولكن هذا أيضاً كان شيئاً مزعجاً . وكان ادعى من ذلك كله الى الأثارة والازعاج أن هذا الرجل الذي وثّقت الأعوام صلته بأفراد الأسرة كان يحسب نفسه في ما يبدو،شعاعاً لا يستغنى عنه في دولاب حياة آل آرتامونوف . ومن عجب أن الاطفال أحبوه ، كما أحبته الكلاب والخيل سواء بسواء . كان تولون ، الكلب الذئبيّ العجوز،إذا ما قيّد بالسلاسل وعصفت به الثورة من أجل ذلك ، لا يدع أحداً يقترب منه غير تيخون . وكان نجل بيوتر الأكبر ، ايليا الصعب القياد ، يطيع تيخون اكثر مما يطيع أمه وأباه .

ولكي يتخلّص بيوتر من رؤية فيالوف عرض عليه ذات يوم عملاً آخر كأن يكون حارساً للكنيسة او مراقباً للأحراج. ولكن تيخون هزّ رأسه الثقيل رافضاً هذا العرض :

« لست اصلح لذلك . اذا كنت تعباً مني فاسترح قليلاً.

أعطني إجازة شهر ، وعندئذ أذهب لزيارة نيكيتا إيليتش . »

كان ذلك ما قاله بالحرف الواحد : إسترح قليلاً . هذه العبارة البلهاء الوقحة ، المواكَبَةُ بتذكيرٍ له بأخيه المختبيء في مكانٍ بعيدٍ خلف المستنقعات ، وسط ديرٍ فقيرٍ من أديار الغابة ، اثارت في رأس بيوتر شكّاً ممضّاً . يجب ان يكون هناك، الى جانب الحكاية التي رواها له تيخون عن محاولة نيكيتا الانتحار ، شيء آخر ، شيء معيبٌ يعرفه هذا الرجل . لقد بدا وكأنه ينتظر مصائب جديدة ؛ وكأن عينيه الخافقتين تنصحانه بقولهما :

« أبْعِدْ يديك عني . أنت في حاجة اليّ . »

لقد زار تيخون الدير ثلاث مرات ، قبل اليوم . كان يلقي كيساً على ظهره ، ويحمل عصاً في يده وينطلق متمهلاً وكأنه يطأ الثرى تعطفاً وتلطفاً . والحقّ أن كل عملٍ يقوم به تيخون كان يبدو وكأنه يُعمَل بدافع التفضّل والأحسان .

وكان تيخون ، اذا ما رجع من زيارته للدير ، لا يجيب عن الاسئلة الموجهة اليه في ما يتصل بنيكيتا ، غير إجابات غامضة . وهكذا يخطر في بال السامع دائماً أنه لم يكن يُدلي بكل مايعرف .

— « إنه في حال جيدة . محترم . يشكركم على رسائلكم وهداياكم . »

فيسأله بيوتر محاولاً ان ينتزع منه اكثر من ذلك :

« عمّ يتحدث وماذا يقول ؟ »

— « وما يستطيع راهب أن يقوله ؟ »

وهنا يتدخل ألكسي بفروغ صبر :

« حسناً ، ماذا ؟ »

– « إنه يتحدث عن الله . وهو معنيّ بأحوال الجوّ – يقول إن الأمطار لا تهطل في الوقت الذي ينبغي ان تهطل فيه . وهو يشكو البعوض . ان عندهم جيشاً من البعوض هنــــاك . وقد سألني عنكم . »

– « ماذا ؟ »

– « إنه متحسّر عليكم . »

– « علينا ؟ لماذا ؟ »

– « لانـــكم تعيشون في حركة موصولة وهو ساكنٌ لا يتحرك . حسناً ، وهو متحسر عليكم لأنكم غير مطمئني البال . »

فيصيح ألكسي مقهقهاً :

« أيّ هراء ! »

وكان بؤبؤا تيخون يتقاصان ، وكانت عيناه تغدوان باهتتين :

« حسناً ، لستُ أدري ما هي آراؤه . إني انقل اليكم ما قاله. اني رجلٌ بسيط . »

فيجيبه ألكسي ساخراً :

« اجل ، انت بسيط ... مثل انطون الأبله . »

وهبت نسمة غلّفت بيوتر آرتامونوف بدفءٍ فاغم . وراق الجوّ . وانفرجت هوة زرقاء بين السحب فيما كانت الشمس تبزغ من اعماقها اللانهائية . وتطلّع بيوتر الى الشمس ، حتى اذا ارتدّ بصره خاسئاً حسيراً ازداد استغراقاً في التفكير .

كان مما يرمض فؤاد بيوتر ان نيكيتا بعد ان اودع صندوق

الدير ألف روبل وضَمِنَ لنفسه دخلًا سنوياً مقداره مئة وثمانون روبلًا قد تنازل عن حصته من الارث لأخويه .

وهدر بيوتر :

« من يُقدم على مثل هذا الصنيع ؟ »

ولكن ألكسي كان سعيداً بذلك فقال :

« وماذا تريده ان يعمل بالمال ؟ أيسمّن به هؤلاء الرهبان الذين لا يأتون عملًا ؟ لقد كان مصيباً في الموقف الذي اتخذه . ان عندنا صناعةً ، واولاداً . »

وغلب التأثر على ناتاليا ، ثم قالت في ارتياح وهي تمسح دمعة وحيدة سقطت على خدها الوردي :

« واذن فهو لم ينسَ الاساءة التي وجهها الينا . تلك هي بائنة ايلينا . »

واقلق هذا العمل بال بيوتر ، ذلك بأن اعتكاف نيكيتا في لدير قد فسّرَ في البلدة تفسيرات خبيثة تُسيءُ الى سمعة الاسرة اساءة كبيرة .

اما علاقات بيوتر بألكسي فكانت جيدة وان لم يَفُتْهُ أن اخاه الذكي الفؤاد ، السريع الخاطر ، قد اختار لنفسه الجزء الايسر من العمل : رحلة الى السوق السنوية في نيزني نوفغورود ، وزيارة لموسكو مرةً او مرتين كلّ عام . وكان الكسي يروي حالَ عودته من هذه الرحلات حكايات مُذهلة عن غنى اصحاب المصانع الموسكوفية .

« انهم يعيشون في ترفٍ باذخ لا يَقلّ بحالٍ عن ترف الطبقة النبيلة »

فيقول بيوتر :

« من اليسير على المرء ان يعيش كما يعيش اللورد . »

ولكن كلماته هذه كانت لا تلقى صدىً في نفس أخيه فيواصل كلامه في حماسة :

«وعندما يبتني احد التجار بيتاً تجد ذلك البيت أشبه بكاتدرائية . إنهم يعلّمون اولادهم في المدارس . »

وعلى الرغم من تقدّم السنّ به فقد وُفّق الى استرجاع الحيوية التي عمرَت قلبه في صباه الأول ، والتمعت عيناه الحديـــدتان ببريقٍ صافٍ .

وكان يسأل أخاه :

« لماذا تخلع على وجهك دائماً العبوس الجاهم ؟ »

ويعظه في بعض الأحيان بقوله :

« ينبغي ان يباشر المرء عمله الصناعي او التجاري بروح مـن الظرف والطرب . إن العمل لا يحتمل الضجر . »

وكان بيوتر يلاحظ أن ألكسي يشبه أباهُ في خصال كثيرة . ولكنه كان يزداد عجزاً عن فهمه ، يوماً بعد يوم .

– « انا رجل مريض » ، هكذا كان ألكسي لا يفتأ يذكّر افراد الأسرة . ومع ذلك فلم يكن يُعنَى ايما عناية بأمر صحته : كان يسرف في الشراب ، ويجلس الى موائد القمار ليلةً إثر ليلة ، ولا يجد حرجاً في الاختلاط بالسيدات ومداعبتهنّ . فـأي شيء يمكن أن يُعتبر بؤرة الشعاع في حياته ؟ الظاهر ان هذه البؤرة ما كانت شخصه هو ولا بيته . فقد كان منزل بابا كوفا في حاجـــة ماسّة – منذ زمن بعيد – الى الأصـــلاح ، ولكنّ ألكسي لم

يُلقِ اليه بالاً . وقد وُلِد اولاده ضعاف البنية ، وماتوا قبل أن يبلغوا الخامسة من العمر ، باستثناء واحدٍ منهم هو « ميرون » ، وكان فتىً ضخم العظام بشعاً ، يكبر ابن عمه إيليا بثلاث سنوات وكان كلٌ من الكسي وامرأته مصاباً بشرهٍ مضحكٍ للاشياء التي لا غَناءَ فيها . فكانت غرفها تغصّ بتشكيلة غير متناغمة من الأثاث المشترَى من الطبقة النبيلة ، وكانا مولعين بأهداء بعضه الى أنسبائها . فقد أعطيا ناتاليا خزانة ثياب غريبة مزركشة بخزفٍ صينيّ ، وقدّما الى أمها كرسيّاً كبيراً ذا ذراعين مصنوعاً من الجلد وسريراً فخماً مصنوعاً من خشب السندر الكاريلي ومزخرفاً بالبرونز . وكانت أولغا بارعةً في إبداع الصور المُخرّزة ، ومع ذلك فقد كان زوجها يحمل اليها صوراً من هذا الضرب كلما عاد من رحلاته إلى مختلف أمصار المقاطعة .

— « أنت مجنون ! » كذلك قال بيوتر عندما أراه أخوه مكتباً ضخماً محفوراً حفراً متداخلاً ومزوّداً بعددٍ كبير من الأدراج . ولكن ألكسي ربّت على المكتب وصاح :

« إنها تحفة رائعة ، وامثال هذه التحف لم تعد تُصنع في هذه الأيام . إنهم يعرفون ذلك ، في موسكو . »

— « كان من الخير لك أن تشتري بعض الفضة . ان عند النبلاء لمقادير ضخمةً من هذا المعدن . »

— « أمهِلني قليلاً — سوف اشتري كل شيء ! في موسكو . . . »

واذا كان لنا أن نصدّق ألكسي فقد كانت موسكو تعجّ بأقوام مُخبَّلين لا تلهيهم التجارة والصناعة بقدر ما يلهيهم ما

ينفقون من جهدٍ للعيش كما يعيش النبلاء ، فهم من اجل ذلـــك يشترون كلّ ما ترغب الطبقات الرفيعة في بيعه، من بيوت الأرياف إلى اكواب الشاي .

وكان بيوتر يحسّ كلما زار أخاه ،بفيض من الحبور ليس يجده في بيته هو ، فيأخذه من جراء ذلك حسدٌ ممضّ . والحقّ أنه ما كان يـــدري لذلك سبباً . بل إنه لم يكن يدري ما الذي كان يعجبه في أولغا . فأمام ناتاليا، كانت تبدو أشبه ما تكون بخادمة، ولكنها ما كانت لتظهر جزعاً سخيفاً من قناديل الكاز ،ولم تكن تعتقد أن الكاز يستخرجه العلماء من دهن الانتحار . كان صوتها الرقيق عذباً ، وكانت عيناها جميلتين ، لا تشوّه النظارتان بريقَهما اللطيف ، ولكنها كانت تتحدث عن الناس والأشياء في صبيانية مُغْضِبة وكأنها تنظر إليهم من بعيد . وكان ذلك يثير ارتباكه وحنقه ، فيسألها في سخرية :

« ألا تستطيعين أن تؤمني بأن أحداً يجب ان يُلام على شيء مــا ؟ » .

فتجيبه أولغا :

« يجب ان يُلام الناس ، ولكني لا أحب أن أدينهم . »

ولم يصدّقها بيوتر .

وكانت تسلك مع زوجها وكأنها اكبر منه سنــاً ، وأرجح عقلاً . ولم يكن ألكسي يجـــد في ذلك أذىً ما . كان يدعوها « يا عمتي » وكان نادراً ما يهتف ، في ظلّ من التضايق :

« كفى يا عمتي ، لقد تعبت ! انا رجـــلٌ مريضٌ وليس من

بأسٍ في أن أنَعَّم قليلاً . »

– « ولكنك منعَّمٌ وزيادة ! »

وكانت تبسم لزوجها بسمةً كان بيوتر يتمنى لو يراها على شفتي امرأته هو . كانت ناتاليا زوجةً نموذجية ، وربة بيت بارعة . كان لا يُشق لها غبار في صنع المخلّلات من الخيار ونبات الفطر ، وفي عمل المربّيات المختلفة ، وكانت الخادمات يعملن في بيتها كدواليب الساعة . ولقد احبت ناتاليا زوجها حباً لا يتطرّق اليه الفتور ، حباً هادئاً كثيفاً كقشدة اللبن . وكانت مقتصدة حسنة التدبير.

كانت تسأل زوجها :

« كم صار معك في البنك ؟ »

ثم تضيف في لهفة :

« هل انت واثق من أنه بنك جيّد وليس عرضة للافلاس ؟ »

وكانت اذا مسّت المال يتجهم وجهها الحلو ويقطّب . كانت تضغط احدى شفتيها التوتيّتين على الاخرى ، ويلتمع في عينيها بريقٌ ضبابيّ لاذع . حتى اذا عدّت القطع الورقية القذرة المختلفة الالوان اطبقت اصابعها الممتلئة عليها ، في حذر ، وكأنما تخشى ان يتطاير المال كما يتطاير الذباب .

وكانت تسأل بيوتر في الفراش ، بعد ان تتخمه بمداعباتها وملاطفاتها :

« أنت وألكسي – هل تقتسمان الأرباح قسمةً عادلة ؟أواثق أنت من أنه لا يخدعك ؟ إنه لذكي ! وهما شرهان ؛ هو وزوجته. إنهما يخطفان كل ما تقع عليه أيديهما ، يخطفانه وحسب ! »

وكانت تتوهم أنها محاطة ٌ بعصبة ٍ من المخادعين الغشّاشين وتقول :

« انا لا استطيع أن أثق بأحد غير تيخون . »

فيهمس بيوتر متضجراً :

« اذن فأنت تثقين بمجنون . »

— « إنه مجنون ، ولكنه صاحب ضمير . »

وحين اصطحبها بيوتر أول مرة ٍ الى السوق السنوية في نيزني نوفغورود سألها وقد أخذها الدَهَش لعظمة هذه السوق التي يقبل عليها التجار من أرجاء الروسيا كلها :

« كيف وجَدْتِها ؟ »

فأجابته قائلة :

« رائعة . كل شيء موفور فيها ، وبأسعار أرخص من الأسعار عندنا . »

وأخذت تعدّد الأشياء التي يتعيّن عليهما شراؤها :

« خمسون رطلًا من الصابون ، صندوق من الشمع ، قليلٌ من قوالب السكّر ، وكيسٌ من السكّر الحُبَيْبيّ . . »

وفي السيرك غطّت عينيها حين برز اللاعبون البهلوانيون :

« يا لهم من مخلوقات لا تخجل ! أوه ، انهم نصف عراة ! أوه يجب أن لا انظر اليهم ، وأنا حامل . ينبغي أن لا تأتي بي الى هذه المواطن المخيفة — لعلّ هذا الذي في بطني غلام ! »

وفي مثل هذه اللحظات ، كان بيوتر يستشعر أنه يختنق بضجر أخضر لزجٍ كذلك الطين الذي في نهر فاتاراكشا ، حيث لا يعيش غير السمكة البدينة البلهاء .

وأقامت ناتاليا على الصلاة كعهدها في الأيام الخالية ، وبالروح التجارية نفسها ، حتى اذا أدّت صلواتها اندسّت في الفراش وطفقت تحرّض زوجها على الاستمتاع بجسدها الناعم البضّ . كانت تفوح من بشرتها روائح بيت المؤونة حيث تضع جرار المخلّل ، والسمك المقدّد ، ولحم الخنزير المجفف . وكان بيوتر لا ينفك يشعر أن رغبة زوجته عارمة ، وأن ملاطفاتها تستنزف قواه ، فيقول :

« دعيني وحيداً . أنا مُتْعَب . »

فتجيبه مذعنةً :

« إمضِ الى النوم ، اذن . وليبارككَ الله ! »

وتغرق هي في نومٍ عاجل ، وقد انحرف حاجباها كما يفعلان في حال الدهش والاستغراب ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ وكأن عينيها المغمضتين كانتا تشهدان رؤيا غريبة لم تريا مثلها من قبـــل .

وكان بيوتر يُكره نفسه ، في تلك اللحظات التي يدرك فيها نفوره من ناتاليا ادراكاً واضحاً ، على ان يتذكّر ذلك اليوم الراعب الذي وُلد فيه ابنهما البكر . فبعد ثماني عشرة ساعة من الكرب المتطاول قادته حماته ، مذعورةً دامعةً ، الى غرفة يرين عليها جوٌّ رصاصيٌّ غريب . كانت زوجته تتلوّى عـــلى الفراش المتغضّن ، وكانت عيناها جاحظتين يعصف بهما ألمٌ مرمضٌ ، وقد تَشَعّثَ شعرها ، وتفصّد العرق من وجههـــا ، فهي لا تكاد تُعْرَف . وما إن رأته حتى بادرته بصيحة آبدة :

« بيتيا ، وداعاً ، إني أموت . سوف يكون المولود صبياً . .

بيتيا إغْفِرْ .. »

كانت شفتاها المعضّضتان متورمتين الى درجة بالغة فهما لا تكادان تقدران على الحركة ، وكانت الكلمات لا تنبعث في مايبدو من حنجرتها ، ولكن من بطنها المنتفخ انتفاخاً هائلا ، الى حدّ الانفجار ؛ وكان وجهها الأرجواني منتفخاً ايضاً . وكانت تلهث كما يلهث الكلب المتعب ، وكالكلب ايضاً أخرجت لسانها المتورّم الممزّق . لقد أمسكت بشعرها ، وأنشأت تشدّه وتقطّعه . وواصلت الانين والصياح وكأنها تحاول ان تُقنع أو تقهر أحداً لا يريد أو لا يستطيع أن يمنحها ما تبتغي :

« ص . . بي ! »

كان نهاراً ذا رياحٍ وعواصف . وترنّحت احدى شجرات الكرز وتمتمت خارج النافذة ، ملقيةً ظلالاً راقصةً على زجاج النوافذ . ورأى بيوتر حركاتها التهريجية ، وسمع حفيف أوراقها.

وفي هياج ، صاح :

« أسدلوا السّتارة ! ألا ترون ؟ »

وولى مذعوراً تتبعه صيحات المرأة :

« آآآ ... »

وبعد ساعة ونصف قادته حماته كرّةً اخرى ، وهي عاجزة عن الكلام من فرط السعادة والتعب ، الى فراش زوجته . وتطلعت ناتاليا إليه ومجدُ الاستشهاد السماويّ يلمع في عينيها ، وقالت في وهن وشبه سُكْر :

« صبيّ ! وَلد ! »

فانحنى فوقها ، وضغط خدّهُ على كتفها ، وتمتم :

« حسناً ، أماه ، أنا لن أنسى هذا ما دمت حياً . أستطيع أن اصرّح لك بذلك ! حسناً ، شكراً جزيلاً ! »

كانت اولَ مرة ناداها فيها بقوله « أماه » . لقد اجتمع خوفه كله ، وفرحه كله ، في هذه الكلمة المفردة . وأغمضت عينيها ، وراحت تربت على رأسه بيدٍ ضعيفة ثقيلة .

— « إنه عملاق ! » كذلك قالت القابلة العظيمة الأنف المجدورة الوجه وهي تستعرض الوليد في زهو واعتزاز وكأنها هي التي وَضَعَتْه . ولكن بيوتر لم يرَ ابنه . كان لا يستطيع ان يرى شيئاً غير وجه زوجته المومیائي وغير الحفرتين المظلمتين اللتين حلّتا محلّ عينيها .

— « هل ستموت ؟ »

فأجابته القابلة ذات الوجه المجدور ، في لهجة مرحة :

« كلام فارغ ! لو مات الناس من هذا لما كان ثمة قوابل .. »

لقد بلغ « العملاق » الآن التاسعة من عمره . إنه فتى صحيح البنية طويلٌ ذو جبين فخور وأنفٍ حميٍّ ، ووجه تنيرهُ عينان كبيرتان رصينتان مصبّغتان بلونٍ أزرق غامقٍ صافٍ . كانت لأم ألكسي مثل هاتين العينين ، وكذلك كان لنيكيتا مثلها . ووضعت ناتاليا صبياً آخر ، دَعَوه ياكوف ، بعد عام من مولد أخيه . ولكن ايليا لم يكد يبلغ الخامسة من العمر حتى جعل نفسه أهمّ شخصٍ في المنزل . كان موضع تدليل الجميع ، فنشأ لا يعرف الطاعة لأحد ، وعاش حياةً مستقلة مورّطاً نفسه توريطاً

موصولاً في مشكلاتٍ متعبةٍ وخطرة . وكان أذاه لا يصيب في معظم الاحيان افراد العامة ، وهذا ما كان يثير في ابيه شعوراً مجاوراً للفخر .

وذات يوم وجد بيوتر ابنه في السقيفة يحاول ان يشدّ دولاب احدى العربات الصغيرة الى حوض خشبيّ طويل ، فسأله :

— « ماذا تعمل ؟ »

— « مركباً بخارياً . »

— « انه لن يمشي . »

فقال الابن بروح جده الجبارة :

« سوف اجعله يمشي ! »

واذ اخفق بيوتر في اقناع الصبي بأن جهده سوف يـــذهب ادراج الرياح قال في ذات نفسه :

« عنيد كجدّه . »

وكان ايليا جَلْداً في العمل على اخراج ما يجول في خـاطره الى حيّز التنفيذ ولكنه اخفق ، برغم محاولاته كلها ، في بنـــاء مركب بخاري من ذلك الحوض العتيق ودولابين من دواليب العربات . ثم انه علق عدداً من دواليب القصدير على جوانب الحوض وجره الى النهر ، وهناك ركب متنه ، فعلق في الوحل . وبدلاً من ان يأخذه الذعر اكتفى بان نادى بعض النسوة اللواتي كن يغسلن الثياب على ضفة النهر :

« هاي ، ايتها السيدات ! إرفعنني والا غرقتُ ! »

وصفعت ناتاليا ابنها على وجهه ، وحطّمت الحوض لتجعل منه

طعاماً للنار . ومن ذلك الحين صار ايليا لا يولي امه من الاحترام إلا بقدر ما يولي اخته الصغيرة ، تانيا ، البالغة من العمر سنتين . كان ابداً في شغل شاغل : يقطّع الخشب بالمدية ، ويجزِّئه قـدداً قدداً ، يحطم الاشيـاء حيناً ويصلحها حينا . وكان ابوه يقول في نفسه ، وهو يراقبه :

« سوف يكون شيئاً في المستقبل . سيكون بنّاء . »

وكان ايليا يتجاهل اباه اياماً بكاملها في بعض الأحيان . وفجأة كان يهرع الى مكتبه فيتسلق ركبتي بيوتر ويقول :

« إحكِ لي حكاية . »

– « ليس عندي وقت . »

– « وكذلك انا ... »

ويكتم الاب ضحكته ويزيح اوراقه جانباً :

– « حسناً ، إذن . كان في قديم الزمان ... »

– « انا اعرف كل شيء عن قديم الزمان . احكِ لي حكايةً مضحكة . »

ولم يكن الاب يعرف أياً من الحكايات المضحكة :

– « من الافضل ان تذهب الى جدتك . »

– « انها مصابة بزكام . »

– « حسناً ، اذن ، جرّب امك . »

– « اخاف ان تغسل لي وجهي . »

وضحك آرتامونوف . كان ابنه هو الشخص الوحيـــد الذي يستطيع اضحاكه في مثل هذا اليسر وهذه الطبَيعية .

ـ «اذن ، سوف اذهب الى تيخون .» قال ايليا ذلك وحاول ان ينزل من على ركبتي ابيه ، ولكن بيوتر امسك به وقال :

ـ « وما الذي يحكيه لك تيخون ؟ »

ـ « كل شيء . »

ـ « حسناً ، ولكنْ ماذا ؟ »

ـ « انه يعرف كل شيء . كان يعيش في « بالاخنا » . انهم يبنون مراكب كبيرة هناك ، وزوارق . »

وعندما وقع ايليا من مكان ما وقعة اسالت الدم من وجهه ضربته امه صائحة :

« لا تتسلق سطوح المنازل ، والا اصبحت كسيحـــاً ، أو أحدب ! »

وشاع الدم في وجه الصبي ولكنه لم يذرف دمعة ، بل اكتفى بتهديد امه :

« سوف اموت فوقك اذا ما ضربتني مرةً اخرى ! »

واخبَرَت أباه بهذا التهديد ، فأغرب في الضحك وقال لها :

« لا تضربيه . ابعثي به اليّ . »

وأقبل الصبي ووقف في المجاز ، شابكاً يديه خلف ظهره . ولم يكد أبوه يرى اليه حتى غلب عليه الفضول والحنان الغامر ، فسأله :

« لماذا تعامل امك بهذه الخشونة ؟ »

فأجابه الصبي مغضباً :

« انا لست مجنوناً . »

ـ « لو لم تكن مجنوناً لما كنتَ خشناً جافياً . »

– « لأنها تضربني . تيخون يقول : المجانين وحدهم يُضرَبون . »

– « تيخون ؟ تيخون نفسه ... »

ولسببٍ مــــا تردد بيوتر في وَصم تيخون بالجنون . وراح يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ناظراً الى هذا الكائن البشري الواقف في المجاز ، ومتحيراً لا يدري ما يقول :

« أنت تضرب أخاك يا كوف . »

– « انه مجنون . وفضلاً عن ذلك فالضرب لا يؤذيه . إنــه سمين . »

– « حسناً ، ولنفرض انه سمين ، فهل يعني ذلك أن تضربه؟»

– « إنه شَرِه . »

وأحسّ بيوتر بأنه لا يستطيع ضَبْط ابنه ، وأن ابنه يعرف ذلك . ولو قد شدّ أُذُنَي الولد اذن لكانت المسألة أيسر ولعاد ذلك على ابنه بحظٍّ اكبر من الخير . ولكنه ما كان يستطيع ان يرفع يده الى ذلك الرأس الجعد ، الأثير على قلبه الى حدّ بعيد . لقد جعله مجرّد التفكير في العقــاب ضيّــق الصدر أمام النظرات الهادئة المترقّبة التي انبعثت من تينك العينين الزرقاوين المحبوبتين . وتدخلت الشمس في الأمر ، أيضاً . فبطريقة مــــا ، كانت نزعة ايليا الى الأذى تقوى دائماً في الأيام المشمسة . وإذ وجّه بيوتر الى ابنه كلمات اللوم والنصح المألوفة ، تذكّرَ تلك الأيام التي كان هو نفسه يتلقّى فيها هذه النصائح عينها ، وكيف أنها عجزت عن ان تنفذ الى قلبه ، وترسخ في ذاكرته ، مثــــيرةً في نفسه الضجر ، وبكلمة موجزة ، الخوف ، ليس غير . ولكنّ الصفعــات ، حتى

ولو كان يستحقـّها أحسن استحقاق ، ما كانت لتُنْسَى في سهولة. ذلك ، أيضاً ، ما كان يعرفه بيوتر آرتامونوف معرفةً جيدة .

وكان ابنه الثاني ، ياكوف البدين المتورّد الخدّين ، يشبه أمّه. كان كثيراً ما يبكي ويصرخ واجداً ، على ما يبدو ، متعةً خاصة في ذلك . وكان يقدّم لعملية البكاء بشيء من التخير ، يعقبه انتفاخ في خديه ، وفركٌ لعينيه بجُمْع اليدين . كان مُفزّعاً جباناً . وكان يأكل كثيراً وفي شره ، حتى إذا امتلأ نام أو تشكّى :

« ماما ، أنا تعب . »

وكانت البنت الكبرى لا تقيم في المنزل إلا أشهرَ الصيف . لقد أصبحت سيدة صغيرة ، حذرةً غريبة .

وكان ايليا قد بدأ يدرس ، منذ بلوغه السابعة من عمره ، على الكاهن « غليب » . ولكنه لم يكد يكتشف أن ابن محاسب المصنع نيقونوف ، كان يتعلّم القراءة في كتاب ابتدائي مصوّر يدعى « لغتنا القومية » بدلاً من كتاب المزامير ، حتى قال لأبيه :

« لن أدرس بعد اليوم . إن لساني يؤلمني . »

وبعدَ استجوابٍ طويل ودقيق صرّح بقوله :

« إن باشا نيقونوف يتعلم لغتنا الخاصة وأنا أتعلم لسان قوم آخرين . »

ولكن هذا الفتى الحيّ الذكي الفؤاد كان يجلس وحيداً ساعات بكاملها في بعض الأحيان – وكأنما يعوقه حاجزٌ داخليّ ما – تحتَ إحدى شجرات الصنوبر القائمة على الكثيب ، وينفق الوقت في إلقاء الأكواز اليابسة الى مياه الـ « فاتاراكشا » الخضراء الموحلة .

— « إنه ضَجِر . » كذلك كان يفكّر أبوه كلما رآه على هذه الحال . لقد كان هو أيضاً ، بعد أن يسلخ اسابيـــع وأشهراً في دوّامة العمل المرهق ، يجد نفسه فجأةً غارقاً في ضباب كثيف من الأفكار المبهمة ، في حيرة عمياء من الضجر . بل انه لم يكن قادراً على أن يعرف أيها أدعى إلى الأذهال وإضاعة العقل : هموم العمل الصناعي أم الضجر الذي توقعه في النفس هذه الهموم الرتيبـــة ؟ وكثيراً ما يستشعر ، في مثل هذا اليوم ، بطلائع كرهٍ لمن يلتقيهم من الناس — هذا بسببٍ من نظرة شَزْرة ، وذاك بسببٍ من كلمة لم يُحْسَن اختيارُها . وهكذا استشعر ، في ذلك النهـــار الغائم ، أنه يكاد يكره تيخون فيالوف .

كان فيالوف يقترب ، وحماة بيوتر متكئةٌ على ذراعه ، عندما سمعه آرتامونوف يقول :

« نحن آل فيالوف نؤلف أسرة ضخمة . . »

فسأله بيوتر وهو يتقدم اليهما ويمسك بيد بابا كوفا الأخرى :

« واذن فلماذا لا تعيش مع أقربائك ؟ »

ولم يُحِرْ تيخون جواباً ، وواصل السير . فكرّر آرتامونوف سؤاله في تجهّم وإلحاف . وعندئذ ضيّق تيخون عينيه اللتين لا لون لهما وأجاب في غير مبالاة :

« ولكنْ ، لم يبقَ أحدٌ منهم . لقد خُدِعوا جميعاً . . »

— « ماذا تعني بقولك : خُدِعوا جميعاً ؟ من الذي خدعهم ؟ »

— « لقد أُرْسِل اثنان من إخوتي الى سيباستوبول ؛ وهناك قُتِلا . واشترك اخي الاكبر في الثورة عندما سعى الفلاحون

وراء التحرير سعي المجانين . ورفع أبوهم راية العصيان أيضاً . لقد رفضَ أن يأخذ نصيبه من البطاطا عندما أجبروا الناس على أكلها بالقوة . كانوا يريدون أن يجلدوه بالسياط ، فولى فراراً ، وتكسَّر الجليد تحت قدميـــه ، فغرق في اللّجة . ثم إنّ أمي وضعت ولدين آخرين من زوجٍ ثانٍ ، هو فيالوف صائد السمك — أنا وأخي سيرجي . »

فسألته أوليانا ، غامزةً بعينيها ، وكانتا ما تزالان مغرورقتين بالدموع :

« وأين أخوك ؟ »

— « لقد قُتِل . »

فقال آرتامونوف في تذمّر :

« في كلامك ما يذكّرنا بالصلاة من اجل الموتى ! »

— « كانت أوليانا ايفانوفنا تسألني . لقد كانت مضطربة بعض الشيء ، وهكذا أخذتُ ... »

ولم يُتمّ كلامه . وانحنى قليلاً ، والتقط غصناً يابساً من الطريق وألقاه جانباً . وواصلوا السير ، دقيقة او دقيقتين ، من غير أن ينبسوا بكلمة .

وفجأة سأله آرتامونوف :

« من قتل أخاك ؟ »

فقال فيالوف في هدوء :

« ومن الذي يستطيع أن يَقتل ؟ الرجال هم الذين يَقتلون . »

وتنهدت بابا كوفا وأضافت :

« والصواعق أيضاً . »

... وانطوت أسابيع الصيف الوسطى على أيام عسيرة . ففي ظل سماءٍ صفراء تغصّ بالدخان ، خيّمت على الأرض هدأة مرهقة للاعصاب ، واشتعلت في جنباتها حرارة لاهبة تشوي الوجوه . واجتاحت الحرائق الغابات وأكلت ركام النباتات اليابسة التي تُتخذ وقوداً للنار . كانت الريح الحارّة الجافة تندفع في قوة عارمة ، وهي تصفر وتعوي بوحشية – فتنزع الاوراق الذابلة عن الاشجار ، وتنثر إبر الصنوبر الصدئة المخلّفة من السنة الماضية – وتثير سحباً من الرمل وتسوقها أمامها ممزوجةً بالنُّشارة ونفايات الكتان وريش الدجاج – وتدفع الناس محاولةً ان تمـزّق اثوابهم – وتختبيء اخيراً في الغابات حيث اذكت نيران الحرائق وزادتها حدّةً وعنفاً .

وغزت الامراض عمّال المصنع . فمن خلال دويّ المغـازل وحفيف الوشائع * كان آرتامونوف يسمع ضروبـاً من السعال الجافّ المتقطّع . كانت الوجوه القاتمة الى جوانب الأنوال كئيبة ترشح بالمرارة ، وكانت حركات العمال بطيئة واهنة . وقلّ الانتاج وساءت نوعية القماش بصورة ملحوظة وتزايد عدد العمال المتخلفين عن الذهاب الى المصنع . ذلك ان الرجال بـدأوا يسرفون في الشراب ، على حين كان على النساء ان يُعنين بتمريض اولادهن في البيوت . ويوماً بعد يوم كان النجار الطروب ، سيرافيم ، وهو عجوز ضئيل الجسم ذو وجهٍ متورّد كوجوه الاطفال ، يصنع

* جمع وشيعة ، وهي خشبة يلف عليها الوان الغزل .

توابيت صغيرة ، ولم يكن من النادر ان يجد نفسه مكلّفاً إعداد الألواح الشاحبة من خشب التنّوب الفضي لتـــلائم الكبار من الرجال والنساء الذين جاءت آجالهم .

والحّ ألكسي قائلاً :

« ينبغي ان نعطيهم عطلة لندخل السرور الى قلوبهم ونرفـع من معنويّـتهم . »

وفيما هو على أهبة السفر الى السوق السنوية ، مــع زوجته ، كرّر نصيحته :

« اعطِهِمْ عطلة ، يتجدَّدْ نشاطهم وينتعشوا . صدّقني ، إن الراحة والمرح هما علاج الأمراض جميعاً ! »

وهنا قال بيوتر لزوجته :

« اعِدّي العدّة للقيام بهذه المحاولة . ولتكن مأدبة سخية ــ دعي الاقتصاد جانباً . »

وبدأت ناتاليا تتمتم ، فسألها غاضباً :

« ماذا تنتظرين ؟ »

فتمخّطت ناتاليا في أدنى مئزرها تمخّطاً عاليــاً فيه معنى الاحتجاج ، ولكنها اجابت :

« حسن جداً . »

وبدأت الوليمة بصلاة خاصة قاد الجماعة فيها بخشوع بالــغٍ الكاهنُ غليـب . وكان الكاهن قد ازداد هزالاً على هزال . كان صوته المصدوع يرتفع ، وهو ينطق بتلك الكلمات غير المألوفة ، في تأوّه وانتحاب ، وكأنّ بقية قوته الضائعة قد ذابت في ذلــك

الدعاء . وكانت وجوه العمال الرمادية الشاحبة متجهمة عابسة، وقد جُمّدت في سكونٍ خاشع . ونشج كثير من النسوة نشيجاً عالياً . وعندما رفع الكاهن عينيه المحزونتين الى السماء الغاصة بالدخان تطلّع القوم ايضاً ، من خلال الدخان ، وبأعين ضارعة متوسّلة الى الشمس العارية المكدّرة اللون ، ولعلهم قد حسبوا ان الكاهن الوديع رأى في السماء شخصاً يعرفه ، ويرغب في الاستماع لصلاته .

وبعد انتهاء الصلاة أخرجت النسوة الطاولات الى الشارع المؤدّي الى المستعمرة ، وجلست جميع الايدي العاملة في المصنع الى قصاعٍ خشبية طافحة بالشعيرية ولحم الضأن السّمين . لقد تحلق عشرة اشخاص حول كل قصعة ، وعلى كل مائدة انتصبَ دلوٌ من الجعة القويّة المُعَدّة إعداداً منزلياً ، وزجاجة فودكا ضخمة محفوظة ضمن بيتٍ مضفور من عيدان الصفصاف . وما هي الا فترة حتى انتعشت نفوس العمال المُجْهَدة ، الخائرة . وانكفأ السكون الخانق الذي كان مخيّماً على الارض ، الى المستنقعات والغابات المحترقة . وضجت المستعمرة بالأصوات المرحة ، وبقرقعة الملاعق الخشبية ، وضحك الاطفال ، وتوبيخ الامهات ، ومزاح الشبّان .

وابقتهم الوليمة الدسمة جالسين الى الموائد ثلاث ساعات او يزيد . حتى اذا حُمِل السكارى ، بعد ذلك ، الى بيوتهم اجتمع الشبان حول النجار النظيف الضئيل الجسم ، سيرافيم ، وكان يرتدي قميصاً قطنياً ازرق وبنطلوناً نصلت الوانهما لكثرة ما غُسِلا . واشرق وجه النجار القرنفلي الصغير الحادّ الأنف المُتَمَعْتِع بالسكر ، إشراقاً طروبا ، واومضت عيناه الرشيقتان ، الغامزتان

ابداً ، بروحٍ تكذّب سنّهُ العالية . كان يحفّ بصانع التوابيت المرح هذا ضربٌ من الأشراق الخافق والبهجة الملائكيـــة يتفق واسمهَ * اتفاقا كاملًا . كان يجلس على مقعد خشبيّ طويل ، وقيثارته على ركبتيه الحادّتين ، ينقر الاوتار باصابع قاتمة ذات عُقَـــد كجذور شجر البان ، ويغني على طريقة الشحـاذين العميان — في صوت انفيّ مونانٍ ترشح منه كآبةٌ مستأنية متبصّرة :

« حسناً ، ايها القوم الصالحون ، ها هنا حكاية فيها تسلية لكم .
فاسمعوها بآذان الحكمة وحلوا رموزها ! »

وغمز الفتيات بعينيه . كانت ابنته زينايدا ، وهي من العاملات في المصنع ، واقفة بينهم في زهو : مليحةً ، ناهدة الثديين ، متغطرسة العينين . وغنى النجار العجوز في صوتٍ اكثر إمعانا في الارتفاع ، وادعى الى انقباض الصدور :

« هناك يجلس المسيح الحلو ، وسط الضياء
في أرج الجنة وبرودة السماء ،
تحت شجرة زيزفون فارعة الطول ذهبية الازهار .
هناك في أبهة ، ومن فوق عرشه المصنوع من الالياف الباطنية البيضاء ،
يوزع الذهب البراق والفضة ،
يوزع الجواهر الساطعة ذات الجمال النادر
مكافئاً الاغنياء على ما تحلوا به من فضيلة ،
على انهم ، وهم الاغنياء ، كانوا في غاية اللطف ،
وفي غاية الكرم مع الفقراء البائسين ،

---

* يفيد لفظ « الساروفيم » في لغة الكنيسة معنى « ملاك الطهارة » . (المعرب)

فهم يحبون المحرومين كما يحبون اخوتهم
وهم يطعمون الجائعين والمعدمين.»

وغمز الفتيات بعينيه كرة اخرى ، وانتقل فجاءة إلى ايقاع الرقص . وفي صيحةٍ مدويّة، اندفعت ابنته الى الأمام ، وقد جعلت يديها وراء ظهرها ، على طريقة الغجر ، وارتجف صدرها العريض ،وراحت ترقص على انغام الأوتار وعلى غناء ابيها المرنان :

« والفضة التي يأخذونها
توقع الألم في ايديهم وارجلهم !
والذهب البراق الذي يتمنونه
يكوي بالنار اوصالهم !
واللآلىء واليواقيت التي يغنمونها
تحمل العمى الكئيب الى أعينهم ! »

وصفر الصبيان صفيراً مدوياً ضاعت في خضمّه انغام القيثارة واغنية سيرافيم المرحة . ثم ان البنات والنساء شرعن في الغناء،على ضَرْبٍ رشيق راقص :

« أوه ، إن السفن لتجري رشيقة على متن البحر ،
حاملة هدايا الى جميع الفتيات الحسان اللواتي تراهن ههنا . »

ورقصت زينايدا وطفقت تتغنّى بصوتٍ ينفذ الى حبات القلوب :

« إن باشكا الصغير يرسل الى بالاشكا
أمتاراً من المسوح لتجعل منها قمصانا ،
وتيريوشكا يرسل الى ماتريوشكا
أقراطاً نفيسة ـ عراجين يابسة من شجر السندر ! »

كان ايليا آرتامونوف جالساً على ركام من الواح الخشب المنشور ، مع بافيل نيقونوف : وهو فتى هزيل ذو رأس اصلع بعض الشيء كرؤوس المتقدمين في السنّ ، منحرف ابداً انحرافاً مزعجاً فوق عنقه الطويل ، وملامح فطيرة سقيمة وعينين متذبذبتين في شرَه ، رماديتين على جبانة وذعر . وبدا الرجل العجوز الضئيل الجسم ، جميلاً جداً في عيني ايليا . لقد احب موسيقى القيثارة وغناء سيرافيم المرح المضحك . وفجأة كانت تلك المرأة اللابسة ثوباً احمر زاهياً تندفع في الانفتال والرقص فتُفسد كل شيء مثيرة صفرات آبدة ، واغنية صارخة لا نغمَ لها . وانما غدت هذه المرأة بغيضة مرة واحدة الى قلبه عندما قال نيقونوف في صوت خفيض جداً :

« زينايدا فتاة خليعة العذار . إنها تعيش مع كل إنسان . مع ابيك ايضاً ـ لقد رأيته يعصرها ، رأيته بنفسي . »

فسأله ايليا في بلاهة :

« يعصرها ؟ ولماذا ؟ »

ـ « انت تعرف جيداً لماذا ... »

وخفض ايليا عينيه . كان يعرف لاي شيء تُعصر الفتيات ، وكان ناقماً على نفسه لأنه سأل صديقه عن ذلك . ثم قال في اشمئزاز :

« انت تكذب ! »

وأوصد اذنيه دون تعليقات نيقونوف المهموسة . كان يكره هذا الفتى الجبان المتملّق لبلادته وكسله ولحكاياته الرتيبة عن فتيات المصنع . ولكن نيقونوف كان خبيراً بمواطن الحمام ،

وكان ايليا مولعاً بالحمام . والى ذلك ، فقد كان يقدر هذا الامتياز الذي تخوّله اياه حماية رفيقـــه المستضعف من فتيان المستعمرة . وفضلًا عن هذا كله فقـد كان نيقونوف بارعاً في وصف ما يرى ، وان يكن لا يرى غير كل كريه او قبيح ، ويتحدث عن ذلك في مثل لهجة اخي ايليا الصغير ، ياكوف — وكأنما يقدّم شكوى مريرةً على كل انسان في العالم .

وجلس ايليا ، فترة ، لم ينبس خلالها بكلمة ؛ ثم نهض واتخـذ سبيله الى البيت . كانت مائدة الشاي قد ُمدّت في الحديقـة ؛ في ظلٍّ حارّ من الاشجار التي وخطّها الغبـــار . وكان يجلس الى المائدة الكبرى بعض المدعوّين . كان الكاهن الهادىء ، "غلِب" ، هناك . وكان هناك ايضاً الميكانيكي ، كوبتيف ، ذو الشعـــر الداكن الجعد الشبيه بشعر الغجر ، والمحاسب نيقونوف وقـــد نظّف وجهه تنظيفاً لم يترك عليه انطباعةً ما . وكان لنيقونـوف انف دقيق ذو شارب ، وجبين ناتيء من اثر لطمة اصابتـــه . ورشحت ابتسامة ما بين انفه وجبينه ، مغادرةً ثنيّات من الجلد مرتعشة ، حول فتحتَيْ عينيه الضيقتين .

وجلس ايليا الى جانب ابيه . انه لم يصدّق ان لهذا الرجـــل الكئيب ايّ اتصال بفتاة المصنع المستهـــترة . وربت ابوه على كتفه بيدٍ ثقيلة، ولكنه لم يقل شيئا. كانوا جميعاً يتصببون عرقا، وكان الكلام لا يصدر منهم الا عنوة . كان صوت كوبتيـف العالي يرنّ وحده في تلك اللحظات ندياً صافياً كالبلور ، وكأنـه يتحدث في احدى امسيات الشتاء .

وتساءلت الأمّ :
« أذاهب انت الى المستعمرة ؟ »
ـ « اجل ، سوف آتي بقبعتي .» قال الأب ذلك ، ونهض من مجلسه ، وسعى نحو الدار . وبعد لحظة ، تبعه ايليا ، فأدركه عند الرواق .
وسأله الأب في حنان :
« هل تريد شيئا ؟ »
فردّ الابن بسؤال آخر ، محدقاً النظر الى عيني ابيه :
« قل لي : أعصرت زينايدا ام لم تعصرها ؟ »
وبدا لأيليا ان الذعر لفّ اباه . ولم يدهشه ذلك ، فقد كان يعدّ اباه رجلًا جبانا ، يخاف كل شيء ، وهو ما يجعله قليل الكلام الى هذا الحدّ . وكثيراً ما شعر ايليا ان اباه كان يخاف منه هو . والواقع انه كان خائفاً ، في هذه اللحظة بالذات .. ولكي يشجع الرجلَ المذعور ، قال الصبيّ :
« انا لا اصدق ذلك . انا اسأل سؤالاً ليس غير .»
ودفعه الأب الى المجاز ، ومن ثمّ الى البهو . حتى اذا احتوتهما غرفته ، واوصد الباب ايصاداً مُحكَماً ، شرع يذرع المكان من الزاوية الى الزاوية وهو يلهث كدأبه حين يستبد به الغضب .
ووقف آرتامونوف الكبير قرب المكتب وقال :
« تقدّم الى هنا .»
وامتثل آرتامونوف الصغير الأمر .
ـ « ما الذي كنت تقوله ؟ »

ـ « بافلوشكا هو الذي قاله . انا لا اصدّقه . »

ـ « انت لا تصدّقه ؟ هكذا اذن . »

وتبخّر غضب بيوتر فيما كان يحدق الى جبين ابنه المرتفع ووجهه الصارم المكفهرّ . وشدّ اذنه محاولاً ان ينتهي الى قرار: اهو شيء حسن ، ام شيء سيّء ، ان لا يصدّق ابنه حديثاً سخيفاً نقله اليه فتى صغير في مثل سنّه – ان لا يصدّقه ، وان يتخذ من عدم التصديق هذا عزاءً له وسلوى ؟ كان لا يدري ما الذي ينبغي ان يقوله لابنه ، وكيف يقوله ، وكان يكره اشدّ الكره ان يضرب الصبيّ . ولكنّ شيئاً ما كان يجب ان يُعمل، فانتهى آخر الامر إلى ان صفعه بضع صفعات هو التدبير الاكثر بساطة والأقرب الى العقل . وهكذا رفع بيوتر يداً متردّدة وأنشب اصابعه في غدائر ابنه الغضة وراح يشدّها شدّاً عنيفاً ، وهو يغمغم :

« لا تفتح اذنيك لحديث المجانين . لا تفتح اذنيك !»

ثم انه دفر الغلامَ بعيداً مُصدراً اليه امره :

« اذهب والزَمْ غرفتك . و . . الزَمْ غرفتك . اجل ! »

ومضى الولد الى الباب ، ورأسه منحرفٌ الى جانب، في يبوسة وتصلّب ، فكأنه جسمٌ غريب . وفيما كان بيوتر يراقبه عزّى نفسه بقوله :

« إنه لا يصرخ . . انا لم انزل به اذىً ما . »

وحاول ان يحمل نفسه على الغضب :

« فكّر في ذلك ، انه لا يصدّق النبأ ! حسناً ، لقد ادّبتُهُ الآن . »

ولكن هذا كان اعجز من ان يطفيء عاطفة الأشفاق على ابنه او تبرّمه بنفسه .

— « انها المرة الاولى التي اضربه فيها » كذلك قال في ذات نفسه ، وهو ينظر في اشمئزاز الى يده الحمراء الكثيفة الشعر . «اما انا فلا ريب في اني قد ضُرِبْت مئات المرات قبل ان ابلغ العاشرة من عمري . »

ولكن هذا ايضاً ما كان ليعيد الأمن الى نفس بيوتر . وتطلع آرتاموونوف ، من خلال النافذة ، الى الشمس التي كانت تشبه بقعة من الدهن على مياهٍ كدِرة ، واصاخ لحظةً الى الجلبة المنبعثة من المستعمرة . ثم مضى على غير رغبةٍ ليشهد الاحتفال . وفي بعض الطريق قال لنيقونوف في لهجة هادئة :

« ان ابن زوجتك ليحدّث ابني ايليا احاديث كلها حماقة وسخف . »

فأجابه المحاسب على الفور — وقد علت وجهه ، في الواقع ، سيما انشراح :

« سوف اضربه ضرباً مبرحاً . »

واضاف بيوتر :

« علّمه ان يضبط لسانه . »

واذ نظر شَزْراً الى وجه نيقونوف الخالي من ايمّا انطباعة ، تنفّس الصعداء وقال في ذات نفسه :

« إنها بسيطة كهذا كله . »

واستقبلت المستعمرة سيدها بهتاف عالٍ صادر من حبات

القلوب . واشرقت الوجوه بابتسامات سكرى، وأطلقت عبارات الاطراء في قوة وسخاء . ورفس سيرافيم الأرضَ — وكان يلبس نعلاً جديداً من الياف الشجر الداخلية وقد ثُبّـت غطاءا قدميه البيضاوان في مكانهما بأشرطة حمراء على الطريقة الموردوفية — وراح ينفتل ويدور امام آرتامونوف ، منشداً بلحن التسابيح الدينية :

« قل ، الآن ، من ذا الذي يأتي الى هنا ؟
ولكن ، إنه سيدنا وموضع اعتزازنا !
وانها سيدتنا العزيزة ، »
تخطو الى جانبه . »

وفي صوت خفيض عميق هدَر ايفان موروزوف الأشيب اللحية ، الطويل الشعر ، ذو الملامح الشبيهة بملامح الكهّان :

« نحن سعداء معك . نحن سعداء ! »

وصاح عجوز آخر ، يُدعى مامابيف ، في جَذَل ونشوة :

« آلُ آرتامونوف يُعنون برهطهم كما يُعنَى الأسياد ! »

وقال نيقونوف لكوبتيف في صوت كان في ميسور الجميع ان يسمعوه :

« هؤلاء رهطٌ يعترفون بالجميل. انهم يعرفون كيف يقدرون المحسنين اليهم ! »

وتشكّى ياكوف ، وقد بدا مدوّراً كالكرة في جلبابه الحريري القرنفلي :

« ماما ، انهم يدفعونني بأيديهم . »

وامسكت امه بيده . وفيما كانت تبتسم للنساء في كياسة

ولطف قالت له :

« انظر كيف يرقص الرجل العجوز . »

كان النجار الازرق يدور ويثب في خفة لا يتطرّق اليها التعب منشداً المقطوعات الهزلية واحدة" اثر واحدة :

« إيه ، ارفس الارض ، ارفس الارض !
إيـه ، ارفس الارض رفساً اسرع !
إن احذية الجلد اثقل من احذية الألياف —
والمرأة أحلى من الصبية ! »

ولم تكن المدائح شيئاً جديداً بالنسبة الى آرتامونوف . وكان لديه غير سبب واحد للشكّ في صدقها . ومع ذلك فقد هدّأت من روعه . فتبسّم في حبور ، وقال :

« حسنا ، شكراً ، شكراً ! اننا لنعيش في انسجام ، أليس كذلك ؟ »

ثم خاطب نفسه قائلًا :

« من العار أن لا يكون ايليا هنا ليرى كيف يُكرّم أبوه . »

واستشعر الحاجة الى القيام ببادرة كريمة نحو هؤلاء القوم . وبعد تفكير قليل اعلن وهو يشدّ شحمة اذنه :

« سوف نضاعف حجم مستشفى الأطفال . »

وأطلق سيرافيم يديه في الهواء ووثب صائحا :

« أسمعتم ذلك ؟ مرحى للسيد ! »

وهتف القوم هتافاً عالياً وان يكن غير مستوٍ ولا متناسق . وغلب التأثر على ناتاليا ، وكانت وسط حلقةٍ من النسوة ، فتمتمت

من انفها :

« ليذهب بعضكنّ فيأتين بثلاثة براميل صغيرة اخرى من الجعة . ان تيخون سوف يعطيكنّ اياها . هيّا ! »

وزاد ذلك في طرب النسوة وجذلهنّ . وهزّ نيقونوف رأسه هاتفاً في انفعال :

« اجتماع خليق برئيس اساقفة ! »

وانتحب ياكوف :

« ماما ، لقد احترقت بالحر . »

وتكدّر صفو الاجتماع البهيج ، بعض الشيء ، عندما اندفع فولكوف ، الوقّاد الأسود اللحية ، بعينيه الحوخيّتين المائلتين ، نحو ناتاليا ، وقد تدلى من على ذراعه اليسرى طفلٌ مهزول غطّت القروح جلده الأبيض المزرقّ ، وكاد الحرّ يذهب بعقله . واذ اقترب من ناتاليا ، انشأ يصيح على نحوٍ هستيريّ :

« ما الذي يجب ان اعمله ؟ لقد ماتت امرأتي . ماتت من الحر . وتركت هذا الطفل وراءها . ما الذي يجب ان اعمل ؟ »

وتحدّرت من عيني الوقّاد المجنونتين دموع صفراء غريبة . وحاولت النسوة ان يدفعنه بعيداً عن ناتاليا ، صائحات ٍ وكأنما يعتذرن اليها :

« لا تصدقيه . انه مجنون . لقد كانت زوجته امرأة آثمة . كانت مصابة بالسل . وهو مريضٌ ، ايضاً . »

وصاح آرتامونوف في تجهّم :

« فلتتقدّم احداكنّ ولتأخذ الطفل منه ! »

وفي الحال امتدت ايدٍ كثيرة نحو الطفل الذاوي . ولكنّ فولكوف شتمهنّ في صوت عال ، وولى هارباً .

وعلى الجملة ، فقد كان كل شيء حسناً ورائقاً وبهيجاً كما ينبغي ان يكون العيد . واذ رأى بيوتر الى بعض الوجوه الجديدة بين العمال ، قال في ذات نفسه وقد لفّه شعورٌ يشبه الزهو :

« ان عددنا ليتعاظم . ليت الوالد يستطيع ان يرى ... »

وفجأةً قالت زوجته في اسف :

« لقد اخترتَ لمعاقبة ايليا وقتاً غير مناسب . لقد فاته ان يرى مبلغ حبّ الناس لك . »

ولم يُجب آرتامونوف ، بل راح يختلس النظر الى زينايدا ، وكانت تميس على رأس دزينة من الفتيات ، وهي تتغنى في صوت خفيض غير عذب :

« إنــه يحوم حولي
ويحــدق الى وجهي
آه ، انه عــلى وشك
أن يقــع في حبي ! »

وقال في ذات نفسه :

« يا لها من وقحة . وإنها لأغنيةٌ عفنةٌ ايضاً . »

وأخرج ساعته وألقى عليها نظرة ، وكذب على زوجته لسببٍ يجهله ، قائلاً :

«سوف أذهب الى البيت لأعود بعد دقائق. إني انتظر برقيةً من ألكسي



وانطلق موسعاً الخطى ، مفكراً في ما ينبغي أن يقوله لابنه. لقد اعدّ بضع جمل فيها قسوة بالغة ، ولكنها تنطوي في الوقت نفسه على مودّة وحنان . بيد انه لم يكد يفتح باب غرفة ايليا ، في رفق ، حتى نسيها جميعاً . كان الصبي راكعاً على كرسيّ ، مسنداً مرفقيه الى قاعدة النافذة ، متطلعاً الى السماء القرمزية الغاصة بالدخان . وكان الظلام المحتشد قد ملأ الغرفة الصغيرة بغبار رماديّ ضارب الى السمرة . وفي قفص كبير معلّقٍ قرب الجدار حكّ شحرورٌ منقاره الأصفر استعداداً للنوم .

— « حسناً ، أما تزال جالساً هنا ؟ »

وأجفل ايليا وأدار رأسه. وفي غير ما عجلة، نزل عن كرسيه.

— « هيه ، الا تستحي ان تسمع الى مختلف ضروب النفايات! »

ووقف الصبي ناكس الرأس . وفهم الوالد ان ابنه انما يقصد بذلك الى ان يذكره بالعقوبة التي أنزلت به .

« لماذا تقف هكذا ؟ إرفع رأسك ! »

ورفع ايليا جبينه ولكنه لم ينظر الى ابيه . كان الشحرور قد شرع يقفز في قفصه صافراً صفيراً ناعماً .

وقال آرتامونوف في ذات نفسه :

« انه غاضب . »

وجلس على سرير ايليا ،وقال وهو يغرز اصبعه في الوسادة :

« ينبغي ان لا تسمع الى لغو القول . »

فقال ايليا :

« ولكن الناس يتكلمون . »

وسرّت لهجته الكئيبة المعقولة عن نفس ابيه . ومضى بيوتر في حديثه مصطنعاً قدراً اكبر من اللين ،ومستشعراً بنصيب اوفر من الشجاعة :

« اجل انهم يفعلون . ولكن لا تبالِ بهم . إنسَ ما يقولون . واذا ما سمعت الناس يتحدثون حديثاً بذيئاً فليس عليك إلا أن تنساه . »

« وهل تنسى أنت ؟ »

« طبعاً ! ولو كنتُ أذكر كل شيء سمعتُهُ فأي شيء كان يحلّ بي في ما تظنّ ؟ »

كان يتحدث في تؤدة ، متخيراً ألفاظه تخيّراً ، قاصداً الى ان تكون بسيطة جداً ، مُدركاً أنه لم يكن ثمة حاجة للألفاظ على الأطلاق . وما هي إلا لحظة ، حتى وجد نفسه متورّطاً في الحكمة الغامضة التي تنطوي عليها الكلمات البسيطة ، فتنهّد وقال :

« تعال اليّ . »

واقترب ايليا ، في حذر . ورفع الاب ابنه الى ركبتيه ، ووضع يده على جبينه العريض وضغطه قليلاً الى أعلى . ولكن ايليا أبى أن يرفع رأسه ، فغضب ابوه وكاد يفقد أعصابه :

« علام هذا التجهّم كله ؟ أنظر اليّ . »

وحدّق ايليا الى عينيه ؛ ولكن ذلك زاد الموقف سوءاً ، إذ واجه أباه بالسؤال :

« لماذا ضربتني ؟ لقد قلتُ لك إني لم اصدّق بافلوشكا . »

ولم يُجب آرتامونوف الكبير في الحال . لقد أدرك في دَهش

بالغ ، ان ابنه يقف معه ، بمعجزةٍ ما ، على صعيد واحد ، ويخاطبه مخاطبة الندّ للندّ . لقد ارتفع الصبيّ الى مستوى الرجال الناضجين أو لعله هبط بالرجل الناضج الى مستواه هو .

وقال بيوتر في ذات نفسه :

« انه لشديد الحساسية بالنسبة الى سنه . »

ثم إنه نهض وسارع الى القول ، يحدوه التلهّف على أن يعجل في مصالحة ابنه :

« أنا لم أوجِعْك . إن الاولاد يجب أن يُرَبَّوا . ليتك تعلم كيف كان أبي ينهال عليّ بالضرب ! وكيف كانت تنهال عليّ أمي أيضاً ! وكذلك سائس الخيل ، ومراقب الحسابات ، والوصيف الألماني . ليس ثمة بأس في أن يضربك أهلك ، ولكن البأس في أن يضربك الغرباء — عندئذ فقط يكون الضرب موجعاً . إن الذين هم من لحمك ودمك يضربون ضرباً رفيقاً ، وفي محبّة . »

وذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، مجتازاً المسافة ما بين الباب والنافذة في ستّ خطوات ، متعجّلاً إنهاء هذا الحديث — وهو يخشى ، او يكاد ، ان يطرح ابنه سؤالاً جديداً .

— « أنت ترى وتسمع ههنا أشياء كثيرة ليس ينبغي لك أن تسمعها ، » قال ذلك مشيحاً بعينيه عن ابنه الذي كان يقف عند أقصى الفراش ، « من اجل هذا سوف أبعث بك الى المدينة ، الى المدرسة . هل يُعجبك ذلك ؟ »

— « نعم . »

— « حسناً . اذن ... »

لقد أراد أن يداعب ابنه ، ولكنّ شيئاً ما حمله على الأحجام عن ذلك . إنه لا يستطيع أن يذكر : هل حاول أبوه أو أمه مداعبته ، يوماً ، بعد أن ضرباه وجرحا مشاعره ؟

ــ « حسناً ، تستطيع أن تخرج وتلعب . كل ما اطلبه منك هو أن لا ترافق باشكا . »

ــ « إنّ احداً لا يحبّه . »

ــ « ليس في ذلك الجرو السقيم شيء يحمل الناس على حبّه . »

وهبط آرتامونوف السلّم ودخل الى غرفته الخاصة . وفيما هو واقف أمام النافذة المُشْرَعة خطر له أن حديثه مع ابنه لم يكن موفقاً جداً :

« لقد افسدّتهُ . إنه لا يهابني . »

وانبعثت من المستعمرة أصوات متداخلة : صيحات البنات وأغانيهنّ والأحاديث العالية ، وأنفاس الآكورديون الضيّقة . وسُمِعَ صوت تيخون ، واضحاً ، من المدخل :

ــ « ما الذي يُبقيك هنا ، ايها الصبي ؟ أيكون الناس في عيد وتجلس أنت في البيت ؟ سوف تذهب الى المدرسة ؟ هذا رائع . من لم يتعلم فكأنه لم يولد ، هكذا يقولون . حسناً ، سوف أغدو وحيداً هنا من بعدك ايها الصبي . »

وأراد آرتامونوف أن يصيح :

« أنت تكذب ! انا الذي سوف أغدو وحيداً ! »

وفي حقد دفين ، قال في ذات نفسه :

« يا له من خسيس محتال ! إنه يتملق ابن صاحب العمل . »

وحين فَصَلَ الصبيُّ الى المدينة ، حيث عُهِد الى أخي الكاهن غلب ، وهو معلّم ، في أن يعدّه للالتحاق بالمدرسة، استشعر بيوتر أن فؤاده أمسى فارغاً ، وأن بيته يغصّ بالضجر . كان يستحوذ عليه حسّ مزعجٌ بأن ثمة خللاً ما : وهو الشعور نفسه الذي كان يستولي عليه حين لا يكون مصباح الليل مضاءً في غرفة نومه . فقد ألف بيوتر هذه الشعلة الزرقاء الصغيرة حتى لقد صار يستقيظ من نومه ، في الليالي المتطاولة ، كلما انطفأت .

وكان سلوك ايليا قبيل مغادرته البيت بالغ السوء، فكأنما كان يقصد الى ان يترك وراءه ذكرياتٍ بغيضة . كان خشناً مع أمه فهي تفزع الى الدموع تنفّس بها عن كربها . ولقد اطلق جميع طيور ياكوف من أقفاصها ،واعطى نيقونوف الشحرورَ الذي كان قد وعد به أخاه .

وتساءل أبوه :

« ماذا دهاك ؟ »

ولكن ايليا لم يجب ، بل اكتفى بأن لوى رأسه الى جانب . وبدا لآرتامونوف أن ابنه كان يسخر منه ، مذكّراً اياه كرّةً أخرى بما كان يودّ أن ينساه . كان عجباً أيّ حيّزٍ كبير احتلّ هذا الكائن الصغير في قلبه :

« هل قَلِقَ والدي عليّ ، في يوم من الايام ، بقدر ما أقلق أنا على ابني ؟ »

وأجابته الذاكرة قائلةً ، في ثقة ، إنه لم يجد في والده أباً عطوفاً يُحَبّ حباً كثيراً ،بل ملاحظَ أعمالٍ متجهم الوجه ، يولي

ألكسي حظاً من العناية اكبر من حظه .

ـ « ما العلّة اذن ؟ أأنا اكثر ليناً من أبي ؟ » كذلك سأل آرتامونوف نفسَه ُ، ووقف حائراً مرتبكاً . كان لا يستطيع ان يقول عن نفسه أهو رجلٌ لطيف أم رجل قاسٍ . لقد حرمته هذه الأفكار الطمأنينةَ والأمن ، اذ كانت تثب فُجاءةً ، وفي أشد اللحظات حَرَجاً ، فتطوّقه اثناء عمله في المصنع . والحقّ ان مؤسسة آرتامونوف كانت تنمو نموّاً متعاظماً محوّلةً مئات الأعين الى رب العمل ، ومتطلّبةً منه عنايةً جاهدةً موصولة . ومع ذلك فقد كان بيوتر كلما ذكّره شيء بأيليا ، تتقطّع افكاره المتصلة بالعمل مثل َسدى نولٍ متهرّيءٍ ، فلا يوفّق الى لمّها وحبكها من جديد إلا بعد جهد عظيم . لقد حاول ان يملأ الفراغ الذي خلّفه ذهاب ايليا إلى المدرسة من طريق توجيه عناية متزايدة الى ابنه الأصغر ، ولكنه ادرك في خيبةٍ حرجة الصدر ان ياكوف لا يستطيع أن يحمل الى قلبه العزاء .

وكان ياكوف كثير المطالب . قال لأبيه يوماً :

« بابا ، إشْتَر لي شاةً . »

ـ « شاة ؟ ولماذا ؟ »

ـ « لكي اركب عليها . »

ـ « هذه فكرة سخيفة. العرّافات وحدهنّ يركبن على الشاء»

ـ « لقد اعطتني ايلينا كتاب صورٍ ، وقد رأيت فيه ولداً صغيراً جميلًا يركب على شاة . »

وقال الأب في ذات نفسه :

«لو رأى ايليا الى تلك الصورة لما تقبّلها جدّياً. إنه كان جديراً بأن لا يفارقني حتى احدّثه حديث العرّافات . »

ولم يكن بيوتر يحب من ابنه الصغير ازعاجه لصبيان المستعمرة ثم تشكّيه أنهم يضايقونه ويؤذونه .

وكان ايليا نزّاعاً الى المخاصمة ايضاً ،ولكنه لم يتشكّ يوماً أذى أحد ، على الرغم من انه كثيراً ما يلقى ضربات ٍ قاسية من أترابه في المستعمرة . أما ياكوف فكان مفزّع القلب كسولا . كان ابداً يمتصّ شيئاً أو يمضغ شيئاً . وكان في تصرّفاته ، بعض الأحيان ، شيء يستعصي على الفهم ، شيء ليس يبشر في ما يبدو بخير . ففيما كانت أمه تصب له قليلًا من الحليب ، ذات يوم ،علق رُدنها بأحد فناجين الشاي ، فاندلقت المياه الساخنة عليها وآذتها أذى كبيراً ، فما كان من ياكوف إلا ان كشّر عن اسنانه وقال :

« كنتُ أرى في وضوح انكِ سوف تقلبين الفنجان . »

فأنّبه أبوه :

« كنتَ ترى ذلك ثم لم تنبس بكلمة ؟ ماهكذا يفعل الاولاد النبهاء . انظر ، لقد احرقت أمّكَ رجلها . »

وواصل ياكوف مضغ لقمة كانت في فمه المنتفخ ، وراح يغمز بعينيه من غير ان يقول كلمة واحدة . وبعد بضعة ايام سمع أبوه صوته في فناء الدار يهدر في حماسة :

« لقد رأيت أنه كان على وشك أن يضربه . لقد أنسلّ نحوه ، وانسلّ ، وحين صار قريباً منه سدّد اليه ضربته من خلف ! »

وأطلّ آرتامونوف من النافذة فرأى ابنه يومىء بيديه في انفعال



متحدثاً الى بافلوشكا نيقونوف ، ذلك الولد الصغير الذي لا يصلح لشيء . واستدعى الأب ابنه الى البيت وحظّر عليه الاختلاط بنيقونوف . وكان على وشك أن يضيف الى ذلك شيئاً ، ولكنه بعد ان نظر الى عيني الصبي – وكان بياض مقلتيهما بنفسجياً في حين كان إنساناهما فاتحي اللون على نحو غريب – تنهّد واكتفى بأن دفعه بعيداً عنه ، قائلاً :

« إذْهَب ، يا فارغ العينين . »

ومضى ياكوف في حذر شديد وكأنما يمشي على الجليد ، ضاغطاً مرفقيه الى جانبيه ، مادّاً يديه كما يفعل شخص ينوء بحمل ٍ ثقيل .

وقال ابوه وكأنه يقرّر واقعةً :

« ولدٌ أخرق . وأبله أيضاً . »

وكان يجد في بنته الصموت الفارعة الطول مثل تلك البلادة التي وجدها في ياكوف . كانت تؤثر أن تضطجع وتفرغ للقراءة ، وكانت تلتهم مقداراً كبيراً من المربّى ساعةَ الشاي ، وعلى مائدة الطعام كانت تكسر خبزها في تأنّق ، بأصابعَ منعطفةٍ في رقة وظرف ، مقلّبةً ملعقتها وكأنها تعتقد أن في الحساء ذبابة . وكانت شفتاها الممتلئتان الشديدتا الاحمرار ، متجعّدتين ابداً ، وكثيراً ما كانت تقول لأمها في لهجة لا تليق بفتاةٍ ما :

« هذا لا يُعمل في هذه الأيام . لقد غدا زيّاً عتيقا . »

وعند ما سألها أبوها :

« انظري هنا ، يا سيدتي المثقفة ، لماذا لا تقصدين الى المعمل وتتعلمين كيف تُصْنَع قمصانك من الكتّان ؟ » – اجابته :

« حسنٌ جداً . »

وارتدت ثوباً جميلاً ، وأخذت مظلّتها التي أهداها إياها عمها ألكسي ، وتبِعَتْ أباها باذلةً غاية جهدها لكي لا يعلق ثوبها بشيء ما . وعطست بضع مرات . ولكنها حين تمنّى لها العمال صحةً جيدة شاع الدم في وجهها وحنت رأسها قليلاً من غير ان تنطق بكلمة أو تفترّ شفتاها عن ابتسامة . وأخذ بيوتر يشرح لها كيف تُصنع المنسوجات . حتى اذا لاحظ أنها كانت تنظر الى الارض بدلاً من ان تنظر الى الآلات ، سارع الى الاعتصام بالصمت وقد حزّ في نفسه ان تبدي ابنته هذه اللامبالاة كلها بصناعة تحتاج الى اعظم قدر من العنـاية . ومع ذلك فلم يكادا يخرجان من غرفة المناسج حتى سألها :

« حسناً ، ما رأيكِ في المصنع ؟ »

فأجابته وهي تفحص ثوبها خشية ان يكون قد اصيب بسوء :

« انه كثير الغبار . »

وفي ابتسامة متضجّرة قال بيوتر :

« انتِ لم تريْ كثيراً . »

ثم صاح في جفاء :

« لماذا ترفعين ذيل ثوبك هكذا ؟ ان الارض لنظيفة ، وان ثوبك ليس طويلاً جداً . »

وأجفلت ، وأطلقت ذيل ثوبها - وكانت تمسك به ما بين ابهامها وسبابتها — وتمتمت في لهجة اعتذارية :

« ان رائحة الزيت تعبق منه . »

وتضايق آرتامونوف من استعمال ابنته إبهامها وسبابتها على هذا النحو ، وهدر :

« لن تأخذي من الحياة شيئاً كثيراً بين إصبعين اثنين ! »

وفي احد الايام الممطرة ، وكانت مستلقية على احدى الارائك تقرأ في كتاب ، جلس ابوها الى جانبها وسألها ماذا تقرأ .

— « عن احد الاطباء . »

— « أدري . انه شيء علميّ . »

ولكنه لم يكد يلقي نظرة على الكتاب حتى صاح مُغضباً :

« ماذا تعنين بهذا الكذب ؟ انها ابيات من الشعر . لا تحاولي ان تخبريني ان هناك انساناً يكتب العلم بالقصائد والاشعار ! »

واضطربت ، وراحت تقصّ عليه كيف سمح الله للشيطان في إغواء احد الاطباء ، وهو الماني ، وكيف وجه الشيطان احد اعوانه ليوقعه في شَرَكه . وشدّ آرتامونوف شحمة أذنه ، محاولاً جهده أن يدرك مغزى هذه القصة . ولكن اللهجة التعليمية المضحكة التي اصطنعتها ابنته كانت مدعاةً الى اثارة الحنق ، مما جعل التفاهم بين الاب وابنته عسيراً .

— « هذا الطبيب — هل كان سكيراً ؟ » .

كان في استطاعته ان يرى ان ايلينا قد ارتبكت لدن سماعها هذا السؤال . ومن غير ان يُلقي بالاً الى شروحها ، قال في غضب :

« انها مشوّشة كلها . قصص خرافية . الاطباء لا يؤمنون بالشياطين . من اين أتيتِ بهذا الكتاب ؟ »

— « كوبتيف الميكانيكي اعطاني اياه . »

واذ تذكّر عادةَ ايلينا من التحديق في روية وتفكير، وبعينين رماديتين مثل عيني الهرة ، الى المدى البعيد ، استشعر انه مدعوٌّ لتحذيرها :

« كوبتيف ليس كفؤاً لك . فلا تختلطي به كثيراً . »

أجل ، لقد كانت ايلينا وياكوف اكثر بلادة وإملالاً من ايليا . ذلك ما زادته الايام وثوقاً منه واقتناعاً به . وبدلاً من ان يزداد حباً لابنه نمت في ذات نفسه ، شيئاً فشيئاً ، وعلى نحو غير ملحوظ ، كراهية لبافيل نيقونوف . فكان اذا ما لقي ذلك الصبي القميء السقيم يقول مخاطباً نفسه :

« كل ذلك من اجل ولد عَفِن كهذا ... »

لقد احسّ بتقزّز جسماني من هذا الغلام. كان نيقونوف يمشي محدودباً ، ملتوي الرأس التواءً قلقاً عند أعلى عنقه الهزيلة . وحتى في حال جريه كان يبدو في عيني آرتامونوف وكأنــــه ينسلّ كما ينسلّ المجرم الجبان . كان يعمل في نشاط : يصقل حـــذاء عمّه ويفرشي ثيابه ، ويُحضر الخشب ويقطعه قِدداً، حيناً ، أو يستقي لأهله ، وينقل دلاءً من الماء المصبوب الى خارج المطبخ ، ويغسل مناشف أخيه ، في النهر ، حيناً آخر . كان ابداً منهمكاً في العمل كالعصفور الدوريّ ، وكان رثّ الثياب قذراً ، يرحب بكلّ ما يراه بابتسامة مبتسرةٍ جافية. ولكنه ما يكاد يرى الى آرتامونوف مقبلاً نحوه ، ولو من بعيد ، حتى يأخذ في الانحناء له ، لاوياً عنقه الشبيه بأعناق الأوزّ ، حتى ينتهي رأسه الى صـــدره . وكان مما يوقع البهجة في نفس آرتامونوف ، أو يكاد، ان يرى الولد وقـــد

بلـّله مطر الخريف ، أو وهو يقطـّع الخشب قدداً في يوم من ايام الشتاء ـ محاولاً أن يدفيء أصابعه الخشنة بأنفاسه ، أو متوازناً ، مثل الأوزة ، على رجلٍ واحدة ، رافعاً الأخرى التماساً للدفء ، وحذاؤه غير المرتفع الى أبعد من العقبين ، يكاد يفلت من رجليه. كان جسمه كله يتضاغى من الألم حين يأخذه السعال ، وكانت يداه الصغيرتان البيضاوان الى زرقة تتشبـّثان بصدره .

وعرف آرتامونوف أن نيقونوف قد وضع اربع حمـامات في علـّية الحمـّام فأصدر أمره الى تيخون بأطـلاق سراح الطيور وبأن يحول منذ اليوم دون تسـّلق الولد الى العليـّة :

« قد يسقط من أعلى السطح فيصاب بأذى . انه ولدٌ ضعيف شديد الهزال . »

وإذ كان شاخصاً الى المكتب ذات ليلة وجد ذلك الصغـــير يقشط الارض بسكين ثم يمسحها بخرقةٍ رطبة ليزيل عنهـــا آثار حبرٍ مسفوح .

ـ « من سفح الحبر هنا ؟ »

ـ « أبي . »

ـ « أواثقٌ أنت من انك لستَ الذي سفح الحبر ؟ »

ـ « انا لم أفعل ذلك ! أقسم لك بالله ! »

ـ « اذن فعلام كنت تصرخ وتنتحب ؟ »

كان بافيل راكعاً على ركبته ، وقد مال رأسُهُ كمن يترقب أن يُصفع . ولم يُحِر الصبيّ جواباً . فألقى آرتامونوف اليه نظرة جعلته ينكمش ويتقلـّص ، وأعلن في ارتياح :

« إنك لتستحق هذه المعاملة ! »

وفي ومضةٍ مفاجئة من صفاء الذهن ضحك في ذات نفسه على ذلك البغض الصبياني السخيف الذي أكنّه لهذا المخلوق التافه ، وقال مخاطباً ذاته :

« أي حماقة هذه التي أضيع بها وقتي ! »

ثم ألقى على الارض قطعة نقدية نحاسية من فئة الخمسة كوبيكات وقال :

« دونك هذه الدراهم ! إشترِ بها بعض الحلوى . »

ومدّ الصبيّ يده ليتناول القطعة النقدية في حذر بالغ وكأنما كان يخشى أن يوجع النحاس أصابعه المزيلة القذرة .

— « هل يضربك عمك ؟ »

— « أجل . »

فقال آرتامونوف مواسياً :

« حسناً ، هذا أمرٌ لا بدّ منه . كل امريء عرضةٌ لأن يُضرَب بين حين وآخر . »

وبعد ايام ، اقبل ياكوف على أبيه وشكا اليه بافلوشكا ، فما كان من آرتامونوف الكبير ، على الرغم من عدم تصديقه كلام ابنه إلا أن قال لمحاسبه ، بقوة العادة ليس غير :

« ابن زوجتك في حاجة الى بضع ضربات ... »

فأجابه نيقونوف في احترام :

« إني أضربه ضرباً مبرّحاً . »

وعندما رجع ايليا ، مع الصيف ، ليقضي العطلة في البيت ،

وقد ارتدى ثياباً غير مألوفة ، وقُصّ شعره قصاً قصيراً ، وبدت جبهتـــه اكبر منها في ايّ وقت مضى ، تعاظمت كراهيـــة آرتامونوف لبـــافيل . ذلك ان ابنه واصل في عنـــاد صداقته مع هذا السافل الصغير . وكان ايليا نفسهقد غدا ذا لطفٍ وكياسة مسمومين ، فهو يستعمل ضمير الجمع في مخاطبة أبيه وأمه . كان يطوف بالبيت واضعاً يديه في جيبيه وكأنه زائرٌ غريب . وكان يغيظ اخاه ويعذبه حتى لينفجر بالبكاء ، ويضايق أخته حتى لترشقه بكتبها . وعلى الجملة فقد سلك سلوكاً مقيتاً ممجوجاً .

وقالت ناتاليا ، متشكّيةً ، لزوجها :

« لقد قلت لك ذلك ، وكل امريء ليقول الشيء نفســه . إن التعلّم في المدارس يؤدي بالاولاد الى الوقاحة وقلة الحياء . »

ولم يقل آرتامونوف شيئاً ولكنه عُني بمراقبة ابنــه في قلق . لقد بدا له أن ايليا ، على الرغم من تورطه الموصول في الأذى ، ما كان يفعل ذلك عن نزعة حقيقية الى الشرّ ، ولكنّ لغرضٍ مستأنٍ مرويٍّ فيه . وبرزت الحمائم كرةً ثانية ، فهي تتبختر وتهدل على حافة سطح الحمّام . كان ايليا وبافيل يجلسان الى جانب المدخنة ساعاتٍ برمّتها ، كلّما فرغا من تطيير حمائمها ، ويتجاذبان اطراف الأحاديث في شوق بالغ . وذات يوم قـــال الاب بُعَيْد عودة ايليا الى البيت :

« حسناً ، حدّثني عن مشاهداتك في المدرسة . لقد قصصتُ عليك حكاياتٍ كثيرة ، وها قد جاء دورك الآن . »

وفي كثير من الايجاز والعجلة حدث ايليا اباه حديثــاً بارداً .

عن الحيل التي يصطنعها الصبيان مع معلّميهم .

— « لماذا تحتالون عليهم هكذا ؟ »

فقال ايليا :

« إنهم يزعجوننا . »

— « لستُ أستسيغ ذلك . هل كانت دروسكم صعبة ؟ »

— « لا . لقد كانت سهلة . »

— « أتقول الصدق ؟ »

فأجابه ايليا رافعاً كتفيه :

« أنظرْ الى سجل علاماتي . »

كانت عيناه مصوبتين الى السماء فسأله أبوه :

« إلامَ تنظر هناك ؟ »

— « الى الصقر . »

وتنهّد آرتامونوف ، ثم قال :

« حسناً ، من الخير لك أن تذهب وتلعب في الحديقة . يبدو انك سئمت الحديث معي . »

وامتثل ايليا أمر أبيه . ولم يكد آرتامونوف يخلو الى نفسه حتى ذكر أنه هو ايضاً كان في زمن الطفولة كثيراً ما يستشعر الضجر حيناً والخوف حيناً ساعة يحدّثه أبوه حديثاً ما .

— « إنهم يحتالون على معلّميهم . أنا لم افكّر في شيء مثل هذا عندما كان كاهن الأبرشية يعلّمني الأحرف الهجائية على طرف سَيْر من الجلد . يبدو أن الحياة أضحت الآن اكثر يُسْراً ، بالنسبة الى الأطفال . »

وقبل ان يغادر ايليا البيت الى المدرسة قال لأبيه – وكان ذلك هو مطلبه الوحيد :

« بابا ، إسمح لبافيل ان يبقي حمائمه في علية الحمام . »

ومن غير أن يعده أبوه بشيء ، أجابه بقوله :

« انت لا تستطيع ان تداوي متاعب كل إنسان . »

فاستنتج ابنه من ذلك أنه لم يخيب رجاءه :

« اذن ، في استطاعته ان يُبقي الحمائم هناك . سوف أذهب لأخبره . ولا شك في أنه سيبتهج بذلك . »

واستاء آرتامونوف الكبير لأن ابنه المتلهف الى هذا الحد على ايقاع السرور في قلب ولد صغير تافه لم يحاول ان يُدخل السرور بطريقة ما ، على حياة أبيه هو . حتى اذا شخص ايليا الى المدرسة وجد بيوتر نفسه خاضعاً لسلطان كراهية أدهى وأشد لذلك الغلام . فما إن يقع شيء مما يُكرَه ، في البيت أو في المصنع أو في البلدة ، حتى تندفع صورة هذا الصبي الوسخ الرث الثياب اندفاعاً فضولياً الى صميم بؤرة الانزعاج عند آرتامونوف ، وكأنها تقدم أوصالها الواهنة اليه ليلقي عليها جميع فكراته المريرة ، وانفعالاته البشعة . وتضاعف الغلام كالعفن ، كالظلال عند المساء . وفي انطلاقه الخاطف كعفريت صغير مكّار ، انتهى الى ان يقع تحت بصر آرتامونوف باكثر مما كان يقع من قبل .

وفي يوم رقيق من ايام الخريف خرج آرتامونوف الى الحديقة . كان مُتعَباً مُغضَباً . وكان الليل يهبط ، وقد اخذت الشمس الواهنة تغلي في لطف ، ومن غير ما حرارة ، في السماء المخضرة التي

كنستها الرياح وغسلتها الأمطار ، فهي مجلوّة الطلعة نظيفة . وكان تيخون فيالوف منهمكاً في عمله عند زاوية من زوايا الحديقة ، يجمع اوراق الخريف المتساقطة على الارض، فينتشر همسها الناعم الكئيب بين الاشجار . ووراء الحديقة كان المصنع يطنّ طنين النحل ، والدخان الرمادي يرتفع في بطء وكسل ملوّثاً الهواء الشفّاف . ولكي يجتنب آرتامونوف رؤية البستانيّ والتحدث اليه فقد استدار الى طرف الحديقة المقابل ، حيث يقوم الحمّام . وإذ وقعت عينه على الحمّام لاحظَ أن بابه لم يكن موصداً .

« إن ذلك الفتى هناك . »

واسترق النظر الى غرفة الزينة والثياب فرأى عدوّه الصغير منبطحاً على مقعد خشبيّ طويل في الزاوية المظلّلة وقد حنى رأسه وباعدَ ما بين رجليه ، وراح يستمني بيده . وسُرّ آرتامونوف لحظةً ، ولكنه ما لبث أن تذكّر ياكوف وايليا فصاح في خوفٍ وتقزّز :

« ماذا تفعل هنا ، أيها الخنزير ؟ »

وتصلّبت ذراع بافيل وانسحبت من مكانها . وتقوّس جسمه كله ، بصورة غريبة ، فوق المقعد وإذ انفرجت شفتاه عن صيحةٍ خفيضة ، ارتدّ متقلّصاً الى الوراء ، ككرةٍ صغيرة مشدودة ؛ ثم اندفع نحو الباب ، حيث كان الرجل الضخم واقفاً . وفي ابتهاجٍ مروّىً فيه ، أوقفه آرتامونوف بضربة سدّدتها قدمه اليمنى الى صدره . وصرّ شيءٌ ما . وأنّ الغلام في ضعفٍ ، وانقلب على جانبه الى الارض .

وانقضت لحظة ُخيل لآرتامونوف فيها أن هـــذه الضربة قد ألقت عن روحه عبئاً ثقيلاً من الحرق القذرة ، حمـلاً كان ُينقض ظهره . ولكنه عاد بعد ذلك ، فألقى نظرةً الى الحديقة ،وأصاخ ثم انحنى فوق بافيل ، وقال في صوتٍ واهنٍ جداً :

« حسناً ، إنهض ، ولنذهب . »

كانت احدى ذراعي الولد ممتدّة إلى أمام ، والأخرى تضغط على الارض تحت ركبته الملتوية . وكانت إحدى رجليه تبـــدو أقصر من الاخرى بكثير . إن سيما الحركة لتغلبُ عليه ، فكأنه يحبو شيئاً فشيئاً نحو بيوتر . وإن ذراعه المبسوطة لطويلةٌ على نحو غير طبيعي يوقع الخوف في الفؤاد . وترنّح آرتامونوف وتعلّق بأطار الباب خشيةَ أن يخرّ على الأرض ونزع قبعته عن رأسه ، ومسح ببطانتهـــا جبهته ، وكان العرق قد تصبّب منها ، فجأة في غزارة .

وهمس :

« إنهض . لن أخبر أحداً . »

ولكنه كان يعرف جيداً أنه قد قتل الغلام ، وكان قد رأى جيداً الى عصابة صغيرة من الدم القاتم تجري على الارض مـــن تحت خده .

وقال بيوتر في ذات نفسه :

« مات ! »

وأحدثت الكلمة القصيرة الواضحة سيلاً من الأصداء التي توقع الصمم في الأذن . فأقحم قبعته في جيب سترته ورسم عـلى نفسه

اشارة الصليب ، ناظراً في بلاهة الى الجسم الضئيل الملتوي على نحوٍ يدعو الى الرثاء . وعصفت بدماغه عاصفةٌ مخيفـة من الفكرات الفطرية .

— « سوف أزعم ان الأمر وقع قضاءً وقدراً . لقد صدمته بالباب . اجل ، بالباب . إنه بابٌ ثقيل . »

وادار بصره في ما حوله ، وارتمى خائر القوة على المقعد الخشبي ليفاجأ بوجود تيخون خلفه ، ومكنسته في يـــده . كانت عينا البستاني المغرورقتان بالدموع تحدّقان الى نيقونوف . وكانت أصابعه تخدش خده الحجريّ ، وقد بدا مستغرقاً في تفكيرٍ عميق .

« هناك . . » كذلك صاح آرتامونوف ، وهو يقبض على حافة المقعد الخشبي بكلتا يديه . ولكن تيخون قطع عليه حديثه . وهزّ البستاني رأسه وقال :

« يا له من ولدٍ ضئيل الجسم ، ضعيفٍ ، أخرق . كم من مرة قلتُ له : لا تحاول التسلّق الى هناك ! »

فسأله بيوتر ، في ذعر ، ولكن في أمل أيضاً :

« ماذا تقول ؟ »

— « لقد قلتُ له : سوف تَدُقّ عنقَــكَ . وانت ، بيوتر ايليتش ، لقد قلتَ له الشيء نفسه — أتـذكر ؟ إن كل نوع من انواع اللعب يقتضيك شيئاً من الرشاقة . لقد فقـد وعيه ، أليس كذلك ؟ »

وقرفص تيخون ، وجسّ نبض بافيل عند رسغه وحنجرته ، واضعاً إحدى إصابعه على خدّ الغلام . ثم إنه مسح تلك الاصبع

بمئزره ، محدثاً صوتاً صارخاً ، وكأنه يشعل عوداً من عيدان الثقاب ، وقال :

« يبدو أنه قد فارق الحياة . كان مخلوقاً قميئاً ضعيفاً . وان أيسر شيء ليقضي عليه . »

كان كلام تيخون هادئاً ، وكانت حركاته وئيدة ، وكانت سيماه العامة على عهده بها لم يتغير فيها شيء . ومع ذلك فقد انتظر بيوتر أن يسمع من مستخدَمه ذاك كلمات اتهام قاسية . وتطلّع تيخون ، من خلال الثقب المربّع ، الى السقف ، مصيخاً لحظةً الى هديل الحمام ليقول بعد في بساطته وهدوئه السابقين :

« كان دائم التسلّق الى فوق . كان يرتقي المقعد الخشبي ويضع رجله على تفاحة الباب ، ومن هناك يثب الى اعلى الباب ثم ينتهي الى الثقب ويرفع نفسه عالياً بواسطة ذراعيه . ولكن ذراعيه لم تكونا قويتين كما ينبغي ، وهكذا وهنت قبضته وسقط على الارض ، فأصابت زاويةُ الباب قلبه ،على ما يبدو ، فمات . »

وقال بيوتر :

« انا لم أر ذلك عند حدوثه . »

ثم ان غريزةحفظ الذات ما لبثت أن زوّدته بفيضٍ من الظنون :

« أهو يكذب ؟ يتظاهر ؟ ينصب لي شركاً حتى أقع في يديه ؟ أم أنه — يا له من مخبول — لم يفهم شيئاً حقاً ؟ »

وبدا الظن الأخير أرجح الظنون جميعاً . والحق ان تيخون كان يصدر عن بلاهة وخبل . لقد هزّ رأسه وكأنه ينطح أحداً ، وتنهّد :

« إيه ، ذرة من غبار ! ولماذا يَفِدُ هذا النوع على العالم؟ سوف أذهب وأخبر امه . إن عمه لن يتحسر عليه كثيراً ، في ما أحسب . لقد كان الغلام بالنسبة اليه ، مجرّد فم اضافي . . »

وتتبع آرتامونوف حديث البستاني في ريبة ، منتبهاً لكل امارة من امارات التظاهر بغير الواقع . ولكن تيخون كان يتكلم ابداً في لهجة رجل غير خاضع لسلطان الفضول .

« اسمع ! » قال ذلك وزوى ما بين حاجبيه وراح يُصيخ . كانت امرأةٌ تنادي ، في مكانٍ ما خارج الحمّام ، بصوت مبحوح :

« باشكا ! باشكا . . . ا . . . ا . . . ا ! »

وفرك تيخون خده .

« باشكا حقاً ! هيء دموعك للبكاء . »

وقرّر آرتامونوف :

« انه مجنون من غير شك . »

وانطلق الى الحديقة ، ساحباً قبعته من جيب سترته ، وممعناً النظر في رفرفها المكسور .

وطوال اسبوعين او ثلاثة عاش آرتامونوف في ظل خوف غامض موصول استحوذ عليه وانشأ يتهدده كل يوم بكارثة جديدة غير واضحة المعالم . كان يخيل اليه ان الباب سوف يُفتح ، بعد لحظة ، ليندفع تيخون الى الغرفة ويقول :

« حسناً ، انا اعرف كل شيء عن ذلك ، طبعاً . . . »

اما في الخارج فكان كل شيء يجري على ما يرام . كان الناس مستعبَدِين لعادة الولادة والدفن ، ومن اجل ذلك تقبلوا وفاة

الصبي كمسألةٍ بسيطة من المسائل العادية . وطوّق نيقونوف عنقه بعصابة سوداء جديدة ، وطفت على وجهه المغسول انطباعة من الغرور المعتدل وكأنما قد حظي بمكافأة كان يستحقها منذ زمن طويل . اما أمّ الغلام القتيل – وهي امرأة طويلةهزيلة ذات وجه كوجه الحصان ، صامتة ، لا تدمع لها عين – فكانت متلهفة على التعجيل بـدفن ابنها – او هكذا خيل لآرتامونوف . كانت لا تفتأ تسوّي التغضّنات البيضاء عند رأس التابوت ، وتعدّل وضع العصابة الورقية الحاملة صور القديسين على جبهة الغلام الزرقاء ، ضاغطة بأصابع مترفقة على القطع النقدية النحاسية الجديدة الزاهية التي تغطي عينيه ، راسمة على نفسها بين الفينة والفينة علامة الصليب ، في سرعة لا تتفق ورهبة الموقف . ولاحظ بيوتر ان ذراعها قد كلت الى درجة تعذر عليها رفعها مرتين ، خلال اداء الصلوات الجنائزية . لقد حاولت ان تصلب على نفسها ، ولكن ذراعها سقطت وكأن عظمها قد انكسر .

أجل ، لقد جرت الاشياء – في ما يتصل بذلك – سيراً حسناً . ليس هذا فحسب ، بل ان نيقونوف وامرأته شكراه ، في ثرثرة مُتعبة ، لمشاركته في نفقات الجنازة ، على الرغم من إنه لم يقدم غير القليل خشية ان يثير من طريق المبالغة في الكرم ظنون تيخون وشكوكه . ذلك ان آرتامونوف كان لا يزال يجد عسيراً عليه ان يؤمن بان البستاني هو من البلاهة بالمحل الذي بدا عليه ذلك اليوم ، في الحمام . كانت هذه هي المرة الثانية التي دفع فيها الحمام هـذا الرجلَ الى المقدّمة ، مقحماً إياه أعمق فأعمق في حياة بيوتر . وتلك

مسألة غريبة، ومرهقة للاعصاب. حتى لقد بلغ الأمر بآرتامونوف حداً حمله على ان يفكر في احراق الحمام، او تقويض اركانـــه وجعله طعاما للنار. وكان الحمام قد امسى، على اية حال، عتيقاً جداً، وكانت الواحه الخشبية قد تطرّق اليها البلى. إن حماماً جديداً يجب ان يُنشأ في جانب آخر من الحديقة.

ولاحظ تيخونَ في انتباهِ كثير، فلم يجد ايا تغيّر في حياة البستاني. لقد بدا مجردُ وجوده ــ شأنَه دائماً ــ امتيازاً متبرّماً مُنح تكرّماً وتلطّفاً، برغم إرادته هو. وكان ــ شأنَه دائماً ــ قليل الكلام، وكان فظاً كرجل من رجال الشرطة مع عمـال المصنع الذين كانوا يبغضونه، قاسياً الى حدّ بشع على النساء بخاصة باستثناء امرأة واحدة هي ناتاليا. كان لا يتحدث اليهـــا وكأنها زوجـــة الرجل الذي يعمل تحت إمرته، بل كأنها نسيبة من نسيباته: عمّته مثلاً، أو أخته الكبرى.

وكان بيوتر كثيراً ما يسألها:

« ما الذي يجعلك ترفعين الكلفة الى هذا الحد، مع تيخون؟»

فتجيبه امرأته دائماً:

« لقد أ لِفتُهُ فأنا لا أجد حرجاً في التحدث اليه. »

ولو كان للبستاني أصدقاء، ولو كان يقوم بزيارة لشخص ما، إذن لجاز لبيوتر أن يعتقد أنه مشايعٌ لمذهبٍ من المذاهب بعد أن ظهر عددٌ غير يسير من هؤلاء المشايعين، على اختلاف أصنافهم، في السنوات القليلة الماضية. ولكن تيخون لم يكن له من الأصدقاء غير النجار سيرافيم، وكان يحب الذهاب الى الكنيسة حيث يصلي

في خشوع ، برغم أنه كان يفتح فمه واسعاً جداً وكأنه على وشك أن يصرخ صراخ الذعر . وفي بعض الأحيان ، كان مشهد عيني تيخون المرتعشتين يلقي على وجه سيده سحابةً قاتمة . كان يخيل لآرتامونوف ان تهديداً ما يكمن في اعماقهما المغرورقة بالدموع ، ويحس بالرغبة في ان يأخذ بخناق الرجل ويهزّه هزاً عنيفاً ،صائحاً :

« تكلم ! »

ولكن بؤبؤي تيخون ما يلبثان أن يتقلّصا ويفقدا كل تعبير ، فلا يكاد بيوتر يرى الى ملامحه الحجرية الصماء حتى يتلاشى جزعه . وكان أنطون المخبول ، وقد توفي الآن ، كثيراً ما يأتي الى كوخ البستاني أو يجلس معه على المقعد القائم قرب الباب ، في بعض الامسيات . وكان تيخون كثيراً ما يحاول أن يسأله :

« لا تنطق بكلام سخيف . فكّر قليلاً ثم قلْ لي . من هو كوباتير هذا ؟ »

فيصيح انطون طرباً :

« كاياميس ! »

ويشرع في ترديد اغنيته :

« أوه ، المسيح قد قام ، قد قام ،

— « تابعْ ! »

لقدخسرت العربة دولاباً،خسرت دولاباً ... »

وسأل آرتامونوف أجيره ذات يوم ، في تبرّم لم يستطع هو نفسه أن يفسره :

« عمّ تسأله ؟ »

— « عن معاني كلماته الغريبة . »
— « ولكنها كلمات مجنون . »
فقال تيخون في بلاهة :
« حسناً ، حتى المجنون يجب ان يكون له عقلٌ خاصٌ به . »
وعلى الجملة فقد كان من الخير عدم التحدث ألبتة . وأخيراً مرت بآرتامونوف ليلة عاصفة خاصم فيها النوم عينيه ، واستشعر انه لم يعد يطيق صبراً على هذا الثقل الثقيل الذي يُنقِض روحه . فأيقظ امرأته وقصّ عليها حكاية بافيل نيقونوف . واستمعت اليه ناتاليا في صمت ، وعيناهـا تغمزان من النعـاس ، ثم قالت وهي تتثاءب :
« أنا لا أتذكر الأحلام أبداً . »
ولكنها ما لبثت أن أجفلت فجأةً ، وقالت في ذعر :
« أوه اني لشديدة الخوف من ان يتعود ياشا مثل هذا العمل! »
فسألها زوجها في دهش :
« أي عمل تعنين ؟ »
حتى اذا اوضحت له ما كانت تخشاه شد شحمة اذنه في تحرّق ، وقال مخاطباً نفسه :
« لم يكن ثمة فائدة من اخبارها . »
في تلك الليلة ، ومن خلال همهمات العاصفة وزعقاتها ، وشعوره المتعاظم بتوحّده ، انتهى الى شيء وجد فيه شرحاً لجريمة القتل التي ارتكبها . لقد قتل ذلك الولد الخليع ، وهو رفيق سوء لأيليا ، بسائق الحبّ لابنه والخوف عليه . وسرّت هذه الفكرة عنه بعض

الشيء ، إذ قدّمت اساساً جليـــا لتلك الكراهية السوداء التي أكنّها للغلام . ولكن الشيء الذي كان يطمع فيه هو ان يتحرر نهائياً من هذا العبء ، أن يزيحه عن كتفيه ليلقيه على كتفي إنسان آخر . وهكذا استدعى الكاهن غلِب وفي نيته ان يحدثه عن هذا الأثم المميت في معزلٍ عن اعترافه العاديّ بالآثام الصغرى التي لا تجلّ عن الغفران .

وأقبل الكاهن الهزيل المحدودب عند المساء ، وانتحى إحدى الزوايا في هدوء . كان من دأبه دائماً أن يحشر هيكله النحيل بعيداً في زاوية ما ـ وكلما كانت تلك الزاوية أشد ظلاماً واكـــثر انعزالاً كان ذلك أفضل ـ وكأنه كان يختبيء استحياءً . وكانت ثنيات ثوبه الكهنوتي الرثّ الداكنة تكاد تمتزج بالجلد الداكن الذي غلّف به الكرسيّ ذو الذراعين فليس يظهر منه على هـذه الخلفـيّة المظلمة غير وجهه فحسب ، ولكنْ ظهوراً ضبابياً مبهماً . وتألقت على شعره ، عند الصدغين ، نُقَط من الثلج الذائب كما يتألق الزجاج . وكانت يدٌ معروقة ، كالعـــادة ، تصافح لحيته الطويلة ، الخفيفة الشعر .

وإذ لم تكن عند آرتامونوف الجرأة الكافية للخوض في الموضوع مباشرةً ، فقد شرع يتحدث عن أخلاق الناس قائلاً إنها تتفسّخ في هذه الايام بسرعة ، فهم كسالى، مسرفون في الشراب وانتهاب اللذات الى حدٍّ يثير الغيظ . وما هي إلا لحظة حتى أتعبـه البحث في هذه القضية الاخلاقية ، فاعتصم بالصمت ، وأنشأ يذرع الغرفة جيئةً وذهوباً . ثم إن صوت الكاهن انطلق من الزاوية المُعْتمة

وكان ما قاله أشبه شيء بشكوى :

« إن أحداً لا يفكّـر بالعامة ، وهم انفسهم غير معتوّدين أن يفكروا في حاجاتهم الروحية . انهم لا يعرفون الى ذلك سبيلاً . إن المثقفين من الناس ... حسناً ، فليس لي أنا أن أحكم وأدين . وعلى أية حال، فليس بيننا ههنا عددٌ كبير منهم . وهم ،كما تعرف، لا يجدون لهم مكاناً ، على ما يبدو ، في حياتنا اليومية ، في حياة الشعب . إنهم يَنْشدون اشياء كثيرة ، ولكنهم يغفـلون عن الأمور الاساسية . إن العصيان والتمرد يجذبانهم ، وهذا مايؤدي الى اضطهادهم من قِبل السُلطات . وبطريقة ما ، يبدو لي أن شيئاً ليس يجري معنا كما نشتهي . إن هناك صوتاً واحداً يدوّي في ارتفاع مطّـرد وسط هذه الضجة الفارغة، مستصرخاً ضمير الانسانية مناضلاً في عنف من اجل إيقاظه . ذلك صوتُ رجـل يعرف بالكونت تولستوي ، وهو فيلسوف وكاتب . إنه رجلٌ عظيم ، وإن كلامه لجريء الى حدّ الوقاحة . ولكن ، لمـا كان الأمر كذلك ... فان الكنيسة الارثوذكسية ... »

وتحدّث فترة طويلة عن تولستوي . وعلى الرغم من أن آرتامونوف لم يفهم كل ما قاله ، فأن صوت الكاهن الهـادىء ، المنطلق من الظـلال في لطف ، وتصويره الكامل ، وإن يكن اسطورياً ، لهذا الرجل العجيب ، استطاعا ان يحوّلا تفكير بيوتر عن نفسه . ومع أنه لم ينسَ الغرض الذي من أجـله استدعى الكاهن ، فقد وجـد نفسه منقاداً شيئاً فشيئاً لسلطان عاطفة من الأشفاق عليه . ذلك انه كان يعرف أن جمهور العامة في البلدة كانوا

يحسبون « غلب » على شيء من الخبل لأنه يجهل الطمع وحب المال، ولأنه يصطنع اللطف مع الناس جميعاً ، ويؤدي الصلوات احسن أداء ، ويقوم بالخدمة الجنائزية في انفعالٍ وتفجّع . أما بيوتر فقد بدا ذلك كله طبيعياً في عينيه ، اذ هذه هي مهمة الكاهن الحقّ .
وكان مما يجذبه الى غلب ذلك البغض الأجماعي الذي كان يلقاه الكاهن من رجال الدين في دريبوموف ومن وجوهها وأعيانها . ولكن راعي النفوس ينبغي أن يكون متجهماً صارماً . إن من واجبه أن يأتي بكلمات من نوع خاص جداً ويوجهها الى الناس ، كلماتٍ تنفذ وتقطع ؛ ومن واجبه ان يثير في الناس الخوف من الأثم ، والنفرة من الأثم . وتلك القوة كانت تعوز الكاهن غلب كما يعرف آرتامونوف . وحين استمع برهة الى حديث الكاهن المتردّد ، الى الكلمات المتذبذبة التي بدت وكأنها خائفة ان تجرح مشاعر امرىء ما ، أعلن فجأة :

« إن السبب الذي من اجله ازعجتك ، ايها الأب غلب ، هو أن أعلمك باني لن أتناول القربان المقدس هذا العام . »

فسأله الكاهن في ذهول :

« ولم لا ؟ »

حتى اذا لم يتلق ايما جواب ، اضاف قائلًا :

« انت مسؤول امام ضميرك . »

وبدا لآرتامونوف أن غلب قال هذه العبارة بلهجة اللامبالاة القاسية القلب التي تميّز تيخون البستاني . واذ كان غلب فقيراً فلم يكن عنده حذاء من مطاط ، وهكذا ذاب الثلج الذي كان عالقاً

بحذائه الريفي الثقيل فشكّل بركة قذرة في ارض الغرفة . وواصل تحريك قدميه وسطَ هذه البركة ، متحدثاً في غير ما ملل ، شاكياً ولكنه غير متّهِم :

« عندما ترى هذا الذي يجري تجد شيئاً واحداً يوقع في نفسك العزاء : ان شرور الحياة ، حين تتعاظم ، انما تتجمع في ركام واحد ، وكأن القصد من ذلك ان يكون من الايسر التغلب عليها . هكذا تجري الامور دائماً في ما ارى : تظهر نواة شر صغيرة ، وكالخيط على المغزل لا يلبث ان تتجمع حولها شرورٌ بعضُها فوق بعض ولو كانت مشتتة متناثرة ، اذن لكان من العسير مقاومتها . امـــا وهي مجتمعة فعندئذ يكون من اليسير تحطيمها بضربة واحدة من سيف العدل ... »

وعلقت هذه الكلمات في ذاكرة آرتامونوف . لقد وجد فيها بعض العزاء . بافيل نيقونوف – تلك كانت نـــواة الشر . ألم تتجمع حوله افكار آرتامونوف البشعة كلها ، منجذبةً اليه كما ينجذب الحديد الى حجر المغناطيس ؟ وكرة ثانية فكر آرتامونوف انّ جانباً من جريمته يمكن ان يُعزى ، بحق ، الى حبه لولده وخوفه عليه . وهنا تنفس الصعداء ، ودعا الكاهن الى الشاي .

كانت غرفة الطعام مشرقة دافئة ، يعبق هواؤها بروائح الطعام اللذيذة . وكان السماور يغلي على المائدة ، لافظاً انفاسه ، في بشاشة صارخة ، على صورة نافورة صغيرة من البخار . وكانت حماة بيوتر في كرسيها ذي الذراعين تغني بصوت عذب لحفيدتها البالغ عمرها اربع سنوات :

« إن أم الضياء المقدسة

قد وزعت عطاياها كما رأت مناسباً :

فبطرس الرسول اعطته

غمام ايام الصيف القائظة.

والقديس نيقولا منحته

السيطرة على المد والجزر والامواج.

أما إيليا ، النبي ، فقد أمرت

بأن يضرب له رمح من ذهب . »

ـ « اغنية وثنية » كذلك قال الكاهن، في ابتسامة استرضاء وهو يسحب كرسيه .

وفي غرفة النوم قالت ناتاليا لزوجها :

« لقد عاد ألكسي . لقد رأيتُهُ . انه يزداد امعاناً في السير على هواه في كل رحلة يقوم بها الى موسكو . اني أخشى ... »

في ذلك الصيف كانت بقع حمراء قد ظهرت على عنق ناتاليا الأبيض وعلى خديها الناعمين البيضاوين . كانت تلك البقع صغيرة كوخزات الأبر ، ولكنها ازعجتها برغم ذلك فكانت تعمد الى معالجتها قبل ان تؤوي الى فراشها بأن تفرك جلدها بمرهم عسليّ اللون فركاً موصولاً ، مرتين كل اسبوع . وانما كانت ناتاليا تعالج بقعها الصغيرة تلك حين حدّثت زوجها بهذا الحديث ، وقد استوت على كرسيّ لها أمام المرآة ، وأخذ مرفقاها العاريان ينشطان جيئة وذهوباً، فيتذبذب ثدياها العاليان، في قوة وعنف ، تحت قميصها الداخلي . وكان بيوتر مستلقياً في

فراشه ، وذراعاه مطويتان تحت رأسه ، ولحيته مسدّدة الى سقف الغرفة . والقى بيوتر نظرةً على زوجته فتراءى له أنها تشبه ضرباً من الآلة ، وأن مرهمها تنبعث منه رائحة كرائحة نوع من السمك الكبير المسلوق . وحين آوت ناتاليا الى فراشها ، بعد مجموعة من الصلوات المهموسة الصادقة ، حاولت ، متأثرةً بعادة جسمها السليم أن تراود زوجها عن نفسه . ولكنه تظاهر بأنه نائم .

وخاطب بيوتر نفسه :

« كان هو النواة . وكنت أنا المغزل . ألفّ وأدور . ومن الذي كان يغزل ؟ يقول تيخون : الرجل يغزل والشيطان يحوك المسوح . مسوح البلهاء والمجانين جميعاً ! »

وامتد المصنع الذي كان بيوتر يطوّره في همة ونشاط ، أبعدَ فأبعدَ على طول التلال المشرفة على النهر . وفقدت منحدرات الربى وشيَبها المذهّب . وبدأ وميض الصخور الطّلْقية يتلاشى ، وأخذت رؤوس الحجارة الصوانية تذوي . وسُوّي الرمل المنهال فهو ثابت لا يريم . وكان الربيع من كل عام يحمل الى ذلك المكان أعشاباً وحشائشَ اكثر خضرةً وأشدّ نضرةً . وبرزت شجرات الموز فجأةً على طول الممرات المذلّلة ، وكذلك نبات الأراقيطون المتدلي الآذان . وأحاطت بالمصنع شجيرات نواضر أُخذت فسائلها من الحديقة . وأمدّت أوراق الخريف الفاسدة الترابَ المنبسط بالخصب والحيوية . وهدر المصنع أعلى فأعلى ، زافراً جوّاً برمته من المخاطر والهموم . كانت ثمة مئات من المغازل تدور ، ومئات من الأنوال تخرّ ، وكان ثمة لهاثُ آلاتٍ لا ينقطع من الصباح

الى المساء ،وضوضاء صناعة تلفّ المصنع من أقطاره جميعاً . وكان مستحباً أن يحسّ المرء بأنه سيّد هذا كله – مستحباً الى حدّ مدهش ، وباعثاً على الزهو والغرور .

ولكن كانت ثمة أوقات – وما كان أكثرها – يخيّم فيها السأم على نفس آرتامونوف . وعندئذ يشرع في استحضار ذكريات الريف حيث قضى صباه الأول فيذكر نهر « رات » الصغير الهادىء الصافي ، والحياة الباذخة ، وعيشة الفلاحين البسيطة . ويشعر أنه قد وقع أسيراً في قبضة غير منظورة ولكنها لا تعرف الشفقة ، قبضة تديره وتلويه وفق مشيئتها ، وأن ضوضاء النهار التي تغمر دماغه لم تدع له مجالاً للتفكير في غير العمل وما يتصل به ، وان أدخنة المصنع المتموّجة تحجب العالم المحيط به بقنوط وضجر مظلمين .

وفي مثل هذه الأوقات كان التفكير في عمال المصنع خليقاً بأن يكون أدعى الى القلق والهم . كانت قوتهم ، في ما يبدو له ، تذبل في اطّراد ، وكانوا قد أخذوا يفقدون مقدرتهم الريفية على الاحتمال ، ويصابون بآفة التهيّج النسويّ – فهم سريعو الغضب الى حد بعيد ، وهم وقحون في الحديث . وأخذت تظهر فيهم خصالٌ جديدة من التبذير وعدم الاستقرار . ففي الأيام الخالية ، عندما كان أبوه لا يزال حياً ، كانوا أكثر مسالمةً ، وأكثر تفاهماً واتفاقاً . كانوا لا يسرفون في الشراب كدأبهم اليوم ، ولا ينغمسون في الرذائل ، هذا الانغماس الوقح . لقد تعقّد كل شيء الآن . لقد ارتفعت معنوية العمال وازدادوا ، في ما يبدو ،معرفةً

وادراكاً . ولكنهم صاروا يولون عملهم عنايةً أقلّ ،ويتعاطفون دون تعاطفهم في ماضيات الأيام . وكانت لهم جميعاً طريقة بغيضة في اختلاس النظر الى بيوتر وكأنهم يقيسون طوله وعرضه .وكان اليافعون منهم شديدي الفظاظة قليلي الاحترام ،بخاصة. لقد قتل المصنع في سرعة بالغة جميع الخصال الريفية عند الشباب .

لقد تعيّن عليهم ان يرسلوا فولكوف ، الوقـاد ، الى مصحّ الامراض العقلية في حاضرة المقاطعة . ولم تكن قد انقضت على التحاقه بالمصنع غير خمس سنوات كان في مطلعها رجلاً قوياً بهيّ الطلعة ، تصحبه امرأة تنضح بالحيوية . وإنما هجرا الريف الى البلدة إثر نار شبت في بيتهما فأتت عليه . وبعد عام واحـــد من حياتهما الجديدة اخذت المرأة تعاقر الخمر في اسراف ، واخذ فولكوف يضربها ضرباً مبرّحاً انتهى بها الى ان تقع فريسة للسل . وها هما الآن قد ولّيا جميعاً . والواقع أن آرتامونوف كان قد لاحظ كثيراً من مثل هذه الحـالات المؤذنة بانحطاطٍ سريع . ففي مدى خمس سنوات وقعت اربع جرائم قتل – اثنتان بسببٍ من منـازعات مخمورة ، وواحدة بدافع الثأر ، ورابعة ثمرة الحسد : حائك عتيق يطعن بخنجره احدى فتيات المصنع . أمـــا المشاجرات العنيفة المتكشّفة عن إصابات خطيرة فكانت شيئاً مألوفاً .

وبدا ألكسي وكأنه غير متأثر بهذا كله. وعلى الجملة ، فقد كان ألكسي يزداد صعوبةً على الفهم يوماً بعد يوم . كان فيه شيء يذكّر بذلك الهازل النظيف الضئيل الجسم ، سيرافيم النجار ، الذي كان يعمل في بري الاقواس والصفارات لاطفال المصنع بمثل البراعـة

والمتعة التي يتكشف عنها في صنع التوابيت لهم . كانت عينا ألكسي الصفريتان تتألقان بالثقة بأن كل شيء يسير سيراً حسناً ، وسيظل دائماً يسير سيراً حسناً . لقد أقام حتى الآن ثلاثة أضرحة صغيرة في المقبرة . ولم يتشبث بالحياة من أولاده غير ابن واحد ، هو ميرون . وكان ميرون هذا مخلوقاً في غير ما عناية من مجموعة مختلطة من العظام الطويلة والغضاريف ، فهو يبدو وكأن كلّ مفصل من مفاصله يصرّ ويَصْرِف . وكان من عادته ان يطقطق عُقد أصابعه في عنف ، محدثاً صوتاً مدوياً . حتى اذا بلغ الثالثة عشرة من سنيه لبس نظارتين قصّرتا بعض الشيء من انفه الطويل الشبيه بمناقير الطير وظلّلتا بهوت عينيه المقيت . والواقع أنه لم يخرج يوماً الى مكان ما من غير كتاب يحمله في يده ، وقد أقحم احدى اصابعه بين الصفحات اشارة الى الموضع الذي انتهى اليه في مطالعته ، حتى ليبدو الكتاب والذراع وكأنهما قد نبتا معاً . وكان يخاطب أباه وامه مخاطبة النّد للنّد — بل لقد كان يناقشهما ويجادلهما فيستملحان ذلك منه . أما بيوتر الذي كان يستشعر ، في وضوح، كراهية هذا الشاب له ، فكان يعامله بالعملة نفسها .

ولم يكن في منزل ألكسي شيء من الاحتشام . لقد بدا لآرتامونوف الكبير ان الفرق بين حياته هو وحياة اخيه يكاد يكون كالفرق بين الحياة في الدير والحياة في سرادق من سرادقات السوق السنوية . ولم يكن لألكسي وزوجته أصدقاء من اهل البلدة ؛ ولكن غرفها المزدحمة — وهي مستودعات حقيقية للدمى وضروب الرياش العتيقة المتهدمة . كانت تغصّ في العطل والأعياد

بجماعة من الناس لا يُطمأنّ كثيراً الى مسالكهم ، من مثل طبيب المصنع ، ياكوفليف ، باسنانه الذهبية ، وهو رجل حقود ساخر ؛ والميكانيكي المتبجّح ، كوبتيف ، وهو سكير ومقامر ؛ واستاذ ميرون وهو تلميذ كانت الشرطة قد منعته من مواصلة الدراسة ، وامرأته ذات الانف الأفطس ، وكانت تدخن وتعزف على القيثارة . وكان ثمة غير هؤلاء ايضاً من الحطام البشري . وكانوا جميعاً يشتمون رجال الدين وموظفي الدولة في وقاحة متساوية . وكان كل منهم مقتنعاً اقتناعاً واضحاً ببراعته الشخصية . واستشعر آرتامونوف ، في كل خيط من خيوط كيانه ، ان هؤلاء القوم تعوزهم الأصالة والنقاء . ولم يستطع ان يفهم أيّ حاجة يمكن ان تكون لأخيه فيهم ، وهو يملك نصف مصنع من المصانع الكبيرة المهمة . وكان اذا ما استمع الى حديثهم الصاخب يتذكر شكوى الكاهن :

« انهم ينشدون اشياء كثيرة ، ولكنهم يغفلون عن الشيء الاساسي . »

ولم يسأل نفسه : ما هو ، اذن ، الشيء الاساسي ؟ اين يكمن الجوهر ؟ كان يعرف ذلك . إنه كامنٌ في العمل .

وكان اقربهم الى قلب اخيه ، على ما يظهر ، هو ذلك الغجري الصاخب ، كوبتيف . وكان الميكانيكي يبدو سكراناً ابداً . وكان يتراءى وكأن فيه ضرباً من الطاقة الدافعة ، بل ضرباً من الحكمة ايضاً . وكثيراً ما كان يهتف اكثر من ايّ من اخدانه :

« انها كلها هراء ، هذه الفلسفة الخالصة ! الصناعة — هذه هي

العمدة ! الآلات ! »

ولكن آرتامونوف الكبير كان يرى في كوبتيف نواة هرطقية هدّامة . فقال لأخيه ذات يوم :

« انه رجلٌ خطِر . »

فدهش ألكسي لذلك دَهَشاً عظيما وقال :

« كوبتيف ؟ هذا هراء ! إنه رجلٌ رائع ، فعّال ، نشيط ، وبارع ! نحن في حاجة الى آلافٍ من مثله ! »

وأغرب في الضحك ثم اضاف :

« لو كانت لي بنتٌ لزوّجته اياها ، ولشددته بذلك الى المصنع شدّاً وثيقاً ! »

وأشاح بيوتر بوجهه عنه وهو أبعد ما يكون عن الارتياح .

وكان بيوتر يجلس وحده ، كلما أقلعت الجماعة عن لَعِب الورق ، في كرسيه ذي الذراعين — وهو ناعم عريض كأنه الفراش — يشد شحمة اذنه فيما يستمع الى الحديث . كان لا يستطيع الاتفاق مع اي من هؤلاء الناس ، وكان يود لو يناقش كلّ واحدٍ منهم . ولكنه لم يستشعر هذه الرغبة في مناقشتهم لانهم كانوا جميعاً يستخفون به ، وهو رفيقهم الاكبر ، فحسب . فقد كان ثمة اسباب اخرى ايضاً ، وان كان هو عاجزاً عن ان يوضح هذه الاسباب حتى لنفسه . ولكنه لم يكن محدثاً . فهو يكتفي بأن يُكره نفسه بين الفينة والفينة على ان يقول كلمة ما .

- « لقد حدثني الكاهن غلِب ، ذلك اليوم ، عن رجل يدعونه الكونت ... »

وفي الحال نبحَ كوبتيف في وجهه :

« واي شأن لك انت بذلك الكونت ؟ أنت ، أنت ؟ آخر زفرة من زفرات روسيا الفلاّحة . »

وإذ كان يصيح هكذا حرّك احدى اصابعه في اتجاه بيوتر تحريكا يؤذن بكثير من الأزراء وقلة الاحترام . ولم يكد سائر الرفاق يستمعون الى كلامه حتى أخذوا ، مثل كوبتيف ، يشبهون الغجر ، تلك القبائل التائهة التي لا وطن لها .

وقال بيوتر مخاطبا نفسه :

« عثّ ! طفيليات ! »

وفي ذات يوم قال :

« إنه لخطأ كله ذلك المثل الذي يزعم أن العمل ليس دباً حتى يفرّ إلى الغابة . العملُ دبّ حقاً، ولكن ما الذي يحمله على الفرار؟ إنه يستحوذ علينا ويهصرنا هصراً شديداً . السيّد والمولى ، ذلك هو مقام العمل بالنسبة الى الأنسان . »

فنبح كوبتيف :

« إسمعوا ، إسمعوا ! أين يستطيع المرء ان يجد مثل هذه الحكمة ؟ وممّن ؟ الآن عرفنا الخطر ! »

وتساءل ألكسي ساخراً :

« من أين أتيت بآرائك — من تيخون ؟ »

وغضب بيوتر غضباً شديداً . وحين آوى الى منزله قال لزوجته :

« افتحي عينيك جيداً على ايلينا . ان كوبتيف ، الغجريّ ، ليحوم حولها ، وألكسي يؤيده في كل شيء . ولكنها أكرم من

أن يصطادها هذا الرجل . فابحثي لها عن زوج . » .

فقالت ناتاليا في اهتمام :

« لا يوجد ههنا من هو أهلٌ لها . ومن الخير لنا ان نلتمس لها زوجاً في المدينة . ولكن لا داعي الى العجلة ، فما تزال ايليا صغيرة . »

فقال آرتامونوف :

« احذري أن يصطادوكِ وأنت غافلة »

وقهقه آرتامونوف ، وضحكت زوجته في احتشام .

وحين كان يحاول أن يتحرّر لحظة من هموم العمل ويُفلت من حلقتها الضيقة كان يجد نفسه كرة أخرى في خضمّ من ضباب الكراهية للناس الذين يحيطون به ، وعدم الرضا عن نفسه . ولم يكن ثمة غير رقعة مشرقة واحدة – هي حبّه لابنه . ولكن هذا الحب أيضا كان ناصل اللون ، محجوباً بالصبيّ نيقونوف ، أو لعلّه مشدودٌ الى ما دون السطح بثقل الجريمة الدموية . وكان اذا ما راقب ايليا يستشعر في بعض الأحيان باعثاً يحضه على ان يقول له :

« أنظر ما الذي عملتُهُ ، بسبب من خوفي عليك . »

ولم يكن عقله من الدهاء بحيث يخفي عليه ان هذا الخوف لم يبرز الا قبل القتل بلحظة . ولكن بيوتر ادرك انه ما كان يستطيع ان يلتمس مبرراً لعمله ، مهما يكن ضئيلاً ، الا في هذا الخوف وحده . ومع ذلك فقد كان يجتنب ايما ذكرٍ لنيقونوف ، امام ايليا ، خشية ان يَندّ منه تلميح ما الى الجريمة التي كان يُحب ان يتصورها عملاً من اعمال البطولة .

ورأى بيوتر ان ايليا يتطور بسرعة ، ولكن في اتجاه غريب .

كانت حريته آخذة في الانكماش يوما بعد يوم . فهو يتكلم مع امه في لهجة اكثر تأدباً ، وهو يجتنب مضايقة ياكوف الذي دخل الان ، المدرسة ايضا . كان يحب ان يمازح اخته الصغيرة تاتيانا ، ولا يذهب الى ابعد من السخرية المعتدلة مع ايلينا . ولكن كان ثمة في جميع اقواله وافعـــاله شيء من النفور ، من الاستغراق في اشياء اخرى . لقد حل ميرون محل بافيل نيقونوف . فاذا بابني العم لا يكادان يفترقان واذا هما يتجاذبان اطراف الحديث في غـير ملل ، وبأذرع تدور كالطواحين . كانا يقرءان معـــا ، ويدرسان معا ، في البيت الصيفي بالحديقة . وكان ايليـا نادراً ما يبقى في المنزل . كان يتناول الشاي صباحا ثم ينطلق الى بيت عمه ، في البلدة ، أو يختفي في الاحراج مع ميرون ومع غوريتسفيتوف الأسمر الجعد الشعر – وهو فتى صغير قوي شائك مثل علبة كبيرة ، ذو مشيـــة متراخية ، وعينين شديدتي الحول الى درجة يخيّـل الى المرء أنهما متصالبتان .

وسألت ناتاليا ابنها في اشمئزاز :

« ما الذي يجعلك تلازم مثل هذا اليهودي الصغير ؟ »

ولاحظ بيوتر أن حاجبَي الصبي الجميلين قد اختلجا .

– « ان كلمة يهودي تنطوي على اهانة ، يا امـــاه . وانت تعرفين جيداً ان ألكسندر هو ابن أخي الكاهن غليب ، فهو اذن روسي ثم انه طليعة الصف ، في المدرسة . »

وقهقهت الأم في استخفاف :

« ان اليهود يتقدمون الصفوف دائماً . »

فأجابها ابنها :

« كيف تعرفين ؟ ليس في البلدة كلها غير اربعة يهود ، وجميعهم فقراء ما عدا الصيدلي . »

— « اجل ، واربعون يهودياً صغيراً . واذا ذهبتَ الى فورغورود وجدتهم يملأون الارجاء ، وكذلك هي الحال في السوق السنوية . »

واعاد ايليا في اصرار مثير :

« ان لفظة « يهودي » كلمة رديئة . »

وهنا خفقت الأم صحن الفنجان بملعقتها ، وصاحت به وقد شاع الدم في وجهها :

« أتحاولُ ان تعلمني ، انا أعرف ما أقول ! إن لي عينين في رأسي ! في استطاعتي ان ارى كيف يحاول ان يحوم ذلك المداهن حول كل انسان ، حتى حول تيخون ، ومن اجل ذلك اقول انه ذلق اللسان كاليهود ، وهم فئة خطرة . لقد عرفتُ فتى مثله حلو المعشر ، ذات مرة ... »

فقاطعها بيوتر مقطب الجبين :

« كفى ! كفى ! »

وكادت العبرات تنفجر من عينيها ، وقالت متظلمة :

« ما هـــذا ، بيوتر إيليتش ؟ الا يستطيع الانسان ان يقول كلمة ؟ »

وجلس ايليا في صمت عابس . وذكّرته امه :

« اني انا التي جئت بك الى هذا العالم ؟ »

فقال ايليا :

« شكراً ! »

ودفر كوبه الفارغ. ورمقه ابوه بمؤخر عينه وقهقـــه في غير اسراف ، وهو يشد شحمة اذنه .

وعرف بيوتر ، من لهجة زوجته ، انها كانت تخشى ابنهـــا ، كخشيتها في وقت من الاوقات مصابيحَ الكاز ، وكخشيتها بعد ذلك ركوةَ قهوةٍ دقيقة أهدتها اليها اولغا ؛ وكانت ناتاليا على مثل اليقين من انها لا بد ان تنفجر في يوم من الايام . وكان هو قـد عرف ، ايضاً ، شيئاً مجاوراً لخوف ناتاليا المضحك هذا ، من ابنها . لقد كان ايليا غلاماً يصعب فهمه . بل لقد كان الثلاثة جميعاً غلماناً يصعب فهمهم . ما الذي كان يعجبهم في تيخون ، البستاني ؟ لقد كانوا يجلسون معه ، عند الباب ، في بعض الامسيـــات ، وكان ارتامونوف الكبير يسمع الى صوت البستاني يرتفع في نبرة تعليمية :

« هذا صحيح . كلما كان حملك اخفّ كان سيرك اسرع . أما حكاية الزوايا فلا تصدّقوها . وكيف يمكن ان يكون في السماء زوايا ؟ ليس من جدران هناك . »

وكان الاولاد يضحكون . فأما ضحك ايليا فكان متمهلاً وموجزاً . وامـــا ضحك ميرون فكان جافاً وحـــاداً . على حين كان غوريتسفيتوف أقلهم استسلاماً للضحك ، فهو يندفع دائماً في قوة وعزم الى القول :

« تابع حديثك ! ليس في هذا ما يضحك ! »

وتفيض حكمة تيخون الغامضة ، كرة اخرى ، فيضـــاناً هادئاً كسولاً :

« يتعين عليكم ، ايها الاولاد ، ان تتوسعوا في درس الكائنات البشرية . ما هو الانسان ، على اية حال ؟ وما مصيره ؟ ذلك ما ينبغي ان تفكروا فيه . ثم هناك امر الكلمات . وهذه يجب ان تُدْرس مليا . خذوا كلمة مثل « السعي » . انها كلمة جميلة سائغة . انتم جميعاً تستعملونها . ولكن لو فكرتم قليلاً لوجدتم انه ليس من نهاية لأي شيء ، ألبتة ! »

ويعيد تيخون ، ههنا ، كلمته المأثورة غير الغريبة على بيوتر :

« الرجل يغزل الخيط ، والشيطان يحوك المسوح . لا نهاية للزمان ، هكذا تسير الاشياء . »

ويضحك الاولاد من جديد ، ويقهقه تيخون معهم ، ثم يتنهد متحسراً :

« إيه ، عينان ذكيتان ! حكيم ، ولكن دون القياس العادي ! »

وفي ظلال المساء ، كان الصبيان يبدون اكثر صغراً واشدّ ضآلةً منهم تحت اشعة الشمس ، على حين بدا تيخون وكأنه يتورّم وينتشر ، وراح يتحدث في لهجة ادنى الى الحماقة من لهجته في ساعات النهار .

وزادت احاديث ايليّا مع تيخون في كراهية آرتامونوف للبستاني ، والقت في روعه ، في الوقت ذاته ، خوفاً غامضاً غير عاقل . فسأل ابنه :

« ماذا تجد في تيخون ؟ »

— « إنه شخصٌ ممتع . »

— « وما الذي يُمتع فيه ؟ حماقته ؟ »

فأجابه ايليا في هدوء :

« حتى الحماقةُ ينبغي أن تُفهَم . »

وأعجبَ آرتامونوف بهذا الجواب :

« صحيح . إن العالم مليء بالحماقة . »

ولكنه ما لبث آن ادرك ، بعد لحظة ،ما لم ينتبه له من قبل:

« تلك هي كلمات تيخون نفسها . »

وأثار ابنه في نفسه آمالاً من نوع خاص جـداً . فعندما كان ايليا يقف أمام النافذة ، مقحماً يديه في جيبيه ، صافـراً في رفق بينما هو يراقب العمال في الفِناء . . . وعندما كان يطوّف مستأنياً في غرفة الأنوال ، أو يوجّه خطاه الخفيفة نحو المستعمرة ، كان أبوه يخاطب نفسه في ارتياح :

« سوف يكون ربّ عمل ناجحاً . إنه لن يأتي مثلي الى العمل: مغلولَ اليدين مؤخّراً الى أجل . »

وكان مما يزعج الأب ، بعض الشيء ، أن ابنه قليـل الكلام جداً . حتى اذا تكلّم اصطنع كلماتٍ محكمة السبك مدروسةً لا تثير أبداً رغبة في مواصلة الحديث .

وقال آرتامونوف في ذات نفسه :

« إنه ناشفٌ بعض الشيء . »

ولكنه كان يجد عزاءً كافياً كلما ذكر كيف يختلف ايليا من سائر الصبيان — فهو خيرٌ من غوريتسفيتوف المهذار الضاجّ ، ومن ياكوف الكسول الواهن ، ومن ابن عمه ميرون . فقد كان ميرون يفقد ، في سرعة ، أمارات الشباب المميّزة ، فيتحدث بلهجـة

اصحاب الثقافة الكتبية ويسلك مسالك المغرورين مُشبهاً على الجملة موظفاً بيروقراطياً تنطوي الكلمة المطبوعة ، بالنسبة إليه ، على علاجات خاصة بالغة في الدقـة ليس يجوز الشكّ فيها ، لجميـــع طواريء الحياة .

وانقضت اسابيع العطلة في سرعـــة مراوغة . واخذ الصبية يستعدون لمغادرة بيوتهم . واتفق بطريقةٍ ما أن ناتاليا حمّلت ياكوف أثقالاً من النصائح ، على حين تحدّث الأب الى إيليا قائلاً كل شيء خلا ما كان يجبّ ان يقوله . إذ كيف يستطيع القول إنّ الحياة كانت تُرهقه سأماً وتبلّداً ، في ذلك القفـير من هموم العمل الرتيب ؟ إن المرء لا يستطيع ان يحدّث الصغار عن شؤون مثل هذه .

لقد كان آرتامونوف الكبير ظمآن الى شيء آخر ، الى تجربة ما خارج نطاق الحياة اليومية التي لا مفرّ منها كالثلج ، والمطر ، والوحل ، والحرارة ، والغبار . وكان ظمأه هذا شديداً الى درجة حملته آخر الامر على ان يكتشف ، أو يخترع ، ما كان يلتمسه . كان مرتحلاً الى احدى نواحي المنطقة الحرجية النائية فصدّته عن سبيله عاصفةٌ من عواصف المطر والبَرَد في شهر حزيران يرادفها رعدٌ مُجلجل وومضاتٌ زُرْقٌ من سحائب مُنفجرة . كانت المياه تنحدر على طريق الغابة الضيق من غير ان يكون ثمة سبيلٌ الى تبيّنها في الظلمة المفاجئة . وانحلّت الارض تحت حوافر الخيل ، مرتفعةً في الوحل المائع الى الجزء الرئيسي من العربة . وفي بعض الفترات المخوفة كانت شعلة زرقاء باردة تنتصب لحظةً فوق فوران

الأرض الذائب ، وعلى ضوئها المتوعّد ، عـــبرَ اهداب المطر الزجاجية ، انبثقت الاشجار المرتجفة انبثاقا قاتمـا نحو السماء ، من قلب الظلمة الراشحة ذات اليمين وذات الشمال . وكفّت الخيول غير المنظورة عن المسير ، وراحت تنخر ، وقد اخذت الميـــاه تتلاطم حول قوائمها القلقة . وتحدّث ياكيم ، سائق العربة البدين ذو الروح الصبور ، الى الأفراس يطيّب خاطرها . وما هي الا لحظة حتى انقطع البرَد ، وماتت طقطقتهُ القارسة في الغابة . ولكن المطر اخذ يهطل غزيراً ثقيلاً في ملايين من الحبّات الرصاصية ، لاطماً اوراق النبات ، مالئاً الظلمة بزئير غاضب .

وقال ياكيم :

« صار حتماً علينا أن نقصد الى بيت بابوف . »

وهكذا ، وفي مثل الحلم ، وجد آرتامونوف نفسه في ثيـاب جافة تشدّ على أوصاله ، جالساً في خجلٍ بالغ ، يحول بينه وبـين الحركة ، الى مائدةٍ في غرفة دافئة غارقة في شبه ظلمة حلوة . كان ثمة سماورٌ منكّلٌ يهمهم على المائدة ، وكانت امرأة هزيلة فارعة الطول ترتدي ثوباً داكناً ذا طيّات وافرة ، تصبّ الشاي . ان عينين رماديتين جميلتين لتضيئان وجهها الشاحب ، تحت عمامة من الشعر الضارب الى الحمرة . وفي كثيرٍ من البساطة والتسليم ، ومن غير ان يحمل صوتها ايما اثر من آثار التذمر والشكوى ، اخذت تتحدث عن وفاة زوجها منذ قريب ، وعن رغبتها في بيع ممتلكاته والانتقال الى البلدة لأنشاء مدرسة خاصة فيها ، ثم قالت :

« تلك نصيحة اخيك . انـــه رجلٌ ظريف يفيض حيويّة

واصالةً . »

ونخر بيوتر في حسد بينا كان يجيل بصره في المكان . لقد قُدِّر له في رحلاته التي قام بها - وهو شاب - برفقة والده ان يزور عدداً كبيراً من بيوت النبلاء، ولكنه لم يجد فيها شيئاً جذاباً. كان كل شيء هناك ، الناس وضروب الأمتعة والرياش ، لا يثير في نفسه غير حسٍّ من المضايقة الثقيلة الوطأة . اما في هذا البيت فلم يجد بيوتر شيئاً من الضيق. كان الجوّ جوَّ رقةٍ وصدق .وكان مصباح كبير قائم تحت حجاب مموّهٍ بلون الصقيع يسفح ضوءاً لَبَنياً على صحون المائدة واوانيها الفضية . وكان وهجُهُ الرفيق يداعب رأس فتاةٍ صغيرة ذات شعر ناعم داكن ، كانت منحنيةً فوق كتاب من كتب الصور ، وقد ظلّلت عينيها بوقاء اخضر. كانت الفتاة الصغيرة ترسم بقلم مروّس ترويساً بديعاً ، مدندنــــةً لنفسها بشيء ما ، ولكن في خفوت لا يُعطّل على امها حديثها الهادىء . ولم تكن الغرفة كبيرة ، وكانت ملأى بالأثاث . لقد بدت كل قطعة من هذا الاثاث وكأنها جزء لا يتجزأ من الغرفة كما بدت في الوقت نفسه وكأنها مستقلة عمّا سواها ، لتعبّر عن شيء خاصٍّ بها هي . والشيء نفسه يصحّ في الصور الزيتية الزاهية الثلاث المعلّقة على الجدران ، والتي كانت احداها - وهي المواجهة لبيوتر - تمثّل فرساً ابيض في قصة خرافيةٍ ما، ذا عنق مقوّسةٍ تقوّس زهوٍ وكبرياء ، وعُفرة طويلة الى حدّ لا يصدّق - فهي تكاد تكنس الأرض . كان كل شيء انيقاً وادعاً عــلى نحوٍ يثير الدهش ، وكان صوت السيدة العذب ينساب الى أذنيه كأغنية

شجية ، وكأنما ينبعث من مكان بعيد . في مثل هــذا الوسط يستطيع المرء ان يعيش حياتــه من غير ما هلع ، وأن لا يقارف شراً ألبتة . ومع مثل هذه المرأة كزوجة ، يستطيع أن يحترم امرأته وان يتحدث اليها عن كل شيء .

ووراء زجاج باب الشرفة الملون ، كانت انفجارات من الشعل المزرقة ، ولم تعد مخوفة شأنها من قبل ، تزلزل السماء المظلمة .

وغادر آرتامونوف المكان ،عندَ الضحى ، حاملًا معه كذكرى غالية مذخورة انطباعةً قوامها أمنٌ ورقةٌ لطيفـــان ، وصورة تلك المرأة الهادئة الرمادية العينين التي خلقت هذا الجوّ الناعم والتي تكاد تكون أثيريةً غير جسمانية . وفيما كانت عربته تجري عبر برك الوحل التي عكست على نحوٍ بالغ الجزئية ذهبَ الشمس وسواد السحب الملطّخ وقد مزّقتها الرياح ، فكّر في كآبة حسود :

« على هذه الشاكلة يعيش بعض الناس . »

ولسببٍ ما لم يحدّث زوجته حديث هذه السيدة التي تعرّف اليها ، ولم يذكرها على مسمع من ألكسي . وهــذا ما زاد في ارتباكه عندما دخل ، بعد بضعة أسابيع ، قاعة الاستقبال في بيت أخيه ، فوجد بوبوفا جالسةً على الأريكة الى جانب أولغا ، ودفعه ألكسي الى الأمام قائلًا :

« فيرا نيقولايفنا ، اقدّم اليكِ أخي . »

ومدت يدها ، وهي تبتسم ، وقالت :

« لقد عرفته قبل اليوم . »

فصاح ألكسي :

« ماذا تقولين ؟ ومتى كان ذلك ؟ لمَ لم تخبريني ؟ »
وادرك بيوتر المغزى الذي انطوى عليه دَهَش أخيه، واحس بنفشةٍ غريبة عند جذور لحيته . ثم اجاب وهو يشد شحمة اذنه :
« لقد ... نسيتُ . »
وصاح الكسي ، مشيراً الى اخيه في غير ما حياء :
« أنظرا – لقد احمر وجهه ! أيّ جواب بارع هو هذا ، أيها الصبي الصغير ! من ذا الذي يستطيع أن ينسى مثل هذه السيدة بعد ان يراها مرة ؟ أنظرا – إنّ أذنيه جربتان ، – إنهما تكبران ! »
وتبسمت بوبوفا ، ولكن ابتسامتها لم تنطوِ على اساءةٍ ما .
وقُدّمَ اليهم شراب مثلج من عسلٍ مختمر ، في كؤوس زجاجية طويلة . وكان هذا الشراب – وهو هدية من تلك المرأة الى اولغا – كهْرَبيّ اللون ذهبياً ، وكان يَخِزُ اللسان وخزاً مستحباً . والواقع أن هذا الشراب حمل مختلف ضروب الكلمات البارعة الى ذهن بيوتر ، بيد انه لم يجد سبيلاً للأفصاح عنها لأن أخاه لم يكفّ لحظةً عن اللغو والثرثرة .
– « لا ، فيرا نيقولايفنا ، لا تتعجلي البيع . ان بيتك في حاجة الى مشترٍ يَنشد الامن والهدوء . إنه مكان يلتمس فيه المرء راحة الفؤاد . وأمثالنا على غير استعداد لأن يشتروه منك ولو بثمن بخس . اذ ما الذي عندكِ هناك ؟ ليس عندكِ أرض ، ويكاد لا يكون عندكِ شيء من الاخشاب ، حتى اذا وُجد منها شيء كان من نوع رديء . والى ذلك ، فمن ذا الذي يحتاج الى الخشب ، في هذه الجهات ، غير الارانب ؟ »

وهنا قال بيوتر :

« يجب أن لا تبيعي . »

فسألته بوبوفا وهي ترشف شرابها شاردةَ الذهن :

« ولم لا ؟ »

ثم اضافت وهي تتنهد :

« انا مضطرةٌ الى ذلك . . »

ولم يرضَ بيوتر عن الطريقة التي كانت أولغا ترمقه بها ، او الطريقة التي كانت تختلج بها شفتاها ، وهي تكبت ابتسامة تريد أن تنطلق . فارتدّ في كمد الى شرابه ، ولم يجب بوبوفا بشيء .

وبعد يومين اعلن ألكسي ، وهو في مكتبه ، انه اعتزم ان يُقرض بوبوفا بعض المال مقابل رياشها ، قائلًا :

« إن بيتها لا يساوي شيئاً ، ولكنّ الأثاث الذي عندها . . »

فقال بيوتر في جزم شديد :

« لا تفعلْ . »

— « ولم لا ؟ أنا أعرف الاسعار والقيم . »

— « لا تفعلْ ! »

فصاح الكسي :

« ولكن لماذا ؟ سوف اشخص الى هناك مع احد الخبراء ونثمّن كل شيء . »

وهزّ بيوتر رأسه في اصرار . كان شديد الحرص على ان يثني أخاه عن هذا القرض ولكنه عجز عن أن يأتي بأيما حجةٍ ضدّه . وبدلاً من ذلك ، اقترح فجأة :

« لندفع اليها القرض مناصفة . نصفٌ مني ونصفٌ منك . »
وضحك ألكسي وقال وهو يحدّق اليه تحديقاً شديداً :
« بدأت تتصرف كالأحمق ؟ »
فقال بيوتر آرتامونوف في صوت عالٍ :
« اذا كان ذلك ، فقد آن الاوان ! »
وحذّره أخوه :
« إنتبه لنفسك ـ انها ليست الشخص المناسب . لقد جرّبتُ .
انها حمقاء قليلة الغَناء . »

وبعد اجتماعين او ثلاثة مع بوبوفا تعلّم آرتامونوف كيف يحلم احلاماً متصلة بها . كان يتخيّل هذه المرأة الى جانبه ، وفي الحال تنفتح أمامه حياةٌ من الراحة والرفه المذهلين ، حلوةٌ في العين قريبة الى الفؤاد ، مخضّبة بأمنٍ سائغٍ عذب ؛ حياة لا داعي فيها الى الاحتكاك اليومي بعشرات من فاقدي الكفاءة الكسالى ، غير الراضين ابداً ، الصائحين ابداً ، المتشككين الكاذبين الخادعين ابداً ، الذين يحيطونه بملقٍ لجوج ليس بأقلّ إزعاجاً من كراهيتهم المكتومة كتماناً غير بارع والنامية في اطّراد . كان من اليسير تصوُّرُ حياةٍ خلْوٍ عن هذا كله ، حياةٍ بعيدةٍ عن تلك الرتيلاء السمينة الحمراء التي لم تكن غير المصنع ، بنسيجها المنتشر أبد الدهر كان يستطيع ان يتمثّل نفسَهُ اشبه شيءٍ بهرة كبيرة ، تحيا في امنٍ مظلّل ، وتتمتع بحب مولاتها وتدليلها ، غير راغبة في شيء آخر ، كائناً ما كان .

وكما سبق للغلام بافيل نيقونوف أن شكّل بؤرة قاتمةً لكل

ما هو مرير وغير مرغوب فيه ، كذلك اصبحت بوبوفا الان حجرَ مغناطيسٍ لا يجتذب اليه غير الفكرات والمرامي الجذلة المستحبّة. لقد رفض أن يصحب أخاه الى بيت بوبوفا مع عجوزٍ ضئيل الجسم داهية ذي نظارات ، عُهِد اليه في تقويم ممتلكاتها .ولكن لم يكد ألكسي يعود ، وقد اكمل الصفقة ، حتى قال له :

« بِعني صك الرهن . »

ودُهش الكسي دَهَشاً يشوبه امتعاض . فطرح على اخيه اسئلة لا نهاية لها : لماذا ، ولأي سبب واخيراً صرح قائلاً :

« اسمع لما اقول ، انه لا يستحق اهتمامي ! وهي لن تستطيع ان تفي الدَّين ، واثاثها ذو قيمة — افهمت ؟ يتعين عليك ان تُضيف شيئاً . »

وتمت الصفقة . وقال الكسي مكشراً :

« ارجو لك حظاً سعيداً . انها صفقة رابحة . »

وشعر بيوتر ، ايضاً ، انه قد عمل صفقة رابحة . لقد اشترى لنفسه ملجأ تجد فيه الراحة .

وسأله أخوه غامزاً بعينه :

« وأمرأتك ؟ هل ألزم الصمت ؟ »

— « هذه مسألة خاصة بك تقرّرها بنفسك . »

ورمقه ألكسي بنظرات فاحصة وقال :

« أولعا تعتقد انك تحبّ بوبوفا . »

— « وهذه مسألة خاصة بي . »

— « لا تنبح في وجهي . معظم الرجال ، في مثل سننا ،

يلتمسون الحبّ من طريق غير شرعي.»

فأجابه بيوتر في خشونة وغضب :

« دعني وشأني . »

وما هي الا فترة حتى أخذ يلاحظ أن لهجة اولغا معه ، برغم اتشاحها بوشاح الودّ اكثر من أيّ وقت مضى ، اكتسبت معنى من الشفقة لم يكن ليسوغ في نفسه ، بحال . وفيما كان جالساً في غرفة الاستقبال ببيت أخيه ، ذات ليلة من ليالي الخريف ، سألها :

« هل حدّثك ألكسي أحاديث سخيفة عن بوبوفا ؟ »

وبلمسةٍ ودية من أصابعها الرشيقة لأصابعه الكثيفة الشعر قالت :

« ان هذا الحديث لن يذهب الى أبعد من ذلك . »

فقال آرتامونوف ضارباً ركبته بجُمْع كفّه :

« إنه لن يذهب الى اي مكان ألبتة . إنه سيبقى في حنايا صدري .ليس لكِ أنتِ ان تعرفي .واحذري أن تقولي لها شيئاً.»

لم يكن شهوةً ذلك الذي أحسّ به بيوتر نحو بوبوفا . ففي أحلامه كانت تظهر ، لا بوصفها امرأة يحبها ، بل بوصفها ضرورة ماسّة لهناءة بيتها اللطيفة ، وللعيش عيشةً طيبة صحيحة . ولكنْ ما إن انتقلت هذه المرأة الى البلدة حتى صار يلتقيها كثيراً في بيت ألكسي . وأتى عليه حينٌ شغفته فيه حبّاً . هبط بيت أخيه يوماً فألفى أولغا منحرفة الصحة . كانت بوبوفا واقفةً الى جانب سريرها وقد رفعت أردان قميصها ، تغمس منديلاً في حوض ماء . كانت تنحني فوق الحوض ثم ترتدّ الى وضعها الطبيعي — حسنةَ القوام

الى حدّ الروعة ، ذات ثديين صغيرين كأثداء الفتيات ، جذابـةً على نحوٍ لا يقاوَم . وتمهل آرتامونوف قليلاً في المجاز المؤدي الى الغرفة وانشأ يحدّق صامتاً ، من تحت حاجبـين مسلولين ، الى ذراعيها البيضاوين وربلتي ساقيها الجامدتين ، وور كيها،لتستحوذ عليه فجأةً رغبة غامرة جعلته يحسّ بأن يديه تطوقانهـا . ودخل الغرفة ، وهو يُكره نفسه علـى الانحناء جواباً على ترحيبها به ، وجلس الى جانب الأرملة . ثم سأل في اكتئاب :

« ما بك يا أولغا ؟ يجب أن لا تمرضي على هذه الشاكلة . »

والحقّ أنه ما من امرأة استطاعت قطّ أن تغـادر في ذات نفسه مثل هذا الاثر الطاغي لقد تداخله الفزع، وتراءت له نُذُرٌ بوَشْك الخطر . فأرسل عربته لاستدعاء الطبيب وغادر هو الغرفة مسرعاً الخطى في اتجاه المصنع .

كان ذلك في اواخر شباط . وكان الجوّ يؤذن باقـتراب العاصفة والثلج . وفوق الأرض ، كان ينبسط ضبابٌ رمادي يحجب السماء ويضيّق المدى من حول آرتامونوف ومن فوقه الى مثل اتساع قصعةٍ منقلبة رأساً على عقب . وكان الغبـار الرطب البارد يسّاقط في بطء ، ليستقر كثيفاً عـلى لحيته وشاربيه جاعلاً التنفس عملاً عسيراً . وفيما كان آرتامونوف يوسع الخطى عبر الثلج المستسلم استشعر أنه محطّم الأوصال منسحق الروح شأنَـهُ ليلةَ حاول نيكيتا الانتحار ، ويومَ مصرع بافيل نيقونوف . لقد كانت قرابة الخطورة بين هاتين الخبرتين واضحةً عنده ،وهكذا بدت الثالثة أحفل بالخطر وأدعى الى القلق والجزع . كان واضحاً

أنه لن يُوفّق الى أن يتخذ من هذه السيدة خليلةً له . وكان قد ادرك أن عاطفته المتأججة فجأةً نحو بوبوفا قد أخذت تخبو ، ملوّثةً شيئاً أثيراً عليه الى حدّ بعيد ؛ هابطةً بهذه المرأة الى دَرْكِ العاديّ والمألوف . إنه يعرف جيداً ما هي الزوجة . ولم يكن لديه ايا سبب يحمله على الاعتقاد بأن الخليلة يمكن أن تكون بأي حال خيراً من الزوجة التي تكاد ملاطفاتها الألزامية التافهة تعجز الآن عن إثارته .

وسأل نفسه :

« ما الذي تريد ؟ إشباع الشهوة ؟ إن عندك زوجةً من أجل ذلك . »

وكان آرتامونوف يحسّ دائماً ، خلال اللحظات التي يتهدّده فيها شيء ما ، برغبة متوترة في اجتياز الخطر بأسرع ما يستطيع ، مخلّفاً إياه وراءه ، غير ملتفتٍ اليه ألبتة . كانت مواجهة الخطر المحدق أشبه ما تكون ، في نظره ، بالوقوف على ثلج الربيع الهشّ السريع الانقصاف ، فوق نهر عميق ، في ظلمة الليل الحالكة . لقد جرّب هذا الهول في عهد المراهقة ، وإن هيكله كله ليرتجف الآن للذكرى .

وانقضت بضعة أيام في تعاسة بليدة مترهّلة . ثم كان صباح انطلق فيه باكراً الى الفناء ، بعد ليل لم تغتمض فيه عيناه ، واذا به يجد الكلب ، تولون ، ممدّداً على الثلج وسط بركةٍ من الدم . وفي الظلمة المتباطئة ، بدا الدم أسوَدَ كالزفت . ولمسَ آرتامونوف الجثة الشعثاء بقدمه . فتحرك فم الكلب المكشّر في الثلج ،

وتلألأت عينٌ جاحظة عند مقدّم حذائه . وارتعد آرتامونوف .
وإذْ فتَح الباب المنخفض المؤدي الى كوخ البستاني ، سأل تيخون من على العتبة :
« من قتل الكلب ؟ »
فقال تيخون ، وكان يشرب الشاي من صحن فنجانٍ أحسنَ توازنَهُ على أصابعه المبسوطة :
« انا الذي قتلته . »
— « لماذا ؟ »
— « لقد عاود عضّ الناس . »
— « ومن عَضّ هذه المرة ؟ »
— « زينايدا ، بنت سيرافيم . »
وبعد لحظة من الصمت المفكّر ، قال بيوتر :
« شيء مؤلم . »
— « طبعاً . لقد نشّأتُ الكلب منذ كان جرواً . ولكنه لم يبدأ في النباح عليّ إلا في الفترة الأخيرة . حسناً ، حتى الرجل قد يصاب بالخبل إذا ما أبقيتَهُ مصفّداً بالحديد . »
— « هذا صحيح » ، قال آرتامونوف ذلك وخرج ، مُغلقاً الباب وراءه في عناية بالغة ، ومخاطباً نفسه :
« إنه ينطق بكلام عاقل ، في بعض الأحيان . »
ووقف في الفناء فترةً ، مصيخاً إلى هدير المصنع وضجيجه . وفي احدى الزوايا القصيّة كان شعاعٌ أصفر ينبعث من نافذة مأوى سيرافيم ، الملاصق لجدار الأسطبل . وشخَصَ آرتامونوف

الى النافذة وألقى نظرة على المنزل . كان على الطاولة مصباح ، وكانت زينايدا عاكفة على قماش تخيطه ، وليس على جسدها غير قميصها الداخلي . ولم يكد آرتامونوف يدخل الغرفة حتى تساءلت من غير أن ترفع رأسها :

« لماذا عُدْت ؟ »

ولكن بصرها ما لبث أن وقع على الباب . واطّرحت ما في يدها من قماش ووثبت على قدميها ، وصاحت في ابتسامة :

« أوه ، يا إلهي ! لقد حسبتكَ أبي . »

« لقد سمعتُ أن تولون عضكِ . »

– « وكيف لا يفعل ؟ » قالت ذلك وكأن صنيع الكلب كان شيئاً يُفتَخر به . ووضعت قدمها على كرسيّ ، ثم رفعت قميصها وقالت :

« ألقِ نظرةً ! »

ونظر آرتامونوف إلى الرجل البضّة المضمّدة تحت الركبة تماماً . واقترب من الفتاة وسألها في فتور :

« وماذا كنت تصنعين في الفِناء عند تلك الساعة المبكّرة ؟ إيه ؟ »

وألقت عليه نظرةً متسائلة وقهقهت في فطنة . وأطفأت المصباح بنفخةٍ قوية من فمها ، وقالت :

« ينبغي أن نوصد الباب . »

وبعد نصف ساعة كان بيوتر آرتامونوف ، يتقدّم في غير ما إسراع ، وهو يجهدُ إجهاداً مستعذباً ، نحو المصنع ، ويشدّ شحمة

أذنه باصقاً بين الفينة والفينة مستحضراً في ذهنه ، بشيء من الذهول موقف الفتاة الذي يعوزه الحياء . وقهقه مرةً أو مرتين ، شاعراً انه قد ُوفق الى أن يمكر بأحدٍ ما ، ويظفر به ، وفي براعة بالغة .

لقد أغار على حياة العاملات البهيجة كما يغير الدبّ على إحدى المناحل ، فاذا هي تتعدّى كل ما كان قد سمعه عنها . والواقع أنها أذهلته ، باديء الأمر ، بعريها المرح من الكلمات والأحاسيس ، وبانطلاقها الكامل ، وبصفاقة وجهها التي لا ُتخفي عن العين شيئاً ، والتي كنّ يصدرن عنها في اغانيهن المرحــــة والدامعة . إنهن ــ زينايدا ورفيقاتها ــ يدعون ذلك حبّاً . وإن له للذعاً مريراً أدعى الى السُكْر من الخمر .

وكان آرتامونوف يعرف أن عمال المصنع يدعون منزل سيرافيم الصغير « الشَرَك » ويدعون زينايدا « المضخّة » . وكان سيرافيم نفسه يطلق على مأواه اسم « دير الراهبات » . وكان من دأبه أن يجلس في مقعده الخشبي الطويل ، قرب الموقـد ، ويسند قيثارته إلى منديلٍ موشّى منشورٍ فوق أحدى كتفيه ، ويأخذ في هزّ رأسه الجعد ، وتقطيب ملامحه الوردية ، صائحاً ، غـامزاً الفتيات جميعاً :

« امرَحْنَ ، ايتها الراهبات ! هذا هو السبب الذي من أجله هنّ راهبات .. بيوتر ايلييتش ــ ألا ترى ؟ لقد نذرن انفسهنّ للشيطان المرح ، وإني لرئيس ديرهنّ . ضربٌ مــــن القسيس ، ترا ، تا ، تا ! أعطنا روبلًا لكي نجعل الحياة بهيجة ! »

وكان يقحم الروبل في لِفافة رجله ، ويغني من حبة قلبـه ،

مداعباً أوتار قيثارته :

« سيدة تشوى في نار جهنم ،
استمطت قليلا من الثلج المقلي – باسم الاله !
ولكن وقادي الشيطان
بردوا المجنونة البائسة بمساعير النار ! »

وكان بيوتر يهتف :

« يبدو انك لا تعرف نهاية للنكات والاغاني . »

فيجيبه الرجل العجوز في زهو :

« غربال ! انا مثل الغربال . غربل لي أيما سقط من أسقاط الحديد أخرج لك أغنية . ذلك نوع الرجل الذي أنا منه – منشار ؟ »

وقال ذات مرة :

« لقد تعلمت على ايدي النبلاء . آل كوتوزوف – لقد كانوا نبلاء رائعين . وكان هناك يابوشكين ، وهو من النبلاء ايضا . وما اكثر ما كان يشرب . وكان يعزف عزفاً رديئاً – الثعلب ! – مطوفاً في تثاقل ، حاملاً على ظهره صرة كبيرة ، بائعاً ضروباً مختلفة من سقط المتاع . وكان يدون كل ما يراه أو يسمعه . حسناً ، لقد كتب وكتب ثم قصد الى القيصر وقال له : انظر يا صاحب الجلالة ما الذي يفكر فيه فلاحوك ! فنظر القيصر وقرأ تلك الكتابات كلها ، فداخله الحزن الشديد . وفي الحال أصدر أمره بتحرير الفلاحين وبأقامة تمثال من البرونز ليابوشكين . وكان المفروض أن يصنع هذا التمثال في موسكو . أما يابوشكين

فما كان لهم أن يمسّوه ، بل ان يرسلوه حياً الى سوزدال ، ويقدّموا اليه جميع ما يطلب من ضروب الخمر ، ويسجلوا ثمنه على خزانة الدولة . لأن يابوشكين كتب مختلف صنوف الأسرار عن وضع الشعب ، إلا أن ما كتبه كان ضدّ القيصر ، وكان لا بدّ من الطمس عليها . وهناك في سوزدال عاقر يابوشكين الخمر حتى مات وقد سرقوا كتاباته ، طبعاً . »

وقال آرتامونوف :

« هذا كله كذب . »

فأجابه الرجل العجوز :

« انا لم اكذب في حياتي قطّ ، إلا مع الفتيات . هذه ليست صناعتي . »

وكان من العسير على المرء دائماً ان يحزر في اي الاوقات كان يمزح وفي ايها كان يجدّ .

وواصلَ العجوز لغوه :

« إن الناس الذين يعرفون الحقيقة يكذبون . اما فلا أكذب لاني لا اعرف الحقيقة . ومع ذلك فاذا اردتم ان تعرفوا ففي استطاعتي ان اقول لكم شيئاً واحداً . لقد شهدت كثيراً من الحقائق ، في ايامي ، وشعاري هو هذا : الحقيقة كالمرأة ، تكون جميلةً ما دامت جديدة . »

وقد لا يكون عَرَفَ الحقيقة ، ولكنه كان يعرف سلسلة لا نهاية لها من الحكايات عن النبلاء ، عن لهوهم ونكباتهم ، عن وحشيتهم وثرواتهم . وكان اذا ما روى هذه الحكايات يضيف

دائماً ، في أسفٍ واضح :

« أجل ، ولكنهم الآن قد تلفوا . لقد زُحزحوا عن مكان الصـــدارة . فهم لا يرون طريقهم . صاروا يقفون بعيداً على موازاة خطّ تُماسّ ! »

ورسم دائرة حول رأسه ، ثم خفض ذراعه في سرعـــة ورسم دائرة اخرى قرب ارض الغرفة .

وختم كلامه بقوله :

« لقد انغمسوا في ملذاتهم باكثر مما ينبغي . »

ثم غمز بعينه وأنشأ يغني :

« كان في الزمان جماعة من النبلاء ،
يعيشون في ترف مكسال،
حتى بددوا ممتلكات أبيهم كلها ،
ذات اليمين وذات الشمال . »

وروى سيرافيم حكاياتٍ عن قطاع الطرق والعرّافات ، عن ثورات الفلاحين ، عن الحب البائس ، عن الثعابين الشرسة التي كانت تقتحم تحت جنح الظلام خـدورَ الارامل اللواتي لم تعرف قلوبهن العزاء . وكان حديثه من الامتاع بحيث كانت بنتُهُ العسيرة القياد تجلس ساكنة صامتةً ، وتصيخ الى حكاياته في شوق ولذة ، كأنها طفلٌ صغير .

وكان آرتامونوف يجد في زينايدا ، على نفور وكره ، مزيجاً من انغماسٍ عنيف في اللهو وواقعية حاسبةٍ مُدقّقة . ولقـد ذكر غيرَ مرةٍ تلك الاشاعة الكاذبة التي أطلقها بافيل نيقونوف ، والتي

غدت الآن نبوءة . وكان يسأل نفسه :

« لماذا اخترتُ هذه ؟ إن هناك فتيات أحلى . وما يكون موقفي لو اكتشف ايليا أمرها ؟! »

ولاحظ ايضاً أن زينايدا وصويحباتها كنّ يعتبرن لعبهن ولهوهن ضرباً من الواجب المفروض الذي لا مفرّ من ادائه بروح الجنود حين يصدر اليهم الأمر بالقيام بمهمةٍ ما . وكان يتراءى له في بعض الاحيان ان قلة حيائهن نفسها لم تكن غير محاولة الى خداع انفسهن وخداع الاخرين في وقت معا . وما هي الا فترة حتى نفّرهُ نهم زينايدا الى المال واستجداؤهـا اللجوج . وكانت هذه الخصلة واضحة فيها اكثر من وضوحها في سيرافيم الذي كان يُنفق ماله كله على « خمر التنريف » الحلوة — وكان يدعوها لسبب من الاسباب « خمرة اللفت » — وعلى مربّياته المحبوبة ، وكعكه الحلو ونقانقه المثوّمة .

وأحب آرتامونوف هذا الرجل المرح العجوز ، العظيم الامتاع كرفيق ، والشديد البراعة كعامل . والحق ان الناس جميعاً كانوا يحبون سيرافيم . وفي المصنع ، كانوا يدعونه « المُعَزّي » . وكان في هذا اللقب من الصدق اكثر مما فيه من السخرية ، على ما كان في استطاعة بيوتر ان يرى . وحتى السخرية كانت هنا رقيقة تنضح بالمحبة .

وكان ذلك يزيد فهم الصداقة بين سيرافيم وتيخون وهضمها صعوبة وعسراً . وبدا تيخون وكأنه يحاول أن يكشّف ، رغبة واختياراً ، كراهية مستخدمه له . وإذ كانت تلك

السنة هي السنةَ العشرين التي انقضت على عمـــل فيالوف في خدمة أسرة آرتامونوف فقد اعتزمت ناتاليا أن تحيط عيده بهالة من الروعة والجلال .

وقالت لزوجها :

« هذا رجلٌ لا يقع المرء على مثله دائماً . تصوّرْ أنه خـلال عشرين عاماً من الخدمة لم يورثنا بلاءً ما . إنه هاديء ، ثابت ، مثل شعلة منبثقة من شمعةٍ من النوع الجيّـد . »

وأحبّ بيوتر أن يسبغ على البستاني شرفاً خاصاً فحمل اليه الهدايا بنفسه . وكان سيرافيم في الكوخ في حلّة الأعياد القشيبة . وكان تيخون واقفاً خلفه ، مطأطيء الرأس ، محدّقاً الى مقدّم حذاء صاحب العمل .

— « هذه الساعة هي هديةٌ مني . وهذا الجوخ العريض هدية من السيّدة . أجل ، وههنا ايضاً بعض المال . »

وغمغم تيخون :

« لا داعي لتقديم المال . »

ثم أضاف بعد تمهّل :

« شكراً . »

ودعا مستخدِمَهُ الى ان يجرب الخمرة التي جاءه سيرافيم بها . وفي الحال بدأ النجار ، الضئيل الجسم ، يثرثر :

« انت تعرف كيف تقدرنا حق قدرنا ، بيوتر ايليتش ، ونحن نعرف كيف نقدرك حق قدرك . اننا ننظر الى المسألة هكذا : الدب يحب العسل ، والحدّاد يطرّق الحديد . لقد كان النبلاء هم

الدببة ، بالنسبة الينا ، في حين أنك أنت الحدّاد . في استطاعتنا أن نرى عِظَم مشروعك الصناعي، ومقدار العمل الذي يقتضيه. »

وكان تيخون منهمكاً في جسّ الساعة الفضية بأصابعه . ثم انه قال وعيناه ما تزالان تحدقان اليها :

« العمل . . . هو درابزون . . . بالنسبة الى الانسان . ذلك ما نتعلّق به في سيرنا على حافة الهاوية . »

وصاح سيرافيم في سرور :

« هذا صحيح ! ولولاه لسقطنا ! »

وأعلن آرتامونوف :

« ليس لكما أن تتحدثا عن ذلك ، لأنكما لا تملكان مصنعاً ما . انتما لا تستطيعان فهم هذه الأشياء . »

لقد التمس عباراتٍ أقوى ولكنها اعجزته ، على الرغم من أن كلمات تيخون كانت قد أثارت غضبه في الحال . ولم تكن هذه أول مرة يُفرغ فيها تيخون فكره الغامض الجموح في هذه العبارات ، ولكنْ تضايق بيوتر منها كان يتعاظم كلما كرّرها البستاني من جديد . وسخر بيوتر ، وشدّ شحمة أذنه ، محدّقاً إلى رأس البستاني المنحوت في غير إتقان ، المطليّ بكثير من الدهن ، باحثاً ما يزال ، ولكن عبثاً ، عن كلمات يستطيع بها أن يسحقه .

وتدخّل سيرافيم محاولاً إصلاح ذات البين :

« هناك ضروب مختلفة من العمل طبعاً ، رديئة وجيدة . . »

فغمغم تيخون :

« إنّ أمضى السكاكين لا تجري في يُسْر على حنجرتك . »

واستشعر مستخدِمُهُ الحاجة الى أن يسبّه جهاراً . ولكنه كبت هذا الحافز الداخلي الملحّ – فقد كان ذلك اليوم عيده – وسأله في تجهّم :

« ما الذي دهاك حتى تنطق دائماً بهذا الهراء السخيف حول العمل والصناعة ؟ أنا لا أستطيع أن أفهم . »

وأقره تيخون على ذلك ، قائلاً وهو يحدّق تحت الطاولة :

« أجل ، إنه من العسير أن يُفهَم . »

وتدخّل النجار كَرّةً أخرى :

« ترى ، بيوتر إيليتش . إنه لا يقصد الى اكثر من القول بأنه ينبغي أن تكون ثمة أنواع من العمل غير الضارّ . »

– « كفى يا سيرافيم . دعه يتحدث لنفسه . »

ثم إن تيخون تنهّد ، من غير ان يتحرك ، وقد حنى رأسه الى درجة مكّنت بيوتر من أن يرى البقعة المسمرّة الصلعاء ، البالغة حجم الكفّ ، على أمّ رأسه ، وقال :

« العمل هو ما علّمه الشيطانُ لقايين . »

ونهض آرتامونوف وقال للبستاني مُغضَباً :

« من الخير لك أن لا تتحدث عن أشياء لا تستطيع فهمها . أجل . »

وغادر الكوخَ ، على غاية من الاستياء ، وهو يفكّر في ضرورة فَصْل تيخون من العمل . إنه سوف يفصله غداً . حسناً ، لن يفصله غداً ، ولكنْ في الاسبوع القادم . وفي المكتب وجد بوبوفا في انتظاره . ورحبت به في برود ، وكأنه غريب . حتى

اذا جلسَتْ ضربتِ الأرضَ بمظلّتها ، وأنشأت تتحــدث عن فائدة الرهن التي كانت عاجزة عن دفعها في الحال .

وقال بيوتر في هدوء ، ومن غير أن يتطلّع اليها :

« لا بأس . »

وتابعَتْ :

« اذا كنتَ لا ترغب في تجديد الأجل ، فأنّ لك الحقّ في أن ترفض . »

ولم تكد تقول هذا في لهجةٍ مستاءة ، حتى خفقت أرضَ الغرفة من جديد ، وانسحبت في سرعة غير متوقّعة حتى انها كانت تغلق الباب خلفها في اللحظة التي رفع فيها رأسه .

وقال آرتامونوف في ذات نفسه :

« إنها غضبَى . ولكنْ ممَّ ؟ »

وبعد ساعة كان آرتامونوف جالساً في غرفة الاستقبال ببيت أولغا ، لاطماً الأريكة بقبعته زيادةً في التوكيد :

« قولي لها — اني لا أريد أي فائدة ، ولست أريد المال أيضاً . قولي لها أن لا تقلق . أفهمتِ ؟ »

وأجابت اولغا ، وهي منحنية على شالها الحريرية الزاهيـة وصناديقها الطافحة بالخرز :

« فهمتُ . حسناً . ولكنني لا أعتقد أنها تقبل . »

— « حسناً . حاولي ان تقنعيها . إذ ايّ فائدة لي من فهمك ؟ »

— « شكراً » قالت أولغا ذلك ، وأومضت نظارتاها ، وهي ترفع بصرها ، بابتسامة زجاجية وجدها شديدة الإثارة لغضبه .

فقال في خشونة :

« ليس ثمة ما يُتَنَدَّر به . أنا لا أتوقّع أن أمدّ جذوري في جنينتها . ليس هذا ما أسعى اليه . ألا تظنين ذلك ؟ ! »

وتنهّدت أولغا وقالت وهي تهزّ رأسها الناعم هزة ارتياب :

« آه ، أنتم الرجال ! »

وصاح بيوتر :

« صدّقيني ! أنا أعرف ما أقول . »

– « آه ، ولكنْ أواثق انت ؟ »

وكان تنهّدها مثيراً . لقد ادرك آرتامونوف ذلك . وكانت عيناها ، اللامعتان وراء نظارتيها ، تموران بالحنان ، وتكادان تكونان مريضتين . ولكن ذلك لم يزده الا حنقاً . وجلس يحدّق الى نبتة « البيجونيا » الموضوعة على قاعدة النافذة ، بعناقيد ازهارها الجميلة الناهدة وسط اوراق سمينة تبدو اشبه ما تكون بآذان الحيوانات . كان يودّ لو يقول لها شيئاً واضحاً حاسماً ، ولكنّ الكلمات المناسبة أبت ان تنقاد له . وأخيراً قال :

« إن ما آسف له هو ذلك المكان الذي تملكه . إنه لمكانٌ رائع . أجل إنه رائع ! لقد وُلِدتُ هناك . »

– « لقد وُلِدتُ في ريازان . »

– « حسناً لقد اعتادت العيش هناك . ما الفرق ؟ وعلى اية حال فقد نامت روحي هناك ، لاول مرة ، في أمن . »

فقالت اولغا :

« تعني انها استيقظت . »

— « لا فرق ، بالنسبة الى الروح ،بين ان تسمي ذلك نوماً او يقظة . »

وتحدّث وتحدّث ، من غير أن يفهم هو نفسه كثيراً مما كان يقول. واستمعت أولغا الى حديثه ودفنها في يدهـا . حتى اذا نفدت بضاعته قالت :

« والان إستمِـعْ اليّ .»

وأخبرته ان ناتاليا عرفت بميله الى فتاة المصنع ، وأن ذلك أوجعها فبكت واشتكت . ولكنّ هـــذا لم يحرّك قلب آرتامونوف . وقال في ابتسامة متضجرة :

« يا لها من داهية . لم تبدُ منها أيما إشارة تؤذن بأنها عارفة . واذن ،فقد شكت حالها اليكِ ? هِمْم اومع ذلك، فهي لا تحبّكِ . »

وفكّر لحظةً ، ثم أضاف :

« إنهم يدعون زينايدا « المضحّة » . وانهم على صواب ! فقد انتزعت مني جميع الادران . »

وقالت أولغا وهي مكشّرة :

« هذا كلامٌ معيب . »

ثم تنهدت وأضافت :

« أذكرُ أني قلت لك مرةً إنك تعامل روحك وكأنها طفل لقيط . والواقع أن هذه حالك على وجه الدقة ، يا بيوتر . إنك تخاف من ذاتك نفسها ، وكأنك أنتَ ألدّ اعداء نفسك . »

وأغضبه هذا الكلام وقال :

« انت تذهبين الى أبعد مما ينبغي . هل تحسبينني ولداً صغيراً؟

لماذا لا تتمهلين لحظة وتفكرين : ها أنا ذا أتحدث اليك ، فاتحاً لك روحي على مصراعيها ، ومع من غيرك استطيع أن أتحدث على هذه الشاكلة ؟ انك لا تستطيعين أن تتحدثي كثيراً مع ناتاليا . إني في بعض الأحيان أحس وكأني أودّ ان أصفعها . وها انتِ ذي ... آه منكنّ ، أيتها النساء ! »

ولبس قبعته وغادر الغرفة وقد استحوذ عليه فجأةً ضجرٌ صامت . والتفت عقله الى زوجته. لقد أتت عليه فترةٌ طويلة من الزمن لم يفكر خلالها فيها ، ولم يكد يلاحظ أنها كانت ، بعد أن تتهامس كلّ ليلةٍ مع الله ،تتمدد الى جانبه وملء برديها حبٌ مشبوب .

وقال مخاطباً نفسه في حنق :

« انها تعرف ، ومع ذلك فهي تحشر نفسها كالعادة .. يا لها من خنزيرة ! »

كانت امرأة بيوتر مجازاً مألوفاً كان في استطاعته أن يدوسه مغمض العينين من غير أن يتعثّر أو يزلّ . ولم تكن به رغبةٌ في التفكير فيها . ولكنه ذكرَ أن حماته التي كانت تموت على مَهَل في كرسيّها ذي الذراعين ،بهيكلها المتورّم ووجهها القرمزي المنتفخ على نحوٍ مخيف ، أخذت تنظر اليه في كراهية متعاظمة . كانت العبرات تفيض ، بصورة تدعو الى الرثاء ، من عينيها اللتين كانتا في وقتٍ مضى جميلتين ، واللتين أمستا الآن زجاجيتين مزكومتين . كانت شفتاها الملويّتان تتحركان ، ولكنها لم تكن قادرةً عن الكلام: كان لسانها يتدلى، عاجزاً ، من فمها ،فهي

مضطرة الى أن تردّه الى مكانه بيدها اليسرى ، نصف الميتة أيضاً :

— « إنها امرأة ذات عاطفة . وإني لارثي لها . »

واقتضاه قطعُ صلاته الفاسقة بزينايدا إعمالاً لقوة الارادة ما كان يتوقع مثله من قبل . حتى اذا تمّ له ذلك شرعت تعذّبه أفكارٌ جديدة برزت الى جانب ذكرياته عن فتاة المصنع . لكأنما وُلد الآن بيوتر آرتامونوف ثانٍ ، وعاش جنباً الى جنب مع الأوّل ، فهو أتبَعُ له من ظله . وكان يحسّ بهذا المولود الازدواجي الجديد ينمو على نحوٍ جليّ ملموس ليصبح عقبة في سبيل كل ما كان هو ، بيوتر آرتامونوف الحقيقي ، مدعوّاً إلى عمله وتحقيقه . وإذ كانت هذه الشخصية الجديدة تسيطر في براعة ودهاء على غيبوبات الذهول الحالم التي كانت تستحوذ عليه فجأة في بعض الاحيان ، فقد كانت تدسّ في تلطّفٍ بالغ كثيراً من الفكرات المريرة الملوّعة :

« أنت تشتغل كالحصان — لماذا ؟ إن عندك لثروةً تغنيك مدى الحياة . وقد آن لابنك أن يفرغ للعمل . أنت تحبّ ابنك — ومن اجل ذلك قتلت غلاماً وديعاً . لقد بهرت عينيك سيدة بارعة الجمال — ومن اجل ذلك صرت وحشياً . »

وكانت الحياة تبدو دائماً ، بعد هذه الفكرات ومثيلاتها ، تافهة ، لا لون لها ، بأكثر من ذي قبل .

لقد غفل ، بطريقةٍ ما ، عن ان يلاحظ متى استوى شباب ايليا ، على وجه الضبط . ولم يكن ذلك هو الحادث الأوحد الذي مرّ به من غير أن يلحظه على الاطلاق . والشيء نفسه يصحّ في

جهود ناتاليا من أجل ابنتهما ايلينا التي تزوجت آخر الامر من ابن جوهريّ غنيّ من أهالي الحاضرة ، وهو شابٌ عالي الهمــــة ذو شاوب صغير أسود . والشيء نفسه يصح أيضاً في وفاة حماته ، التي قضت نحبها ، آخر الامر ، في يوم قائظ رطب من أيام حزيران ، قبل ان تهبّ العاصفة بقليل . وفيما كانوا يمدّدونها في فراشها، قصف الرعدُ قصفاً مدوّياً ينبعث من قربٍ يدعو الى الدهش .

— « اغلقوا الأبواب والنوافذ ! » كذلك صاحت ناتاليـــا مُفلتة رِجلَ أمها لتضع أصابعها في أذنيها . وهكذا سقط العَقِب المتورم على الارض وارتطم بها ارتطاماً بليداً .

وحسبَ آرتامونوف لحظةً أنه لم يتبين ابنَـهُ في ذلك الشاب الفارع الطول الحسن البنية الذي كان يتقدّم الى مكتبـه . كان ايليا يرتدي بذلة صيفية رمادية . وكان وجهه الزيتوني اللون قـد ازداد نحولاً ، وقد طرّ شارب على شفته العليا . امـا ياكوف ، البدين العريض، فقد بدا بثوبه المدرسي الرسمي اكثر شبهاً بنفسه . وحيّا الفتَيانِ أباهما في أدب ، وجلسا .

وقال الاب وهو يذرع الغرفة جيئة وذهوباً :

« حسناً ، وهكذا توفيت جدتكما . »

ولم يُجب ايليا بشيء . كان يُشعل سيكارة . أما ياكوف فأعلن في صوت جديد غريب :

« من حسن الطالع انها اختارت فترة العطلة . وإلا كنت جديراً بأن لا احضر . »

وترك بيوتر ملاحظة ابنه الاصغر غير المنـــاسبة تمرّ من غير

تعليق . كان انتباهه مركّزاً على ابنه الاكبر . لقد تغيّرت ملامح إيليا تغيّراً كبيراً وازدادت قوةً وشخصيةً . ولقد غدا شعرُه أدكن مما كان في الصبا . وإنه ليظلل جبهته فيجعلها تبدو أقلّ ارتفاعاً . وانتهت عيناه الزرقاوان الى ان تصبحا اكثر عمقاً . وكان طريفاً ومُرْبكاً بعض الشيء أن يتذكر الوالد أنه شدّ ، ذات يوم ، هذا الشاب الرصين ذا البزّة الفخمة من ذوائب شعره الجعد . والحق أنه كان من العسير عليه أن يصدّق أن ذلك قد وقع فعلاً . أما ياكوف فقد أصبح اكثر طولاً وضخامة ، ولكنه ظلّ بديناً مُدَوّراً كشأنه من قبل ، وحافظ على عينيه المختلفتي الألوان ، نفسهما ، وعلى فمه الصبياني نفسه .

وقال الأب :

« لقد كبرتَ ، يا ايليا . حسناً ، خُذْ نفسك بأعمال المصنع ، حتى اذا انقضت ثلاث سنوات او أربع كان في ميسورك ان تتولى الادارة العامة . »

وتطلّع ايليا الى أبيه . كان يعبث بعلبة سكايره ، وهي خشبية ، متشققة عند احدى زواياها .

– « لا . إني أريد أن أواصل دراستي فترةً أخرى . »

– « فترة طويلة ؟ »

– « أربع سنوات أو خمس . »

– « حسناً ، حسناً ! ايّ موضوع سوف تدرس ؟ »

– « التاريخ . »

لقد ساء آرتامونوف أن يكون ابنه قد بدأ يدخن . وكانت علبة السكاير تلك من سقط المتاع . وكان في ميسوره أن يشتري شيئاً أفضل . وساءه اكثر عزمُ ايليا على مواصلة الدراسة ، وأنه أثار هذه المسألة في الحال ، ولمّا تمض على عودته غير دقائق .

وأشار بيوتر من خلال النافذة الى سطح المصنع ، حيث كانت نفثات صغيرة من البخار تندفع من فم أنبوب ضيّق ، منقّطةً هدير المعمل وواضعة الفواصل له. وقال في صوت مؤثّر ، ولكنه أنيسٌ رفيق جهد الطاقة :

« هوذا تاريخٌ يتفجّر حياةً هناك. ذلك ما ينبغي أن تدرسه. إن شغلنا هو حياكة الكتان - أمّا التاريخ فليس من شغلنا . انا الآن في الخمسين . وقد آن لي أن أستريح . »

فقال ايليا ، وهو ينفض رماد سيكارته خارج النافذة :

« ميرون سوف يريحك ، وياكوف . إن ميرون سيغدو مهندساً . »

فقال الأب :

« ان ميرون ابن أخي ، وليس ابني . ولكننا سوف ندرس هذه المسألة كلها في ما بعد . »

ونهض الولدان وخرجا . وأتبعهما الوالد نظرةً ، وعيناه متسعتان دَهشاً واستياء . ألم يكن عندهما شيء يقولانه له ؟ لقد مكثا في مكتبه خمس دقائق . فأما احدهما فقد تكلم كالمجنون ثم جلس يتثاءب في نعاس ، وأما الآخر فقد ملأ الغرفة بدخان التبغ ، وأوقع القلق في نفسه منذ اللحظة الاولى . ها هما الآن في

الفناء . انه يستطيع ان يسمع صوت ايليا :

« هل نذهب لنلقي نظرةً على النهر ؟ »

— « لا . اني متعب بعد هذا السير . »

— « سوف يبقى النهر هناك غداً » وأمنا تنتحب على امها وقد أنهكتها الترتيبات الخاصة بالجنازة . »

ونزولا عند عادته من تعجّل ملاقاة البلاء ، ابتغاء أجتنابـــه والالتفاف حوله بأسرع ما يُستطاع ، لم يعطِ بيوتر ابنه غير مهلة اسبوع واحد . ولاحظ خلال هذا الاسبوع أن ايليـــا يصطنع ضمير الجمع التفخيمي في كلامه مع العمال ، وانه يجلس ساعـــاتٍ طوالا على مقعد خشبي قرب باب البيت يتحـــدث الى تيخون وسيرافيم . بل لقد سمع بيوتر ، ذات يوم ، وكان واقفاً الى نافذة غرفته ، جزءاً من حديثهم . فاذا صوت تيخون الخالي من الحياة يُدَنْدِنُ في بلاهة :

« هكذا ، هكذا ! إنهم يدعونهم شحاذين — متسوّلين . قد يقال أصْلِحْ — ولكني لا أستطيع . لمـــاذا لا يستطيعون هم ان يصلحوا ؟ صحيح ، ايليا بيتروفيتش ، لو استطاع الناس أن يقلعوا عن الجشع لكان ثمة ما يقيم أود كل إنسان ! »

وهنا صاح سيرافيم ، كالديك مستبشراً :

« اجل ، أنا أعرف ! منذ أجيال عديدة سمعتُ بذلك . »

وسلك ياكوف سلوكاً أقرب الى الفهم . كان لا يغادر أبنية المصنع مكحلاً عينيه بمنظر الفتيات . وكان يتسلق سطح الأسطبل ليلقي نظرة على النهر خلال ساعة الغداء اذ تنطلق النسوة الى هناك

ليبتردن .

وقال الأب في ذات نفسه ، وهو مقطّب الوجه :

« إنه مجرّد عجل بليد . يجب أن أعهد الى سيرافيم في مراقبته ، والحيلولة بينه وبين الانزلاق . »

وكان يوم الثلاثاء يوماً هادئاً أشهب يبعث على التفكير . ففي الصباح الباكر هطل مطرٌ رقيق تهطالاً كسولاً شحيحــاً على الارض ، طول ساعة او نحوها . وحوالى الظهيرة بزغت الشمس ، وألقت نظرةً بَرِمةً على المصنع وعلى ملتقى النهرين ثم احتجبت من جديد وراء السحب دافنةً نفسها في زَغبها الرماديّ الناعم كما تدفن ناتاليا خديها الورديين في وسادتها الملساء ، اثناء الليل .

وقبيل شاي المساء سأل آرتامونوف ابنه ياكوف :

« اين أخوك ؟ »

— « لست أدري . كان يجلس ، منذ لحظة ، في ظل شجرة من الصنوبر ، عند أعلى التلة . »

— « اذهب وادعُهُ . لا ، لا تذهب . ولكن حدثني عن علاقات احدكما بالآخر . »

وبدا له ان ابنه الاصغر قد ابتسم ابتسامةً لا تكاد تُلْحَظ من قبل ان يجيب :

« انها حسنة . نحن لا نتخاصم او نتعارك . »

— « وهل هذا هو كل شيء ؟ أريد ان أعرف الحقيقة . »

وخفض ياكوف بصره وفكّر لحظة ، ثم قال :

« حين نصل الى الافكار ترانا لا نتفق كثيراً . »

— « اية أفكار ؟ »

— « حول كل شيء . »

— « حسناً ، وما هو الخلاف بينكما ؟ »

— « إنه يلزم الكتب دائماً ، أما انا فاستعمل عقلي بكل بساطة . ولا أتقبّل الا ما يقوله لي رأسي . »

وهنا قال الاب :

« فهمتُ »

اما كيف يحصل على تفاصيل اخرى فذلك ما كان يجهله .

والقى على كتفيه سترةً من القماش الخشن ، وامسك بعصا السير المتوّجة بمخلب طائرٍ فضيّ منشبٍ اظفاره في كُرَةٍ من اليشب * ، وكان الكمي قد اهداه إياها . حتى اذا جاز الباب الرئيسي ظلّل عينيه بيده وراح يمعن النظر نحو التلّ المجاور للنهر . هناك كان ايليا متمدداً ، في قميصٍ ابيض ، في ظل الشجرة .

— « والرمل رطبٌ اليوم . إنه قد يصاب بزكام . إنه شديد الاهمال . »

وفي غير ما إسراع ، تقدم الأب الى التلة وازناً في ذهنه ، بوضوح ، كل كلمة ينبغي أن يقولها لابنه . كان العشب الأشيب يتكسّر في صرير تحت قدميه ، وكان ايليا مستلقياً على وجهه يطالع في كتاب سميك قارعاً صفحاته بين الفينة والفينة بمؤخر القلم . حتى اذا سمع وقع الخطى على مقربة منه استدار ليرى من القادم . ولم يكد بصره يقع على أبيه حتى وضع القلم بين صفحات كتابه

---

* اليشب حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه .

وأطبقه في عنف . ثم إنه استوى جالساً ، مسنداً ظهره الى جذع الشجرة ، وتطلع بعينين وَدُوْدَيْن الى وجـــه أبيه . وجلس آرتامونوف الكبير ، وقد أتعبه الصعود وقصّر أنفاسه ، غير بعيد فوق جذرٍ متقوّس ، وأنشأ يفكّر :

« لن أبحث في أمر العمل اليوم . إن ثمة متسعـاً من الوقت لذلك . سوف اكتفي بمجرّد الثرثرة حول أشياء أخرى . »

ولكن ايليا قال في هدوء وهو يضمّ ركبتيه :

« وهكذا ترى ، يا أبتِ ، أنني قد عقدت العزم عـلى أن أقف نفسي للعلم . »

وكرّر الأب :

« تقف نفسك ، وكأنك تتحدث عن كهانة أو رهبنة ! »

كان مصمماً على أن يتكلم في رفق ولكن الكلمات خرجت من فمه في لهجة نكدةٍ تكاد تكون غضبى . وإذ تضـــايق من نفسه ، راح يغرز عصاه عميقاً في الرمل . ثم بدأ شيء غير ممكن إدراكه ألبتة ، وغير مرغوب فيـــه ألبتة . وأظلمت عينا ايليا الزرقاوان ، وتجهّم وجهه . وقال في إصرار ليس يليق بالابناء وهو يردّ شعره المتهدّلِ على جبينه :

« لن اكون رجل صناعة. فلست أجد هذا الرجل فيُبرْدَيّ . »

فاعترضهُ الأب ساخراً :

« هذا كلام تبخون . »

وتجاهل ابنه هذا الاعتراض ، ومضى شارحاً السبب الذي من اجله لم يكن راغباً في أن يكون صاحب صناعة ، او على العموم ،

ربأً لأيما عمل من الاعمال . وتحدّث في إسهاب طوال عشر دقائق . وفي خلال حديثه ذاك كان الأب يقع بين الفينة والفينة على شيء كان يبدو له صحيحاً ، شيء يتناغم تناغماً بهيجاً مع فكراته الغامضة التي تعوزها الصيغة . ومع ذلك فقد كان واضحاً عنده ، على الجملة ، أن حديث ابنه كان صبيانياً وغير معقول .

وقال وهو يغرز عصاه في الرمل غير بعيد من قدم ابنه :

« هذا غير صحيح . هذا هراء . يجب أن يكون ثمة أحدٌ في القمة . إن افراد الجند لا يقدرون على شيء اذا لم يكن على رأسهم ضابط يقودهم . من الذي يُقدم على العمل اذا لم يكن ثمة ربحٌ يغريه بالأقدام : ذلك ما يقوله كل إنسان : « لماذا أصرّ على أن أربح ؟ » ولكننا غُزِلنا جميعاً على ذلك المغزل . أنظر الى جميع الأمثال تجدها تقول : « سوف يغوص في القذاسة الى قدميه . لا لشيء إلا لأن روحه تحب الربح وتسعى اليه . » أو تقول : « حتى القديس يصلّي من اجل الربح . » أو تقول : « حتى الآلة تحبّ أن تزَيَّت ، على الرغم من أنه لا روح لها . »

كان بالغَ الهدوء . واذ كان يستحضر في ذهنه الأمثال المناسبة فقد راح يضمّخ حديثه في كثيرٍ من السخاء بحكمتها ذات الرائحة الشهية . كان جميلاً أن يتكلم بمثل هذه الطمأنينة والطلاقة غير متردّد ولا متلعثم . وكان واثقاً من أن الحديث سوف ينتهي الى غاية صالحة . واستمع الابن الى كلام أبيه من غير أن ينبس بكلمة ناخلاً الرمل بين أصابعه ، من يد الى يد ، محرّراً إبر الصنوبر المحمرّة المختلطة به ، نافخاً على راحة يده بعدُ نفخةً تحمل تلك

الأمر الى قريب أو بعيد . ولكنه ما لبث أن أعلن فجأةً ، في مثل طمأنينة أبيه وطلاقته :

« كل هذا لا يعني شيئاً بالنسبة إليّ . نحن لا نستطيع أن نخضع أنفسنا لمثل هذه النواميس بعد اليوم . »

ونهض آرتامونوف الكبير معتمداً على عصاه . ولم يتقدّم ابنه الى مساعدته على النهوض .

ـ « هكذا . واذن فما يقوله لك أبوك ليس حقيقة ؟ »

ـ « هناك حقيقة أخرى . . »

ـ « هذا كذبٌ . ليس ثمة غير تلك الحقيقة . . »

وهزّ الأب عصاه في اتجاه المصنع وقال :

« أنظر . هذه هي الحقيقة ! لقد استهلّها جدّك ، وافرغت حياتي كلها فيها . وها قد جاء دورك الآن . إنها بسيطةٌ بهذا المقدار . وماذا تتوقع غير ذلك ؟ لقد اشتغلنا . فلماذا تريد أنت أن تلعب ؟ أنك تريد ان تعيش كالقديسين على عاتق اناس آخرين ، إيه ؟ فكرة لا بأس بها ! التاريخ ! إنسَ كل شيء عن التاريخ . إنه ليس فتاة جميلة . انت لا تستطيع ان تتزوّجه . ماذا تريد ان تفعل بتاريخك اللعين هذا ؟ وايّ فائدة ترجى منه ؟ إنه لن يدع لك رغيفاً تأكله . »

وإذ شعر بيوتر آرتامونوف ان لهجته غدت خشنةً جداً فقد حاول ان يصطنع لهجةً اكثر طراوة :

« ادري . انت تريد ان تعيش في موسكو ـ إن ثمة لهواً اكثر . أليس كذلك ايضاً . . »



وتناول ايليا كتابه ، ونفخ الرمل عن غلافه وقال :

« إئذن لي في ان ادرس . »

فصاح الأب غارزاً عصاه بعيداً في الرمل :

« لا ! لا تسألني ذلك بعد اليوم . »

ثم إن إيليا نهض ايضاً ، وراح يحدّق من فوق كتفي والده، الى الفضاء ، بعينين فقدتا فجأة كل لون . ثم قال في هدوء :

« حسناً ، إذ ن ، يتعيّن عليّ ان امضي في سبيلي من غير إذ ن . »

— « إذا كنتَ تجرؤ !.. »

فقال ايليا وهو يهزّ رأسه :

« لا احد يستطيع أن يحرم شخصاً الحقّ في ان يعيش وفقَ ما يراه مناسباً . »

« شخص ؟ أنت ابني ، ولست شخصاً ما . أنت — شخص؟ كل خرقة على جسمك هي ملكي أنا . »

لقد انفجرت هذه الكلمات على نحوٍ غير إراديّ . كان ينبغي أن لا تُقال البتة . ومضى الأب في كلامه مصطنعاً لهجة اكثر اعتدالاً ، هازّاً رأسه هزةَ تأنيب :

« أهكذا تجزيني على عنايتي ؟ آه ، أيها المجنون الصغير . »

وشاع الدم في وجنتي ايليا ، وارتجفت يداه . وحاول أن يخفيهما في جيوبه ، ولكنهما أبتا أن تَدخُلا . وإذ خشي آرتامونوف أن يذهب ابنه الى بعيد ، أن يندّ منه شيء لا سبيل الى إصلاحه ، فقد سارع الى القول :

« لقد انتزعتُ حياة بشرية من أجلك أنتَ .. ربما . »

وإنما أضيفت كلمة « ربما » هذه لأن آرتامونوف ادركَ ، فيما كانت الكلمات تخرج من فيه ، ، أنه ما كان ينبغي لها أن تُقال، في مثل هذا الظرف ، لهذا الفتى الذي اتّضح انه لم تكن به رغبةٌ في أن يفهم شيئاً .

وقال آرتامونوف في ذات نفسه :

« الآن سوف يسأل حياةَ من انتزعت ؟ »

وأوسعَ الخطى هابطاً في سرعة ، جانبَ الكثيب .

ولكن ابنه ناداه ، وكانت كلماته تُصمّ الآذان :

« انها ليست حياة واحدة فحسب . أنظر — ها هي ذي المقبرة ملأى بضحايا المصنع . »

وتمهّل آرتامونوف والقى نظرة الى الوراء . كان ايليا واقفاً ممدودَ اليد مشيراً بكتابه الى الصلبان القائمة تحت السماء الكئيبة المعتمة . وصرّ الرمل تحت قدمي آرتامونوف . وتذكر الكلام العدواني الذي سمعه لبضع دقائق مضت ، عن المصنعَ والمقبرة . والى ذلك فقد كان شديد التوق الى ان يغطّي زلة لسانه ، ان يمحوها من ذاكرة ابنه . وهكذا عاود ارتقاء الكثيب ، في خفة وتجهّم ، هازاً بعصاه ابتغاء إيقاع الخوف في نفس ابنه وصاح:

« ماذا قلت ، ايها الكلب ؟ »

وانطلق ايليا ، كالسهم ، ليحتمي بالشجرة .

« قف ! أمجنونٌ انت ؟ »

وضرب الاب جـــذع الشجرة بعصاه ، ذات اليمين وذات

الشمال . وانكسرت العصا ، فرشق قدمي ابنه بالبقية المكسورة، فانغرزت مرتجفـــةً في الرمل ، ورأسها الاخضر مصوّب نحوه على شكل منحرف ، وقال آرتامونوف في عبوس :

« سوف احملك على ان تنظف المراحيض ! »

وولى مسرعاً ، مترنحاً ، متزلجاً على التل او يكاد . كان عقله يلف ويدور متعثراً بين كلمات غير متنـــاسقة تعبّر عن الحزن والغضب ، مثل مكوكٍ في سَدى نولٍ مشتبكٍ معقّد .

– «سوف أنبذه . ان الحاجة سوف تعيده اليّ . وعندئذ يأتي دور تنظيف المراحيض . لن يكون عنـــدي لغوٌ او هراء ! »

كذلك انطلقت هذه الفكرات ، متقطعة غير مترابطة ، وكأنها ضربات السياط ، من نسيج العنكبوت المتراقص . وكانت ثمة ،في الوقت نفسه ، فكرات اخرى تلمّح تلميحاً ضبابياً الى انـــه لم يُحْسِن التأتـّي للمشكلة ، وانه قد ذهب الى بعيد جداً ، وأنه قد عظّم الاساءة الموجهة اليه باكثر مما يجب .

حتى اذا انتهى الى ضفـة نهر « اوكا » القى بجسده المكدود على الربوة الرملية ومسح العرق من على وجهـــه . والتفتت عيناه صوبَ النهر . كانت جماعة صغيرة من سمك الشبـّوط تومض في فجوةٍ ضحلة، ثاقبة الماء وكأنها إبرٌ رشيقة من الفولاذ . وبرزت سمكة من ذلك الضرب المعروف بـ « البريم » بزعانفها المنتشرة في ابهة وتيهٍ . وسبحت مطوفةً لحظة من زمان ، ثم انقلبت على جانبها ، مستغرقةً النظر الى السحب الكئيبة ، بعين واحدة حمراء، وأرسلت سيلا من الفقاقيع ، كأنه دخانٌ ابيض في الماء .

وهز آرتامونوف اصبعاً مهـــددة في وجه البريم ، وقال في صوت عالٍ :

« سوف اعلمك كيف تعيش ! »

وفي الحال القى نظرة على كتفه ، فقد بـــدت الكلمات التي نطق بها مغلوطة . وكان جَـرْي النهر الهادىء المطمئن قد أخذ يغسل غضبه ، وحملت السكينة الرمادية الدافئة الى ذهنه خواطر مُثـْقَـلةً بدَهش خدِر . وكان أدعى تلك الخواطر الى الذهول السرعة البالغة التي زُحزحَ فيها ابنه الذي احبّ ، والذي كان طوال عشرين عاماً هدف افكاره الملهوفة غير المهادنة ، عن مكانته في قلبه ، مخلفاً وراءه الماً مريراً . واقتناع آرتامونوف الراسخ بأنه كان طوال هذه السنوات العشرين يفكر يومياً ومن غير ما كللٍ في ابنه ليس غير ، وانه لم يعش الا في الآمال التي عقدها عليه ، في الحب الذي أكنّه له ، في توقّع الاشياء الخارقة عندما يبلغ مبلغ الرجال .

— « مثل عود الثقاب — اومض ثم انطفأ ! ولكن لماذا ؟ »

وشاع في السماء الرمادية توهجٌ باهت . وظهرت في جانب منها رقعة اشد بريقاً ، كأنها بقعة زيت لامعة على ثوبٍ عتيق بال . ثم بزغت قشرة قمرٍ هزيلة . وغدا الهواء رطباً بارداً ، وارتفع فوق النهر ضبابٌ خفيفٌ .

وحين آبَ آرتامونوف الى بيته وجد امرأته في مباذلها وقد رفعت قدمها اليسرى الى ركبتها اليمنى المدورة وانصرفت الى قص اظافرها في جهد عبوس . حتى اذا وقع بصرهـــا على

زوجها سألته :

« الى اين ارسلتَ ايليا ؟ »

فأجابها بيوتر وشرع يخلع ثيابه :

« الى الشيطان ! »

وتنهّدت ناتاليا وقالت :

« أنت دائماً غاضب ثائر . »

ولم يجبها زوجها بشيء . كان يتنفس في تضايق ، محدثاً اكبر قدر مستطاع من الضجة قبيل إيوائه الى الفراش . وفي تلك اللحظة بدأ المطر يقرع زجاج النوافذ قرعاً موصولاً ، وانتشرت في الحديقة خشخشة رطبة .

وقالت الأم :

« لقد غدا ايليا متكبراً متشامخاً الى حدٍّ مخيف ، وكل ذلك بسببٍ من التحاقه بالمدارس . »

— « لقد ألقته الأيام بين يدَيْ أمٍّ مجنونة . »

وشخرت الأم . ثم إنها رسمت على نفسها اشارة الصليب وصعدت الى فراشها . وفيما هو يخلع ثيابه ، ما يزال ، شرع يهاجمها في متعة وحشية :

« لأيّ شيء تصلحين ؟ للاشيء . إن اولادك لا يحترمونك . ما الذي تعلّموه منكِ منذ أن وَلَدْتِهم ؟ كل ما تعرفين صنعه هو أن تأكلي وتنامي . اجل ، وأن تدهني وجهك . »

وغمغمت زوجته غمغمةً كادت تضيع في وسادتها :

« من الذي أرسلهم الى المدرسة ؟ لقد قلتُ لك .. »

ـ « أسكتي ! »

وسكت هو أيضاً ، وأنشأ يصيخ الى إيقاع المطر المتعاظم غير المنقطع على اوراق شجرة الكرز التي كان نيكيتا قد غرسها .

ـ « لقد اختار الأحدب لنفسه حصةً سهلة . لا أولاد ولا عمل . ولكنْ نَحْل . اما أنا فلن أعنى حتى بالنحل . واذا ما أراد أحدٌ عسلاً ففي استطاعته أن يذهب ويجنيه بنفسه . »

واستدارت ناتاليا على ظهرها في حذرٍ شديد وكأنها كانت مستلقيةً على جليد ، ووضعت خداً دافئاً على كتف زوجها .

ـ « هل تخاصمتَ مع ايليا ؟ »

وإذ استحيى ان يصف لها المشادة التي وقعت بينه وبين ابنه فوق الكثيب تمتم :

« إن المرء لا يتخاصم مع الأولاد . إنه ينتهرهم . »

ـ « لقد ولى الى المدينة . »

ـ « لا بدّ ان يعود . إن الخبز لا ينمو على الاشجار . سوف يذوق طعم الحياة من غير مالٍ ، ومن ثم يرجع إلى هنا ، فلا تخافي . نامي ، ودعيني وحدي . »

وبعد لحظة قال :

« لن يذهب يا كوف الى المدرسة منذ اليوم . »

وبعد لحظة ثانية قال :

« بعد غد ، سأذهب الى السوق السنوية . هل تسمعين ؟ »

ـ « نعم . »

واستبدّ الدهش بآرتامونوف وقال :

« لماذا ؟ ما معنى ذلك ؟ »

وأغمض عينيه . ومع ذلك فقد ظل يرى أمامه الوجه الصبياني ، والجبين الشامخ ، والعينين المتألقتين اللتين نفذتا اليه نفاذاً ليس في طاقته احتماله .

« لقد أذلّ أباه ، وكأنه يفصل أجيراً من عمله . وكأنه ينتهر شحاذاً . تباً له من وغدٍ سفيه ! »

ولم يستطع ان يذلّل السرعةَ الغريبة التي تمّت فيها القطيعة . لقد كانت توحي بأن ايليا وطّن النفس ، منذ عهد بعيد ، على الانفصال . ولكن ما الذي أغراه بأن يخطو مثل هذه الخطوة ؟ وحين ذكر آرتامونوف كلمات ابنه العنيفة المتّهِمة ، قال مخاطباً نفسه :

« لقد حرّضه ميرون ، ذلك الكلب القذر ، على ذلك . وكلّ تلك الأحاديث التي كان تيخون ينفثها حول إساءة الصناعة للأنسانية . مجنون ، مجنون ! أين وضع إيمانه؟ وقد ذهب الى المدرسة ، أيضاً ! ما الذي تعلّمه هناك ؟ إنه يعطف على العمال ، ولكنه لا يعطف على أبيه هو . ثم انه يفرّ ليحتضن استقامته وحبه للعدل في زاويةٍ ما بعيداً عن الناس . »

وهنا تعاظم شعوره بالأذى اكثر من ذي قبل :

– « لا ، لن تخرج منه ! »

وذكر نيكيتا ، الذي فرّ بنفسه الى ملجأ آمن :

– « انهم جميعاً يلقون العبء على عاتقي ويولّون الأدبار . »

ولكنّ آرتامونوف كبح جماح نقمته في الحال . كان هـــذا

الحكم غير صحيح . فألكسي لم يولِّ الأدبار . كان يحب العمل كما قد أحبّه أبوه . وكان جشعاً ، جشعاً لا يعرف الشبع ، وكان كل شيء يأتيه سهلاً هيّناً . وهنا ذكر بيوتر أنه قال لألكسي ذات يوم ، وقد نشب في المصنع شجارٌ سبّبته الخمر :

« إن أخلاق الناس آخذة في التفسّخ . »

فأقرّهُ الكسي على ذلك وقال :

« هذا أمرٌ ملحوظ . »

— « انهم يبدون جميعاً حانقين على شيء من الأشياء . وانك لتجد النظرة نفسها في عيونهم كلّهم . »

وأقرّه الكسي على هذا أيضاً . وتضاحك قائلاً :

« هذا صحيح أيضاً . واني لأذكر في بعض الأحيان أن عيني تيخون كانتا تتأججان بالنظرة نفسها يوم زفافك ، حين رأى الى ابيك يصارع الجند . وما هي الا لحظة حتى اندفع تيخون الى الساحة ، ايضاً . اتذكر ؟ »

— « لماذا تُقحم تيخون في هذه المسألة ؟ انه لا يعدو ان يكون أبله ضعيف العقل . »

ثم ان الكسي أخذ يتكلم في جدّ :

« لقد لاحظت انك تكثر من الكلام حول هذا الموضوع — لقد ساءت أخلاق الناس ؛ لقد فسد الناس . ولكنْ على أية حال ليس هذا من شأننا . انه من اختصاص الكهان ، والمدرسين ، و ... حسناً — من ايضاً ؟ جميع أصناف الأطباء ، والموظفين . ان من مهمتهم أن يحولوا بين الناس وبين الفساد . تلك هي البضاعة

التي يملكون أن يبيعوها ، وما انت وانا الا مستهلكان . كل شيء في الدنيا يفسد ، على مرّ الزمن . انتَ في طريقك الى الشيخوخة ، مثلًا ، وكذلك أنا . ولكنك لا تطلب من فتاة ان تُقلع عن العيش لمجرّد أنها سوف تصبح ، في يوم من الأيام ، عجوزاً قبيحة . »

وقال آرتامونوف الكبير في ذات نفسه :

« انه ذكيّ . ذكيّ على نحوٍ شيطانيّ . »

وفكّر ، في حسد ، بحيوية أخيه ، بثرثرته الطروب ، الموشّحة بدعاباتٍ واقوالٍ مأثورة ، على نسقٍ جديد غير مألوف . ثم ان ذهنه انقلب الى نيكيتا . كان والدهم قد أوصى بأن يكون الأحدب عَزاءهما وتسليتهما . ولكنه بدلاً من ذلك وقع في ورطة سخيفة ، وكل ذلك من اجل وجه امرأة ، ومضى لسبيله .

وادار آرتامونوف الكبير اشياء كثيرة في ذهنه ، تلك الليلة الماطرة ، وتخلّلت تأملاته المريرة هذه ، وكأنها الدخان ، افكارٌ من نوع آخر راحت تتجمّع وتحتشد — افكارٌ غريبة ، كأنما كان المطر المتمتم في الخفاء يهمس بها — افكارٌ كانت تحول دون تبرير النفس .

وسأل هذه الافكار الغريبة :

« ولكن ايّ خطأ ارتكبتُ ؟ »

وعلى الرغم من انه لم يتلق جواباً ما ، فقد بدأ يشعر بان من الجائز ان يكون ثمة جواب . وفيما كان الضحى يرتفع ، عقد آرتامونوف النية على ان يزور اخاه ، في الدير . هناك قد يستطيع ، بروح بعيدة عن ضروب الاغراء والهمّ ، ان يقع على العزاء ،

بل وعلى قرار حاسم ايضاً .

ولكن ما كادت خيول عربة البريد تقترب من الدير ، بعد طول خضٍ واهتزاز فوق الطرق الريفية ، حتى خاطب آرتامونوف نفسه في اعياء :

« أنه لجميل وسهل ان يحجز المرء نفسه في زاوية . وليس عليك الا ان تجرب وتنطلق في الارض الفضاء ! ان الخُضَر المخللة لا تفسد في بيت المؤن ، ولكن الفساد يتطرق اليها عاجلا اذا ما وُضعت تحت وجه الشمس . »

لقد انقضت اربع سنوات لم يرَ فيها اخاه ، وكان اجتماعهما الاخير بارداً مملاً . لقد بدا لبيوتر آنذاك ان الاحدب قد اخذه الاضطراب لوصوله . لقد اجفل وتقلّص ، منكمشاً على نفسه انكماش البزاقة في صدفتها . وفي لهجة نكدةٍ متذمرة راح يتحدث ، لا عن الله ولا عن نفسه او عن الاسرة ، ولكن عن حاجات الدير ، عن الحجاج ، وعن فقر الشعب . كانت كلماته تصدر في عُسْر ، وبجهد ملحوظ . وحين عرض بيوتر عليه بعض المال اجاب في لامبالاة هادئة :

« اعطِه لرئيس الدير . انا في غير حاجة الى المال . »

كان واضحاً ان جميع الرهبان يحترمون « الاب نيقوديم » ويبجلونه . وكان رئيس الدير ، وهو رجل طويل هزيل الجسم كثير الشعر أصم احدى الاذنين — لقد بدا اشبه ما يكون بمارد غابةٍ يلبس ثوب الكاهن الضيق الطويل — قد ادار ضوء عينيه الفاحمتين الصارم الى وجه بيوتر وقال في صوت بالغ الارتفاع

لغير ما ضرورة :

« ان الاب نيقوديم هو زينة ديرنا الفقير . »

كان الدير قائماً في رأس تلة منخفضة ، تحيط به اشجار الصنوبر وتحجبه بذرواتها الحافلة عن اعين الناظرين . وقد استُقبل آرتامونوف بنغم مستوحش كئيب صادرٍ من اجراس نحيلة الصوت تدعو الى صلاة المساء . ولم يكد البواب الخشن الفارع الطول — الذي بدا اشبه ما يكون بسارية زورقٍ تُوج لغير ما حاجة برأس صبياني صغير تعلوه قبعة صغيرة متغضّنة ناصلة اللون — يرى الى آرتامونوف حتى فتح له الباب وهو يتأتيء :

« ز ز ز ز . . . »

ليتمّ كلمة الترحيب بعدَ تنهّدة :

« ف . . . ضّ . . . ل . »

وخيمت فوق الدير سحابة رمادية ضاربة الى الزرقة وجمدت في مكانها لا تريم، طامسة نصف السماء. لقد عجز صَخَبُ النواقيس النحاسيّ عن تبديد جوها الثقيل — الرطب، الفاسد ، اللازج .

— « انه اثقل من ان اقدر على حمله ، كذلك قال الراهب المكلف بالاعمال اليدوية ، في بيت الضيوف ، بلهجة اعتذارية ، بعد محاولة مخفقة لاخراج صندوق الهدايا التي حملها بيوتر الى اخيه ، من مكانه في العربة ، وضربَ غطاء الصندوق بقبضته الصغيرة السمراء .

وتقدم بيوتر ، أغبرَ متعباً ، نحو الحديقة حيث كانت حجيرة أخيه البيضاء تستقرّ مطمئنّةً وسط اشجار التفاح والكرز . كان

يقول في ذات نفسه ان قدومه الى هنـــا كان عملًا اخرق ، وانه كان من الخير له ان يقصد الى السوق السنوية. لقد زعزعت طريق الغابة الوعرة المعلمة بجذور ذات عُقَـــد ، جميع افكاره الكئيبة وشوّشتها ، مغادرة مكانها ألماً مريراً ، وتوقاً الى الراحـــة والنسيان .

— « انما انا في حاجة الى سكرةٍ صالحة . »

والفى أخاه جالساً على مقعد خشبي تحيط بـه نصف دائرةٍ من اشجار الزيزفون الغضّة ، وحوله عشرة من الحجاج ، في ما يبدو . كان أشبه بمشهدٍ من أحد الكتب غير الغريبة على بيوتر . ورأى بين هؤلاء تاجراً أسود اللحية يلبس سترةً من قماش خشنٍ ، وقد لفّ احدى قدميه ببعض الخرق وانتعل حذاءً فوقياً (كالوش) من مطّاط . وعجوزاً بديناً كأنه صرّافٌ من الخصيان ، وشاباً طويل الشعر ، مرتفع عظم الوجنتين ، سَمَكيّ العينين ، يلبس معطفاً من معاطف الجنـــد . كذلك رأى مورزين — الخبّاز الدريبوموفيّ ، وهو سكّير كثير الصّخب . وسمع هذا الأخيرَ يقول في صوت اجشّ ، وهو واقف كالعمود ، وكأنه لصٌّ ماثلٌ أمام قاضيه :

« هذا صحيح . ان الطريق الى الله لطويلة . »

ولم يكن نيكيتا يتطلّع الى الحجاج . وفيما هو يرسم بعض التصاوير بعقب عصاه البيضاء على الأرض المرصوصة ، راح ينصحهم :

« وكلما أمعن الأنسان في الانحطاط ، كان الاله اكثر ارتفاعاً فوقهُ ، وقد أثارته الرائحة النتنة الناشئة عن انغماسنا في الخطيئة »

وقال آرتامونوف الكبير كمن يخاطب ذاته :

« شيءٌ يدخل العزاء الى القلب . »

وضحكَ بينه وبين نفسه .

ـ « ان الله يرى أنَ ايماننا كسول . وأيّ خيرٍ يجد في مجرد الأيمان ، من غير افعال ؟ هل نساعد إخواننا ؟ هل يحب بعضنا بعضاً ؟ وما الذي نطلب في صلواتنا ؟ أشياء تافهة ، حقيرة . يجب أن نصليّ ، ولكن يجب مع ذلك . . »

ورفع الأحدب عينيه . وانقضت لحظةٌ لم يقل فيها شيئاً ، مكتفياً بالتطلّع الى أخيه بنظرات فاحصة . وفي بطء ، رفع عصاه ، وكأنها ثقلٌ ثقيل ، كما لو كان يريد أن يضرب بها . ثم نهض ، ورأسه متدلٍّ في ضعف على صدره ، ورسم اشارةالصليب فوق المستمعين اليه . وبدلاً من أن يتلو احدى الصلوات اجتزأ بالقول :

« والآن ـ ها قد جاء أخي ليراني . »

والتفت العجوز ، البدين ، الأصلع ، ليرى الى بيوتر ، وقد استدارت عيناه النحاسيتان على نحوٍ مخيف . ورسم على نفسه اشارة الصليب بصورة شاملة ، وفي توكيد مُرَوَّىً فيه .

واضاف نيكيتا :

« اذهبوا بسلام . »

وانطلقوا ، وقد انفرط عقدهم كقطيع طُرِد من المرعى . وأخذ العجوزُ بيد التاجر ذي الرِجل المعتلة ، في حين أمسك مورزينُ بيده الأخرى .

- « حسناً . أيها الاخ امنحني بركتك . »

وبذراع طويلة أشبه ما تكون بالجناح في رُدْن ذلك الثوب الكهنوتي الأسود ، لامسَ الأب نيقوديم يَدَيْ أخيه المطويّتين وقال في هدوء ، ومن غير ما أمارة من أمارات البهجة :

« لم اكن أتوقع مجيئك . »

وأشار بعصاه في اتجاه حجيرته ، ثم قاد أخاه اليها . كان يمشي مشيةً مرتجّةً ملتوية . وكانت احدى يديه تضغط على قلبه .

وقال بيوتر على استحياء :

« لقد غدوتَ شيخاً كبيراً . »

- « هذا نصيبنا . انّ رجليّ تؤلمانني . الأرض هنا رطبة . »

وبدا نيكيتا اشد احديداباً من أيما وقت مضى . لقداندفعت كتفه اليمنى وزاوية سنامه الى الأمام ، مما زاد في انحناء جسمه نحو الأرض ، وجعلَهُ أقصر وأعرض لقد بدا اشبه ما يكون برتيلاء هُشّم رأسها ، فهو يَدب دبيباً اعمى ملتوياً عبرَ المجاز ، فوق الحصى الصارّ تحت قدميه . وفي المدى الضيّق المتشنّج الذي تحتله غرفته الصغيرة النظيفة ، بدا الأب نيقوديم اكبر بعض الشيء ولكنْ ادعى الى ايقاع الرعب في الفؤاد. حتى اذا خلع قَلَنْسُوَتَه لمعت صلعته العاجية لمعاناً خامداً ، كجمجمة مصقولة . وكان الشعر الأشيب يتدلى في خُصَلٍ بالية عند صدغَيْه ، وخلف اذنيه ، وحول مؤخر رأسه . وكان وجهه كذلك عاجيّاً ملوّناً بلون الشمع ، مجرّدةً عظامه من اللحم . اما عيناه الباهتتان فلم يكن ينبعث منهما ضوءٌ ما ، وبَدَت نظراتهما وكأنها مركّزة

على ارنبة انفه الكبير المترهّل . وفي ما دون ذلـــك ، كانت عصابتا ن داكنتان — هما شفتاه المتجعّدتان — تتحركان في غـير ما صوت . وكان فمه اكبر منه في ما مضى — حفرة عميقـة تقسم وجهه الى قسمين . بيد ان نموّ الشعر الأشيب نموّ العفن على شفته العليا كان ادعى ما فيه الى الكآبة والرثاء .

وفي جَرْسٍ منخفض جداً ، وكأنما يأبى ان يقاطـع صوتاً كان يصيخ اليه ، وفي بطء ، وكأنما كان يتذكّر كل كلمـة في صعوبة ، قال الراهب للأخ القائم على خدمته ، وهو شابّ سمـين الوجه ، اشبه ما يكون بخدم الحمّامات البخارية :

« السماور . خبز . عسل . »

— « ما اشدّ انخفاض صوتك ! »

— « لقد ذهبت اسناني كلها . »

وجلس الراهب الى الطاولة ، في كرسيّ خشبي ذي ذراعـين مدهون بلون ابيض .

— « كلهم في حالٍ حسنة ؟ »

— « اجل ، انهم لكذلك . »

— « وتيخون ، الا يزال حياً ؟ »

— « انه في حالٍ جيّدة . ايّ اذى يمكن ان يصيبه ؟ »

— « لقد انقضت فترة طويلة على زيارته لي آخر مرة . »

ورانَ الصمت عليهما . حتى اذا تحرّك نيكيتا احدث ثوبـه الطويل الضيق حفيفاً يرافقه صوتٌ ثاقب كصوت الصرصور زاد بيوتر ضيقاً على ضيق .

— « لقد جئتك ببعض الأشياء . سَلْهم ان يجلبوا الصندوق . ان فيه شيئاً من الخمر ايضاً . هل يُسمح بشرب الخمر هنا ؟ »

وتنهّد اخوه واجاب :

« ليس النظام صارماً هنا . ذلك امرٌ عسير . بل إن عندنا سكّيرين الآن ، بعد ان اخذ كثيرٌ من الناس يأتون . انهم يشربون . ماذا نستطيع ان نصنع ؟ ان العالم يتنفّس ، وان نَفَسه سُمّ . حتى الرهبان هم بشر . »

— « سمعت ان كثيراً من الناس يلتمسون الاجتماع بك . »

فقال الراهب :

« ذلك لأنهم لا يفهمون . اجل ، انهم يأتون . انهم يضيعون وقتهم سدى . الفضيلة ، ذلك ما يسعون اليه — يريدون روحاً فاضلة تعلّمهم كيف يعيشون . لقد عاشوا ، بطريقة ما ، اما الآن فأنهم لا يستطيعون . ان ذلك وراء احتمالهم . »

واستشعر آرتامونوف الكبير بتضايق متعاظم لدن سماعه كلمات الراهب هذه ، وتمتم :

« شيء مضحك . لقد تحمّلوا العبودية ، ومع ذلك فهم لا يستطيعون ان يتحملوا الحرية ! انهم في حاجة الى اعنّةٍ اشدّ إحكاماً . »

ولم يجب نيكيتا بشيء .

— « في ظلّ حكم النبلاء ، لم يكن الناس يضيعون اوقاتهم سدى في التجوّل والتطواف . »

وتطلع الاحدب اليه ، ثم خفض عينيه .

وهكذا تحدثنا ، باحثين عن الكلمات في جهد ، مُطيلين التمهل في ما بين الملاحظات غير المتناسقة، حتى اقبل الاخ الاشيب المنفوش الشعر حاملاً السماور وعسلاً ذا ارج ، وخبزاً طازجاً ينبعث البخار منه، ثم راحا يراقبانه في اهتمام بالغ فيما انحنى على الارض ، محدثاً ضجة لا ضرورة لها، وانشأ يعالج غطاء الصندوق ليفتحه عنوة . ووضع بيوتر على المائدة صفيحة من الكافيار الطازج وزجاجتين .

ونظر نيكيتا الى الرقعة الملصقة على كل من الزجاجتين وقال:

« بورت* . ان رئيس الدير يحب هذا النوع من الخمر . رجل بارع . انه يفهم اشياء كثيرة . . »

وهنا اقرّ بيوتر في جرأةٍ :

« حسناً . اما انا فلست افهم الا قليلاً »

« انت تفهم ايضاً ، على مقدار حاجتك . واي فائدة من الزيادة ، انه ليس من الخير المرء ان يفهم اكثر مما ينبغي له . »

وتنهد الراهب تنهداً خافتاً . وأحس بيوتر بالمرارة تغلّف كلماته . ولمع ثوبه الضيق الطويل ، لمعانَ بُقع الزيت في الظلال المحتشدة ؛ ذلك ان الحجيرة كانت مضاءة اضاءة باهتةً من طريق الشعلة الصغيرة القائمة تحت الايقونات ، في الزاوية ، والمصباح الرخيص ، المصنوع من الزجاج الأصفر ، القائم على الطاولة . واذ لاحظ بيوتر الشراهة المحترِسة التي رشف بها اخوه خمرته قال في ذات نفسه ، ساخراً :

---

* ضرب من الخمر .

« انه يعرف خموره . »

وبعد كل كأس ، كان نيكيتا يتخيّر قطعة من الخبز الناعم برؤوس اصابعه المعروقة ، البيضاء على نحوٍ غريب ، ويغمسها في العسل ، ثم يمضغها في تمهّل ، محرّكاً لحيته الخفيفة الشائبة التي تبدو وكأنها قد نُتِفَتْ نتفاً . ان ايـاً من امارات السُكْر لم تظهر عليه ، ولكن عينيه العكرتين ازدادتا خفةً ورشاقةً ، برغم انهما ظلتا مركزتين على ارنبة انفه . وشرب بيوتر في اقتصاد ، خشية ان يظهر امام اخيه بمظهر المسرف في الشراب . وفيما كان يشرب قال مخاطباً نفسه :

« انه لم يسأل عن ناتاليا . كذلك لم يسألني عنهـا في المرة الماضية ، ايضاً . إنه خجِلٌ . ثم انه لم يسألني عن احد ممن يعرف . نحن من ابناء هذا العالم ، اما هو فقديس . ان الناس يسعون اليه يلتمسون البركة . »

وهزّ رأسه في غضب ، فلامست لحيته ثوبه محدثةً صوتاً ما . وشدّ شحمة اذنه وقال :

« لقد خبأت نفسك هنا تخبئةً موفقة . انها مهمة حسنة . »

— « كانت حسنة في ما مضى . اما اليوم فقد تطرّق اليهـا الفساد . حجاجٌ كثيرون . كل هذه الاستقبالات .. »

وضحك بيوتر قائلاً :

« استقبالات ؟ يبدو لي انها اشبه ما تكون بعيادة طبيب اسنان . »

وقال الراهب وهو يصبّ الخمر في عناية :

« اريد ان انتقل الى موطن ابعد ، في مكان ما . »

ـ « حيث تستطيع ان تنعم بقدر اعظم من السـلام . »

كذلك اضاف بيوتر ،وضحك من جديد .

واحتسى الراهب خمرتـه ، وامرّ لسانـه الداكن الهشّ على شفتيه ، وقال هازّاً صلعته العاجية :

« ان الناس ليفقدون أمنهم العقلي اكثر فأكثر . في استطاعتك ان ترى العدد ينمو ويتعاظم . انهم يحاولون الاحتجاب ، فراراً بانفسهم من الهموم . »

فأجاب بيوتر ، وهو عالم علمَ اليقين أنه كان يكذب :

« لستُ أرى ذلك . »

وانما كان يريد ان يقول :

« انك أنت الذي يفرّ بنفسه محتجباً عن الناس . »

واضاف الراهب :

« ولكن الهموم تلحق بهم وكأنها ظل لهم . »

كانت كلمات التأنيب تحتشد عند شفتي بيوتر . كان يريد ان يناقش كلمات اخيه ، ان يصرخ في وجهه مُغْضَباً .وفي صوت نغّصه التفكير في ابنه ، قال :

« انهم يبحثون عن الهموم بانفسهم . ان اختيـارهم الشخصي هو الذي يجلب عليهم المتاعب . قم بواجبك ، ولا تحـاول ان تكون لبيباً حادّ الذكاء تعش في أمن وسلام ! »

ولكن اخاه ، المستغرق في افكاره الخاصة ، لم يسمع كلامه في ما يبدو . لقد هزّ هيكلَهُ ذا الزوايا هزة مفاجئة وكأنمـا

يستيقظ من الرقـــاد . وسالَ ثوبُهُ الضيّق الطويل على ارض الغرفة شلالاتٍ مظلمةً قاتمة . وانشأ يتكلم، في كثير من الوضوح، وقد التَوَتْ شفتاه في ما بدا مرارةً لا تقل عن مرارة بيوتر :

« انهم يَفِدون اليّ ضاجين طالبين الاصلاح . ومـــا الذي اعرفه انا ؟ اي شيء أستطيع ان اعلّمهم ؟ ليس عندي من الحكمة شيء . لقد امتلكها رئيس الدير جملةً واحـدة . اما انا ، فلست اعرف شيئاً . مثل رجلٍ أُدين ظلماً وحُكم عليه بان يعظ ويصلح . وعلى اية جريمة ؟ »

وقال آرتامونوف الكبير في ذات نفسه :

« انه يلمّح . انه يريد ان يشكو . »

وادرك أن نيكيتا محقٌ في ان يتشكّى المصير الذي قُدر له . لقد توقّع مثل هذه الشكاوى، حتى في زيارات سابقة . وشدّ شحمة اذنه ، وحاول ان يقطع الطريق على اخيه بان اعلنَ في لهجة مثيرة :

« كثيرون من الناس يشكون القدر ولكنهم لا يجنون من ذلك فائدة ما . »

فقال الاحدب ، وعينــــاه متجهتان الى الزاوية حيث كان الضوء مشتعلاً تحت الايقونات :

« صحيح . القناعة نادرة . »

ـ « وانت ، لقد كانت وصية والدنا ـ أسبغ الله الأمن على روحه ان تكون موضع تعزيتنا وسلوانا . »

وامتدت شفتا نيكيتا في ابتسامة ساخرة . وجمع لحيتـــه

الشائبة في قبضة يده ، ومحا بها تلك الابتسامة . ومضى صوته ، يرشحُ كلماتٍ في الظلال، كلماتٍ خضّت بيوتر خضاً ، واثارت فضوله ، كما اثارت في الوقت نفسه توقعاً حذراً لخطر قريب .

— « انهم يبذلون جهدهم ههنا لأيهامي باني حكيم ، ولأيهام الناس بذلك . وانما يفعلون ذلك ابتغاء الكسب ، طبعاً ، واجتذاب الحجاج الى الدير . اما بالنسبة اليّ ، فالمهمة شاقة . انها وظيفةٌ استنطاقية ! كيف استطيع ان احمل الى قلوبهم العزاء ؟ إحتملوا ، هذا ما اقوله لهم . ولكني استطيع ان ارى انهم جميعاً مرضى من الاصطبار . عيشوا بالامل، اقول لهم. ولكن، الامل بماذا ؟ الله ؟ انهم لا يجدون في الله ايما عزاء . هناك خباز يأتي الى هنا .... »

وقاطعه آرتامونوف الكبير ، راغباً في تفادي شيء ليس يعرف ما هو ؟

« أنت تعني مورزين . انه من ابناء بلدتنا . سكير . »

— « لقد بلغ غايةً انتهى معها الى الاعتقاد بانه قادر على ان يتصدر لمحاكمة الله. ان الله لم يعد هو السيد، في نظره . انه جريء معجب بنفسه — وما اكثر هؤلاء في هذه الايام . وهناك رجل آخر ، من غير لحية . هل رأيته ؟ رجل ممتليء حقداً — عدوٌ للعالم كله . انهم يأتون ويوجهون اليّ ضروب الاسئلة ما الذي استطيع ان اقوله لهم ؟ كل ما يفدون من اجله هو القضاء على سلام عقلي وأمنه . »

كان الراهب يتحدث في نشاط متعاظم . وإذْ ذكر بيوتر

زياراته السابقة الى الدير ، لاحظ ان نيكيتا لم يكن يغمز بعينيه ، على نحوٍ اعتذاري ، شأنه من قبل . ففي خلال تلك الزيارات كان بيوتر يجد في حسّ الجريمة الواضح عند الأحدب ، ما يهدىء من روعه . ذلك بأن المجرم لا حقّ له في الشكوى . ومع ذلك فها هو اليوم يتشكّى ، معلناً أنه قد حُكم عليه ظلماً . ومن هنا كان آرتامونوف الكبير خائفاً أن يقول له أخوه :

« لقد كنتَ أنت الذي حكمتَ عليّ ! »

وعبس ، وأنشأ يعبث بسلسلة ساعته باحثاً عن كلماتٍ يُفرغ في قوالبها دفاعه عن نفسه .

وتابع الأحدب كلامه وكأنما يستمدّ متعةً خفيّة من تلك الاشياء نفسها التي يشكو منها :

« أجل . إن الناس أخذوا يفلتون من اليد ، أكثر فأكثر . إن أفكاراً مغرورة تراود أذهانهم . فمنذ فترة غير طويلة زار الدير عالمٌ فقضى فيه اسبوعين . كان فتىً في ميعه الشباب ، بيد أنه يهذي ، بطريقة ما . كان مروّعاً . وأكثر الرئيس من توصيتي قائلاً : « إمنحه القوةَ من طريق بساطتك . قل له كيت . قل له زيت . » ولكنّ لي ذاكرة لا تجيد حفظ أفكار الناس . فأضجرني ساعاتٍ بكاملها – أعني العالم لا الرئيس . لقد تكلّم وتكلّم ، ولكني لم أفهم حتى الكلمات التي استعملها ، فضلاً عن الآراء التي صدر عنها . قال : « من الخطأ أن نعترف بالشيطان سيداً على أجسادنا . لأننا إذ نفعل ذلك إنما نعبد إلهين ، مهينين جسد المسيح الذي نتناول منه في الافخارستيا . وعندئذ يصبح التناول من

جسد المسيح يعني التناول من ينبوع الشر والرذيلة .» لقد جدّف على الله . ثم قال : « ليس يهمني حتى ولو كان لنا إلهٌ بقرنين ما دام ثمةَ إله واحدٌ ليس غير ، لأن من المتعذر على المرء مواصلة العيش في غير هذه الحال . » وأهلكني بحديثه ، ونسيت كل ما كان الأب فيودور قد وجّهه اليّ من نصيحة ، وصحت في وجهه : « جسدك حانةٌ ، وروحك تخريب . » وأنّبني رئيس الدير بعد ذلك قائلًا : « ماذا دهاك ؟ ايّ هزلٍ هرطقيّ هـذا ؟ » والحق ان كلماتي لم تكن شيئاً غير ذلك . »

وبدت القصة عبثاً مضحكاً في عيني بيوتر . ولكنها سرت عنه بعض الشيء إذ قدّمت له أخاه على مثل هذا الضوء الذي يدعو الى الرثاء . وتمتم :

« من العسير أن يتحدث المرء عن الله . »

واقرّه الأب نيقوديم على ذلك ، قائلًا :

« أجل ، من العسير . »

ثم سأل في مرارةٍ مداهنة :

« أتذكر ما كان والدنا يقوله ؟ كان يقول : نحن مجرّد جماعة من العمال . وان تلك الحكمة لشديدة الشموخ علينا . »

— « أذكر ذلك . »

— « نعم . الأب فيودور يقول : « إقرأ الكتب ! » ولقد فعلت ، ولكني أحب في الوقت نفسه أن استمع الى عزيف الريح في الاشجار ، وسط احدى الغابات النائية ، في مكانٍ ما . إن الكتب لا تلائم زماننا . فالأفكار التي تواجهك اليوم — لن تجد



عنها جواباً في الكتب . شبعٌ في كلّ مكان . والناس يتجادلون وكأنهم يقصّون حكاية أحلامهم . مثل السكارى حين يشرق عليهم صباح اليوم التالي . خذ ذلك الخباز مورزين . . »

ورشف الراهب بعض الخمر ، ومضغ شيئاً من الخبز . وضغط قطعة من الخبز الناعم على شكل كرةٍ صغيرة وراح يدحرجها على المائدة فيما هو يواصل الكلام :

« يقول الأب فيودور إن البلاء كله ناشيء عن العقل . إن الشيطان لا ينفكّ يسقمه حتى يغدو مثل كلب سيء الطباع . هو يحرّضه والكلب ينبح لغير ما سبب . وقد يكون هذا صحيحاً . ولكن الايمان به مخالفٌ للميل والمشرب. عندنا هنا طبيب. وهو رجلٌ مرحٌ لا يعرف الادّعاء . إنه ينظر الى المسألة نظرةً مغايرة: العقل طفل ، وهو يرى كلّ شيء على أنه دمية . كل شيء يشوقه . فهو يريد ان يعرف كيف تجري الاشياء ، وكيف تُصنع ، وما الذي تحتويه في داخلها وهكذا ،طبعاً، يكسر الاشياء. . .»

ولاحظ بيوتر :

« يجب ان أقول إن هذا الضرب من الكلام خطِرٌ . »

فقد زرعت كلمات اخيه القلق في نفسه، كرّة أخرى ،وهزّته هزّاً عنيفاً ، وبدت له مرعبة في حدّتها وعدم توقّعها . ومرةً ثانية استشعر الرغبة في أن يسحق نيكيتا ، أن يهينه .

وخاطب نفسه محاولاً أن يستعيد هدوءه :

« إنه غل . »

كانت الحجيرة محبوسة الهواء ، فاسدته . وكانت روائح

حامضة بعض الشيء تنبعث من الفحم المختنق بالدخـــان ، في السماور ، ومن الزيت في مصباح الايقونة المرتجف . لقد بلّدت افكارَ بيوتر . وعلى سطح النافذة الصغير الاسود بـدت اوراق نبتةٍ ما ، جامدةً لا حراك فيها ، مثل رسمٍ منسوخ على رقٍّ من حديد . واخوه العنكبوتي ماضٍ في حديثه ، يغزل نسيج كلماته في رفق ومواظبة :

« كل الافكار خطرة . والبسيطة منها بخاصة . خذ تيخون مثلًا . »

« انه نصف معتوه . »

— « أوه ، لا ، انه ليس كذلك . انه يملك كامل عقله . وهو عقل مدقّق . لقد كنت اخشى أن اتكلم معه ، حتى في باديء الامر . حاولت ان افعل ذلك ولكنْ كانت تعوزني الاعصاب. ثم إن تيخون كسبني ، بعد وفاة أبينا . والواقع انك لم تحبّ الوالد كما أحببته انا . أنت وألكسي لم تُحسّا بأن وفاته كانت جائرة ، غير عادلة . ولكن تيخون أحس . وأنا لم اكن ناقماً ذلك اليوم على الراهبة ، لبلاهتها . وانما كنت ناقماً على الله. وقد رأى تيخون ذلك ، أولَ وهلة. فقال : أجل، ان البعوض يعيش ، ورجلٌ .. »

واعترضه بيوتر عابساً :

« أنتَ تهذي ! لقد أسرفتَ في الشراب . ايّ راهبة هـذه التي تتحدث عنها ؟»

ولكن نيكيتا مضى في حديثه بأصرار :

« يقول تيخون : اذا كان الله سيّد الكون فعندئذ ينبغي ان

تهطل الامطار في الوقت المناسب، حين تكون مفيدة للزرع والناس. واذا ما نشبت حرائق فان هذه الحرائق لا تنشب كلها بسببٍ من اهمال الانسان. ان البرق هو الذي يشعل النار في الغابات. ولماذا تعيّن على قايين ان يقع في الخطيئة، أليحمل الينا الموت؟ ما حاجة الله الى الخلقة المشوّهة؟ أصحاب الحدبات، مثلاً — لاي شيء يريدهم الله؟»

— «آها، هذه هي المسألة اذن.» كذلك فكّر بيوتر مبتسماً ابتسامة خفية. لقد سرّى عن نفسه أن يسمع أخاه يشكو الاله. وكان من الخير ان الراهب لم يتشك شيئاً من اسرته.

— «قايين — ذلك ما لا استطيع ان افهمه. بهذا وضع تيخون الاغلال في يديّ ورجليّ. وهكذا تطرّق الشكّ الى صدري منذ وفاة الوالد. وكنت احسب، حين اعتزلت الحياة، انه لا بدّ زائل. ولكنه لم يَزُل. فقد ظلت الافكار نفسها تضج في جنبات نفسي.»

— «انت لم تتحدث عن مثل هذه الاشياء من قبل.»

— «هناك امور لا يتحدث عنها المرء منذ البدء، وكنتُ خليقاً ان اعتصم بالصمت، حول هذه المسألة، بقية عمري. بيد ان الحجاج سلبوني الطمأنينة والامن. لقد أقلقوا ضميري. ثم انها خطِرة. لنفرض ان افكار تيخون برزت بغتةً وسط مواعظي المملة؟ قل ما تشاء، انه رجلٌ بارع، على الرغم من انني قد لا أحبه. انه يفكر فيك، ايضاً. فهو يقول: ههنا رجلٌ اشتغل

طوال عمره من اجل اولاده ، واولاده غرباء عنه . »

وتساءَل بيوتر مُغضَباً :

« أيّ نوع من المراء هو هذا ؟ ما الذي يمكن أن يعرفه عن ذلك ؟ »

– « إنه يعرف . هو يقول إن العمل أضحوكة . »

– « لقد سمعته . ينبغي أن يُطرَد ذلك المجنون – لولا أنه يعرف شيئاً كثيراً عنّا ، وعن شؤوننا العائلية . »

وإنما قال ذلك ليذكّر نيكيتا بتلك الليلة الكئيبة التي حال فيها تيخون بينه وبين الانتحار ؛ ولكنّ بيوتر نفسه كان يفكّر في نيقونوف الغلام . ولم يُدرك الراهب مغزى تلك الأيماءة . ورفع نظارتيه ، وغسل لسانه بالخمر ، ثم لحسَ شفتيه . وفي كثير من الفتور تابعَ كلامه :

« وهناك من آذى تيخون ، ذات يوم ، أيضاً . وهكذا تراه يجتنب الناس جميعاً مثل رجلٍ مفلس . »

وكان ذلك موضوعاً ينبغي أن يُبتعَدَ بالحديث ، عنه .

وسأله بيوتر :

– « حسناً ، وما النتيجة ؟ ألم تعد تؤمن بوجود الاله ؟ »

ومن عجب انه قصد الى أن يكون صوته قارصاً ، ولكنه ، بطريقةٍ ما ، لم يكن .

وأجاب الراهب بعد تمهّل :

« من العسير على المرء أن يعرف من هو المؤمن في هذه الأيام . انك لتجد كل امرىء منهمكاً في التفكير ، ولكنك لا تقع على

كثير من أمارات الأيمان . أنت لا تحتاج الى ان تفكّر ، إذا ما كنت مؤمناً . وذلك العالم الذي تحدّث عن إله ذي قرنين . . »

ونصحه بيوتر وهو يرمق كتفه بمؤخر عينه :

« دع عنك ذلك . إنما ينشأ هذا كله من الضجر ، من فقدان العمل . إن ما يحتاج اليه الناس لا يعدو ان يكون بعض الأنيار الحديدية القوية . »

وقال الاب نيقوديم في إصرار :

« لا ، إنك لا تستطيع أن تؤمن باثنين . »

وقُرع الناقوس من جديد . كانت ضرباته الموزونة تصفع زجاج النافذة القاتم . وسأل بيوتر :

« أذاهبٌ أنت الى الصلاة ؟ »

— « لست أذهب . إن رجليّ تؤلمانني الى حدّ لا استطيع معه الوقوف . »

— « هل تصلّي من أجلنا هنا ؟ »

ولم يُجب الراهب بشيء .

— « حسناً ، لقد آن لي أن آوي الى الفراش . إن هذه الرحلة ذهبت بقوتي كلها . »

ولم يجب نيكيتا أيضاً . ثم إنه استعان بذراعي الكرسي ورفع جسده ذا الزوايا ، في احتراس ، وصاح :

« ميتيا ! ميتيا ! »

ثم غرق في الكرسي من جديد ، وقال معتذراً :

« آسف - لقد نسيت . إن القائم على خدمتي آوى الى النوم

في منزل الأضياف . لقد طلبتُ اليه ذلك لأني أردتُ أن اتحدث في حرية ، وكلهم ههنا وشاة يسترقون السمع وينقلون الأخبار . »

وفي اسهاب لا ضرورة له دلّه على الطريق المؤدية الى منزل الأضياف . حتى اذا خرج بيوتر الى الظـــلام ، حيث كان مطر باردٌ خفيف يهطل ، قال في ذات نفسه :

« إنه لم يُرِدْ أن يدعني أذهب . إنه يحسّ الحاجـة الى أن يتكلّم . »

وفجأة ، وفي خوفه المـــألوف الذي لا مسوّغ له ، استشعر آرتامونوف الكبير ، كـرّةً أخرى ، أنه كان يمشي على حافةهوّة سحيقة ، قد يسقط في أعماقها كلّ لحظة . وأغـــذّ السّير ، ناشراً ذراعيه ، متلمّساً سبيله تحت الرذاذ الذي جعل الليل على مثل تلك الحلكة ، وقد ركّز عينيه على تلك البقعة الزيتيـة الصفراء التي تلوح من بعيد ، حيث كان فانوسٌ يشير الى منزل الضيافة .

وخاطب نفسه في تعجّل وهو لا يزال يتعثر :

« لا ، ليس هذا مناسباً لي. سوف ابرح المكان غداً . انـــه لم يُجعل لي وعلى اية حال ، فممّ اشكو ؟ ان ايليا سوف يعود! يجب ان اقبض على الحـياة بيد قوية . انظر الى الكسي كيف يشق طريقه في اندفاع . انه جدير بان يستقلّ بالامر دوني ، في يوم من الايام . »

وأقحم التفكير بالكسي اقحاماً لكي يُقْصي نيكيتا وتيخون عن ذهنه. ولكن بيوتر لم يكد يتمدّد على فراشه الصغير الصُلْب في منزل الاضياف حتى استبدت بـــه ، كرةً اخرى ، افكارٌ

مزعجة تدور كلها حول الراهب والبستاني . ايّ رجل هو تيخون هذا ؟ ان ظله ليقع على كل شيء حوله . ان صدى كلماته يتردّد في حديث ايليا الصبياني ، وان آراءه لتفتن نيكيتا وتسحره .

وفكر بيوتر في اخيه نيكيتا :

« مُعَزٍّ ! خذ سيرافيم ، النجار البسيط — انه يعرف كيف يعزي . »

وأبى النوم ان يأتي. كان البعوض يعضه. وكان الناس يتحدثون في الغرفة المجاورة . لقد ميّز بيوتر اصواتاً ثلاثة ، وبـــدا له ان اصحاب هذه الاصوات يجب ان يكونوا مورزين الخباز، والتاجر ذا الرجل السقيمة ، والرجل الذي كان أشبه شيء بالخصيّ .

— « اغلب الظن ، انهم يعاقرون الخمر . »

وفي فترات متباعدة كان حارس الدير يقرع جرَسه الحديدي. وفجأة، وفي سرعة بالغة ، اخذت الاجراس تقرع داعية القوم الى صلاة الصباح وكأنما قد فات اوانها . وفيما هي تجلجل ، استسلم بيوتر لنوم عميق .

وجاء الصباح بأخيه ، كعهده به امس في الحديقـــة ، وراح ينظر اليه النظرة العدائية الغريبة عينهـا — شزراً ومن ادنى الى اعلى . وسارع آرتامونوف الكبير الى غسل وجهه وارتداء ملابسه، وسأل الخادم أن يُعِدّ له فرساً يحمله الى أقرب محطة من محطات البريد .

وسأله الراهب في غير ما دَهَشٍ كثير :

« ولِمَ هذه العجلة كلها؟ لقد ظننتُ أنك ستمكث عندنا فترة . »

ـ « ضرورات العمل تستحثني على الاسراع في العودة . »
وجلسنا لتناول الشاي . وانقضت فـــترة لم يخطر لبيوتر ، خلالها ، أيما شيء يمكن أن يقوله لأخيه . واخيراً تذكّر أمراً ، فسأله :
« إذن ، فأنت تفكـّر في مبارحة هذا المكان . »
ـ « إني لأرجو ذلـك . ولكنهم لا يريدون أن يسمحوا لي بالذهاب . »
ـ « وكيف تفسّر موقفهم هذا ؟ »
ـ « إن وجودي هنا ليعود عليهم بالربح . إني مفيدٌ لهم . »
ـ « فهمت . والى اين تعتزم ان تذهب ؟ »
ـ « قد اطوّف في البلاد . »
ـ « برجليك الضعيفتين ؟ »
ـ « حتى الذي لا قدمين له يستطيع ان يطوّف بطريقة ما . »
واقرّه بيوتر على ذلك قائلاً :
« هذا صحيح . إنهم يفعلون . »
ورانَ عليهما صمتٌ . ثم ان نيكيتا قال :
« إحمِلْ الى تيخون ودّي واحترامي . »
ـ « والى من أيضاً ؟ »
ـ « الى الجميع . »
ـ « سوف أفعل . ولكن لماذا لم تسألني شيئاً عن ألكينسي؟ »
ـ « وايّ شيء أسألك عنه ؟ أنا أعلم أنه يعرف كيف يعيش . قد اغادر هذا المكان في وقت قريب جداً . »

- « أنت لا تستطيع أن تذهب في فصل الشتاء . »
- « ولمَ لا ؟ إن الناس يطوّفون في البلاد خلال فصل الشتاء أيضاً . »

وأقرّه بيوتر على ذلك ايضاً :

« صحيح . إنهم يفعلون . »

وقدّم الى أخيه بعض المال .

- « حسناً . سوف اذهب لأصلاح المطحنة . ألا تريد أن ترى رئيس الدير ؟ »
- « ليس ثمة متّسع لذلك . الحصان ينتظر . »

وتعانق الأخوانِ عناقَ الوداع . والواقع أن معانقة نيكيتا كانت شيئاً مزعجاً . إنه لم يبارك أخاه . لقد علقت يده اليمنى بردن ثوبه الضيّق الطويل ، وبدا لبيوتر أن ذلك كان عملاً مقصوداً . وفيما كانت حدَبَتُهُ تضغط على جوف بيوتر قال نيكيتا في جَرْس كئيب :

« اذا قلتُ شيئاً ليس ينبغي لي ان أقوله ، أمس ، فاعذرني . »

- « إنسَ ذلك . نحن أخوان . »
- أنت تفكر ، وتفكر ، طوال الليالي ... »
- « أجل ، أجل . حسناً ، الى اللقاء . »

وفيما كانت ابواب الدير تغيب عن العينين شيئاً بعد شيء تلفّت بيوتر الى الوراء . لقد بدت صورة أخيه على البعد أشبه ما تكون بصخرة إزاء جدار منزل الأضياف الأبيض .

- « الى اللقاء ! » كذلك تمتم رافعاً قبعته عن رأسه . وماهي

الا لحظة حتى تبلـّل رأسه الحاسر بِرذاذ المطر . كانت الطريق تنبسط عبرَ غابةٍ من غابات الصنوبر . وكان الهدوء يرينُ عـلى كل شيء ، خلا إبر الصنوبر التي كانت ترنّ رنيناً زجاجياً فيما تضربها حبّات المطر . وفي مقعد الحوذي كان أحد الرهبان يعلو ويهبط في قوةٍ وعنف . وكان الفرس مصبّغاً بلون الكستناء ، ولم يكن يعـــلو أذنيه شعورٌ ما .

وقال بيوتر مخاطباً نفسه :

« كيف يتخيّر الناس موضوعات أحاديثهم ! الله يرسل المطر في غير الوقت الملائم . ان ذلك كله لينبعث من السخط والحسد والخلقة المشوّهة . انه ثمرة الكسل وانعدام الهموم . إن الرجـل حين يعدم الهمّ أشبه شيء بكلبٍ من غير سيد . »

وتطلّع بيوتر خلفه ، وهو يرتجف . لقد أحسّ أن هذا المطر بالذات كان يهطل ، فعلاً ، في غير الوقت المـــلائم . واحتوته أفكاره المعتمة ، كرة اخرى ، وكأنها سحابة ثقيلة الوطأ . ولكي يحرّر نفسه من تلك الأفكار راح يشرب الفودكا عند كل محطة من محطات البريد .

وحوالى المساء ، عندما تراءت المدينة ذات الادخنة للعيان ، اعترضَ الطريقَ قطارٌ لاهث . وصَفَرت القاطرة ونفثت شيئاً من البخار ، ثم غاصت في فم تجويفٍ نصف دائريّ ، وغابت تحت سطح الأرض .

●

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وهو الأخير

سلسلة علّم نفسك

نقلها الى العربية الاستاذ منير البعلبكي

صدر منها :

			ق. ل
١	كيف تكسب السعادة	لبرتراند راسل	١٥٠
٢	قادة الفكر الحديث (كارل ماركس، برنارد شو الخ.)	للاستاذ كوتس	١٥٠
٣	علم النفس الحديث	للاستاذ سارجنت	١٥٠
٤	كيف تفكر	للدكتور جبسون	١٥٠
٥	ألفباء المرض والشفاء	« كوبلاند	١٥٠
٦	الحضارة الاوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة	للاستاذ شيفل	١٥٠
٧	اعمدة الاستعمار الاميركي	للاستاذ فكتور بيرلو	١٥٠
٨	مصرع الديمقراطية في العالم الجديد	« البرت كان	١٥٠
٩	فلسفة من الصين	للفيلسوف لين يوتانغ	١٥٠
١٠	قصص انسانية عالمية	لتوستوي، تشيخوف الخ	١٥٠

الناشر : دار العلم للملايين



كنوز القصص الإنساني العالمي

سلسلة جديدة تعرّف القارىء العربي
الى شوامخ الآثار القصصية العالمية
ذات النزعة الانسانية

اختارها ونقلها الى العربية
منير البعلبكي

الثمن :

صدر منها :

١ — كوخ العم توم
أو : الحياة مع المعذبين في الارض — لهنرييت ستا

٢ - اسرة آرتامونوف (الجزء الاول) لمكسيم غ

يصدر قريباً

٣ — اسرة آرتامونوف (الجزء الثاني) لمكسيم غور

الثمن ٣٠٠ ق. ل.

مطابع دار الكشاف - بيروت